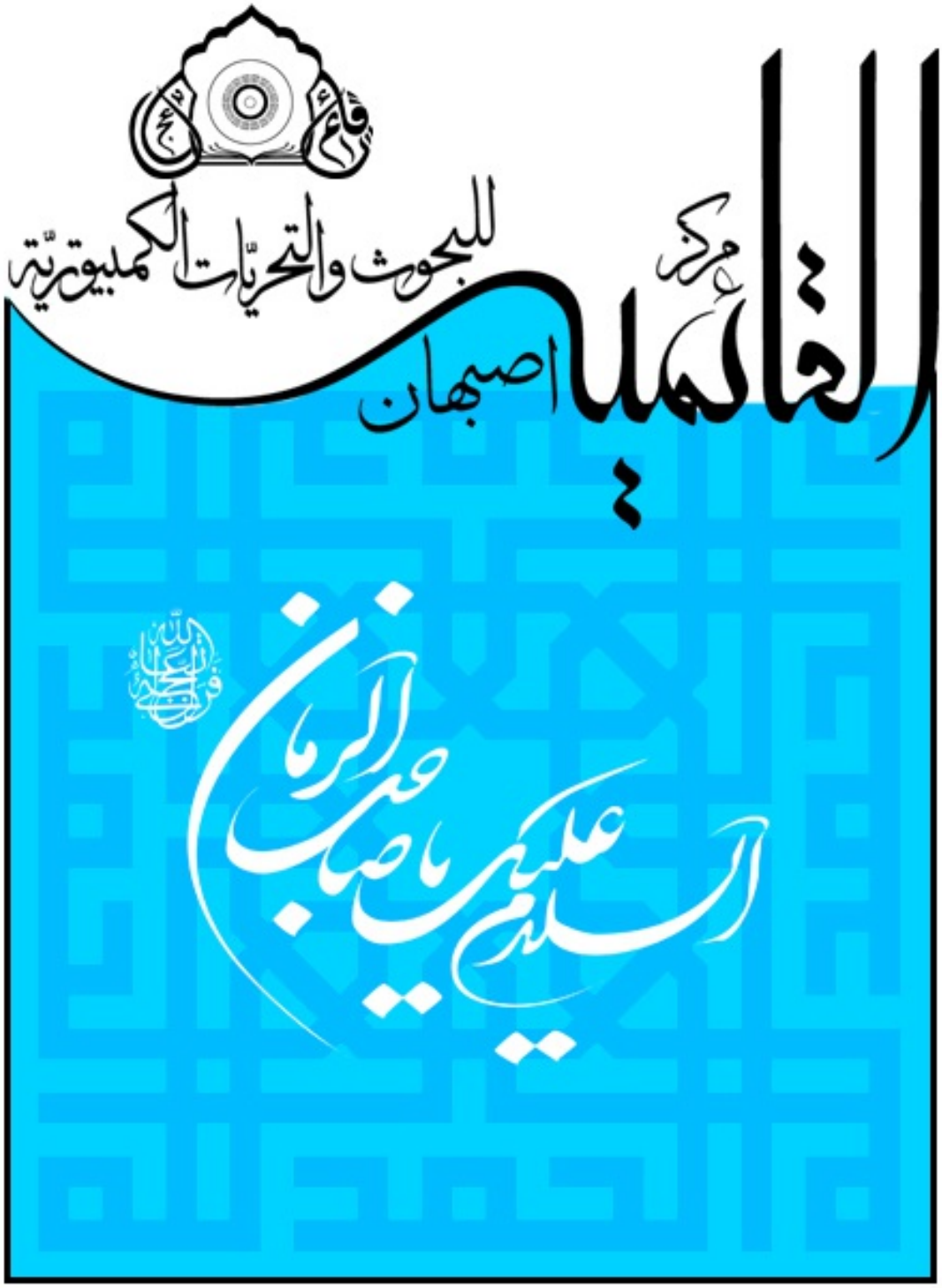

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

حركة التاريخ عند الإمام علي

محمد مهدي شمس الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

حركة التاريخ عند الامام على عليه السلام

كاتب:

محمد مهدى شمس الدين

نشرت فى الطباعة:

بنياد نهج البلاغه

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
حرکة التاریخ عند الامام علی(ع) ----- ۷
اشارة ----- ۷
المقدمة ----- ۷
التاریخ و حرکة التقدم البشری و نظرة الإسلام ----- ۹
الامام فی مواجهة التاریخ ----- ۱۳
التاریخ عند الإمام فی المجال الوعظی و فی المجال السیاسی الفکری ----- ۱۵
التاریخ فی مجال الوعظ ----- ۱۷
التاریخ فی مجال السیاسة والفکر ----- ۱۹
التاریخ فی مجال الفکر ----- ۲۰
اشاره ----- ۲۰
النبوات ----- ۲۳
وعی التاریخ ----- ۲۹
التاریخ یعید نفسه ----- ۳۲
مصارع القرون عوامل انحطاط الأمم ----- ۳۴
التاریخ فی مجال السیاسة ----- ۴۷
اشاره ----- ۴۷
حرکة التاریخ فی مظهر التفاعل الإجتماعی الثوری ----- ۴۸
الفتنة ----- ۵۲
انتصار حرکة الردة ----- ۶۳
المعاناة ----- ۶۴
الثورة ----- ۶۷
الامل ----- ۶۹

پاورقی ---------- ۷۲

تعریف مرکز القائمیۀ باصفهان للتحریات الکمبیوتریۀ ---------- ۹۰

حرکة التاریخ عند الامام علی(ع)

اشارة

سرشناسه: شمس‌الدین، محمدمهدی، - ۱۹۳۱

عنوان و نام پدیدآور: حرکه التاریخ عند الامام علی(ع)/ محمدمهدی شمس‌الدین

مشخصات نشر: طهران: بنیاد نهج البلاغه، ۱۴۰۵ق. = ۱۳۶۳.

مشخصات ظاهری: ص ۲۰۶

فروست: (انتشارات بنیاد نهج البلاغه۲۴)

شابک: بها: ۳۰۰ریال

وضعیت فهرست نویسی: فهرستنویسی قبلی

یادداشت: کتابنامه به‌صورت زیرنویس

موضوع: علی‌بن ابی‌طالب(ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- سیاست

موضوع: تاریخ (کلام)

رده بندی کنگره: BP۳۷/۶/ش۸ح۴

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م۲۷۴۸-۶۴

المقدمة

التاریخ هو حرکةُ الشیء فی محیطه خلال الزّمان، وبعبارةٍ أخری: التاریخ هو عملیةُ التحوّل والتغیّر والإنتقال (الصبرورة) من حالةٍ الی حالة، الّتی تعتری الشیء أو یُنجزها الشّیء من خلال علاقته بعناصر محیطة عبرَ الزّمان.

وقد کان الشّیءُ فی النّظرة السّائدة قدیماً یعنی الإنسان فقط، ویعنی- بصورة محدّدة- الفعالیات الإنسانیة: المجتمع والمؤسسات السّیاسیّة والعسکریة والإجتماعیة والثقافیة.

لقد کان التّاریخ علم حرکة الإنسان من خلال محیطه فی الزّمان، ولکن العصر الحدیث شهد تطوراً فی مدلول هذا المصطلح فاتّسع لیشمل کلّ شیء فی الطّبیعة والحضارة: الأرض، والمعادن، والنّباتات، والحیوان، والأفکار، والعلوم.. وغیر ذلک إلی جانب الفعالیات الإنسانیة، وغدا فی وسع المؤرخ ذی النظرة الشاملة أن یدّعی أن التّاریخ کالفلسفة ذو موضوع شامل لکلّ ما یمکن أن یدخل فی الوعی البشری.

ولعلّ بعض المؤرخین المسلمین العظام کانوا قد انتهوا فی تفکیرهم إلی حافة هذه النّظرة الّتی تُعطی التّاریخ مفهوماً شاملاً یتجاوز الفعالیاتِ الانسانیة، فنلاحظ أنّهم أدخلوا فی کتاباتهم التّاریخیّة معلوماتٍ جغرافیة أو فلسفیّة، والمسعودیُّ فی کتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» مثال بارز علی ذلک.

ولکن هذه النّظرة الشّمولیة لا تعنینا هنا. إنَّ عِنایتنا موجهة نحو تاریخ الإنسان. وربّما أمکن ردّ کلّ فروع التّاریخ الأخری- فی النّظرة الشّمولیّة الحدیثة- إلی تاریخ الإنسان، من حیث أنها تؤرّخ لبعض نشاطاته (تاریخ العلوم، الفنون والآداب، الفلسفة) أو تؤرّخ لبیئته (النّبات، الحیوان، طبقات الأرض).

وإذن، فالتّاریخ هو حرکة الإنسان فی محیطه خلال الزّمان، وقد یعالج التّاریخ حرکة الإنسان فی مجتمع معین أو فی إِطار ثقافة معیّنة،

وقد يتسع ليعالج حركة الإنسان على صعيدٍ عالمى.

ولا شكَّ فى أن فكرة «العالميّة» لدى المؤرّخين المسلمين قد جاءتهم من القرآن الكريم حيث صوّر حركة الإنسانية من خلال عرضه لحركة النّبوات فى الأمم والشعوب، كما أنّهم استفادوا فى تعزيز نظرتهم العالميّة من «علم الأنساب» الّذى تحدّر إليهم من التّقليد الجاهلى القديم، ثمّ دخل- كغيره من المعارف العربية والإسلامية- عصر التّدوين. وليس المهمُّ هنا جانب الصّدق التّاريخى فى علم الأنساب، وهو أمر مشكوك فيه، وإنّما المهمّ ما تُعطيه المعرفة النّسبيّة من إدراكٍ لترابط الشّعوب والقبائل وعلاقاتها الدّاخلية، هذا الإدراكُ الذى يتجاوز بالمؤرخ حدود الجغرافيا والقبلية أو القومية ليفتح بصيرته على مدى أرحب.

على هذا المدى الرّحب كان الإمامُ علىُّ بنُ أبىطالب عليهالسّلام يتعامل مع التّاريخ، لا كمؤرّخ وإنّما باعتبارهِ رجل عقيدة ورسالة، ورجل دولة وحاكماً، ولم يكن يستخدم التّاريخ كمادّة وعظيّة فقط وإنّما كان يستهدف أيضاً منه النّقد السّياسى والتّربية السّياسية لمجتمعه والتوجيه الحضارى لهذا المجتمع.

ونحاول فى هذا الكتاب أن نجلوَ نظرةَ الإمامِ علىّ (ع) إلى حركة التاريخ، ونكتشف أساليب تعامله مع التّاريخ فى حياته العامة الفكريّة والسّياسيّة.

والمصدر الأساس لهذه الدّراسات هو كتاب نهجالبلاغة، وربّما استعنا بنصوص أخرى لم يضمّنها الشّريفُ الرّضى فى كتاب نهجالبلاغة للتّعرّفِ على مزيد من التّفاصيل بالنّسبة إلى نظرة الإمام التّاريخيّة أو لإكمال نصوص أوردها الشّريف الرّضى فى نهجالبلاغة مبتورة.

ونحن نرى أنّ كتاب نهجالبلاغة وثيقة عظيمة القيمة فى الحضارة الإسلاميّة من النّاحية الفكريّة والسّياسية. ولا ينقضى أسفنا على أنّ الشّريف الرّضى رحِمه اللّهُ قد جمع النّصوص لغاية جمالية تحكمت فى اختياره فجعلته يؤثِر النّصوص الممتازة من النّواحى البلاغيّة الفنيّة ويهمل ما عداها وقد يجزّئ- لهذا السّبب- من النّصّ بعضه الّذى تتوفّر فيه هذه الخاصّة ويهمل سائره، وهذا ما دعاه إلى أن يُعطى كتابه اسماًيلخص الغاية من جمعه له والمنهاج الّذى اتّبعه فى عمليّة الجمع فضاع على الحضارة الإسلامية بذلك علم كثير وفكر عظيم.

ولعلّ اللّه تعالى يقيض من العلماء والباحثين من يتقصّى فى كتب السّيرة والتاريخ والحديث والأدب جميع ما رُوِىَ عن أميرالمؤمنين عليهالسّلام ويخضعه لدراسة نقدية صارمة تميّز الأصيل فيه من المنحول الموضوع ويصنف ما يثبت للنّقد منه مع ما ورد فى نهجالبلاغة للشّريف الرّضى رحِمه اللّهُ تعالى تصنيفاً علمياً حسب موضوعات النّصوص (فى السّياسة، والفكر، والوعظ، والحرب، والفقه، والإلهيات وسائر العقائد ... وغير ذلك من الموضوعات) فذلك يجعل نهجالبلاغة ومستدركّه مصدراً ميسّراً للدّراسات العلميّة عظيم القيمة جليل الفائدة.

وقد قام المرحوم الشيخ هادى كاشف الغطاء بتأليف كتاب (مستدرك نهجالبلاغة) ورتّبه على نحو ما رتّب الشّريف الرّضى كتاب نهجالبلاغة (الخطب، والكتب، والحكم)، ولكن هذا العمل دون ما نطمح إليه لسببين: الأوّل- ما نقدّر من أنّ هذا الكتاب لم يستوعب كلّ ما أهمله الشّريف أو شذّ عنه، ولذا فإن الحاجة إلى عمل أكثر شمولاً لا تزال قائمة. الثّانى- ما يبدو لنا من أن كاشف الغطاء أثبت فى كتابه كلّ ما وجده منسوباً إلى الإمام ولم يخضع النّصوص للنّقد، وهذا ما جعله يثبت فى كتابه نصوصاً منسوبة إلى الإمام نقدر أنها موضوعة.

وهنا نجد من المناسب الإشارة إلى أنّ اللّغط الّذى أثير حول صحة نسبة ما جمعه السّيد الشّريف فى نهجالبلاغة إلى الإمام (ع) بوجه عام منذ ابن خلدون إلى زكى مبارك وأحمد أمين، من التّشكيك فى صحة النّسبة أو الجزم بعدم صحة النّسبة- هذا اللّغط الّذى أثاره التّعصب فى بعض الأحيان والجهل فى أحيان كثيرة قد انتهى أو يجب أن ينتهى إلى التّسليم بصحة النّسبة التّاريخيّة لِما ورد فى نهجالبلاغة بوجه عام إلى الإمام عليهالسّلام، فإنّ الدّراسات والأبحاث التوثيقيّة الّتى عقدت حول نهجالبلاغة منذ شارح نهجالبلاغة عزّ

الدين ابن أبی‌الحديد ۶۵۵-۵۸۶) هجری) إلی أيّامنا قـدّمت أجوبـۀ مقنعۀ علی جميع التّساؤلات الّتی أثيرت وأغلقت منافذ الشّک فی صحۀ نسبـۀ ما اشـتمل عليه نهج‌البلاغۀ إِلی أميرالمؤمنين علی بن أبی‌طالب (ع) بالقدر الّذی يكفی لتصـحيح النّسبۀ التّاريخيّۀ لأیّ نصّ من نصوص الفكر الإسلامی.

وهـذه الأبحـاث والـدّراسات علی قسـمين: منهـا مـا اتّبع منهـاج النّقـد الـدّاخلی حيث أخضـعت النّصوص لدراسـۀ تكوين الجمـل فيها والعلاقات بين جملـۀ وأخری، وأنواع المفردات والمجازات وما إلی ذلک من مكوّنات النّصّ. وهـذا ما صـنعه ابن أبی‌الحديد فی عدۀ مواضع من شـرحه، وبعض من تأخّر عنه من الشّراح والباحثين. وهـذا النّوع من الأبحاث قليل ومقصور علی بعض نصوص النّهج، ولذا فإنّ الحاجۀ ماسّۀ إلی دراسۀ شاملۀ لجميع نصوص نهج‌البلاغۀ تتبع هذا المنهاج.

ومنها ما اتّبع منهاج النّقد الخارجی حيث بحث عن مصادر متقدّمۀ فی الزّمن علی الشّريف الرّضی تضمّنت نصوصاً من نهج‌البلاغۀ.

وقد كانت نتائج هذه الدّراسات وتلک فی مصلحۀ صحۀ نسبۀ نهج‌البلاغۀ بوجه عام إلی الامام عليه‌السّلام.

ولعلّ آخر دراسـۀ توثيقيّـۀ هامّـۀ وشاملۀ اتّبع فيها منهاج النّقد الخارجی هی دراسۀ الأسـتاذ السّـيد عبد الزّهراء الخطيب الّتی نشـرها فی كتابِهِ (مصادر نهج‌البلاغۀ وأسانيده-۴ مجلدات/ دار الأعلمی للمطبوعات- بيروت).

ومن المؤكّد أنّ هذه الدّراسۀ لن تكون الأخيرۀ، فإنّ دراسات أخری سـتضاف إلی ما تمّ إنجازه فی هذا الحقل كلّما تنامت حركۀ نشر كتب الفكر الإسلامی الّتی لا تزال مخطوطۀ وموزّعۀ فی مكتبات العالم.

بقی علیّ أن أشـير الی أنّ هـذه الدّراسـۀ عن حركـۀ التّاريخ عند الإمام علی (ع) حلقۀ فی سلسـلۀ من الدّراسات فی نهج‌البلاغۀ سـبقها كتابنا (دراسات فی نهج‌البلاغۀ) وقد اشتمل علی أربع دراسات هی:

۱- المجتمع والطبقات الإجتماعيۀ.

۲- الحكم والحاكم.

۳- المغيبات.

۴- الوعظ، وأضيفت إليها فی الطّبعۀ الثّالثۀ دراسۀ خامسۀ بعنوان الأمر بالمعروف والنّهی عن المنكر والأكثريۀ الصامتۀ.

دراسات فی نهج‌البلاغۀ:

الطّبعۀ الأولی- النَّجف العراق--۱۹۵۶

الطّبعۀ الثّانيۀ- بيروت- دار الزّهراء ۱۳۹۲ هجری ۱۹۷۲ م

الطّبعۀ الثّالثۀ. بيروت.

لقد انتفعت بكتاب (الكاشف عن ألفاظ نهج‌البلاغۀ فی شـروحه) لمؤلفه: السّـيّد جواد المصـطفوی الخراسانی. وهو عمل جليل القدر، عظيم الفائـدۀ للباحثين. نأمل أن يطوِّره مؤلفه بحيث يكون أكثر شـمولاً للشـروح فی طبعاتها الجديدۀ المتداولۀ، وللنّصوص الواردۀ فی مستدركات نهج‌البلاغۀ.

والحمد للّه رب العالمين.

التاريخ و حركۀ التقدم البشری و نظرۀ الإسلام

التّاريخ حركۀ الكائن فی الزّمان والمكان.

والكائن جماد، ونبات، وحيوان، وإنسان.

وتاريخ كلّ من الجماد والنّبات والحيوان يسير وفق قوانين ثابتۀ، وموضوعۀ خارج هذه العوالم.

إنّ الجماد لم يضع قوانين حركته، ومن ثمّ فإنّه لم يضع قوانين تاريخه، وكذلک النّبات والحيوان.

إنّ هذه العوالم الثّلاثة خاضعة فى جميع حالات وجودها لمبدأ الضّرورة، ومن ثمّ فتاريخها من جميع وجوهه خاضع لمبدأ الضّرورة، إنّه حصيلة حركتها الضّرورية فى الزّمان والمكان، ومن ثمّ ف (الخطأ) غير وارد فى تاريخ هذه العوالم، إنّها لا تصنع تاريخها ولذا فهى لا تقع فى أخطاء العمل.

أمّا تاريخ الإنسان فشىء آخر.

إنّ الإنسان يتعامل مع الكون على أساس مبدأ الإختيار لأنّه كائن حرّ لا يخضع لمبدأ الضّرورة إلا فى نطاق العمليات البيولوجية فى جسمه، ومن ثمّ فإنّه يشارك فى وضع قوانين حركته فى الزّمان والمكان، فإنّ الإنسان يكيّف نفسه لتنسجم مع الطّبيعة حين يعجز عن تكيّف الطّبيعة لتنسجم معه.

والإنسان يحب ويبغض، ويأمل ويأس، ويتألم ويحلم، والإنسان يخاف...

يخاف من المجهول، ويخاف من المستقبل ... والإنسان، قبل كلّ شىء وبعد كلّ شىء، يفكّر: يحلّل المواقف والمشكلات الّتى تواجهه، ويركّبها، ويوازن بين احتمالاتها،ويرجّح ويختار، ويتحرّك وفقاً لاختياره، فهو إذن يستجيب فى حركته لعالمه الخارجى ولعالمه الدّاخلى من موقع الإختيار باعتباره كائناً حراً لا من موقع الضّرورة.

ومن هنا فإنّ الخطأ فى التّحليل والتّركيب والإختيار، والرّجوع إلى الوراء فى حركته، وما يؤدّى إليه ذلك من خيبات الأمل فى خططه ومشاريعه- أمور حدثت للإنسان دائماً فى حركته التاريخيّة.

ولذا فإنّ تاريخ الإنسان كما هو سجل مشرق ومشرّف لانتصاراته وإنجازاته فى الطبيعة والمجتمع هو كذلك سجل كئيب حافل بأخطائه، وانتكاسات حركته نحو المستقبل، وخيبات أمله.

ومن أسوأ ما يمكن أن يقع فيه الإنسان من أخطاء: حسبانه فى كثير من الحالات أنّه كان دائماً على صواب، وأنّ تاريخه يمثل خطاً صاعداً باستمرار، وأنّ حركته نحو المستقبل- لذلك- تقدميّة دائماً، خيرة دائماً، صائبة دائماً، لا يتخللها خطأ ولا انحراف.

ومثل ذلك فى السوء حسبانه أنّ كلّ ماضيه خطأ وتخلف، ومن ثمّ فهذا الماضى لا يستحقّ منه الإلتفات والمراجعة، وأنّه اهتدى إلى النّظرة الصّائبة فى حاضره، وأنه فى حركته نحو المستقبل حليف الصّواب والتّوفيق باستمرار.

إنّ هذا الحسبان وذلك يحملان الإنسان على ارتكاب مزيد من الأخطاء، والوقوع فى كثير من المآسى وخيبات الأمل.

ذلك بأنّ الإنسان حين يخال حركة التّاريخ دائماً على صواب فإنّه يلغى جميع المؤثّرات الإنسانية، ويسلم نفسه لحركة التّاريخ الإنسانى كما لو كان هذا التّاريخ خاضعاً لمنطق الضّرورة كتاريخ الجماد والنّبات والحيوان. ومن ثمّ فإنّه يرتكب الأخطاء الكبرى وهو يحسب أنّه على صواب، ويصحّح أخطاءه بأخطاء أخرى

تسبّب للإنسانية مزيداً من التخلف على كلّ صعيد، ومزيداً من المآسى الفرديّة والجماعيّة.

وكذلك الحال حين يحكم الإنسان على ماضيه بأنّه مجموعة أخطاء قاد أسلافَه إليها الجهلُ وسوء الفهم وسوء التّوجيه، ولذا فلا شىء من هذا الماضى يصلح للحاضر وللمستقبل. وأنّه كان ضالاً فاهتدى، وأنّه امتلك الحقيقة التّاريخيّة وكانت ضائعة منه بسبب هذا الّذى غلّه وشلّ قواه.

إن الإنسان باتخاذه لهذا الموقف يحكم على جميع تجارب الماضى بالفشل والبطلان، وهو حكم لا شكّ فى أنّه جائر عن قصد السّبيل، لأنّ الحقيقة هى أنّ فى تجارب هذا الماضى الكثير الكثير من الصّواب الّذى تكبّدت الإنسانيّة أنواعاً شتّى من الآلام والتّضحيات وتحمّلت كثيراً من المصاعب فى سبيل الوصول إليه والإهتداء إلى معالمه.

كِلا هذين الموقفين يؤدّى بالإنسان إلى أن ينظر إلى نفسه وعقله فى حاضره و مؤسساته السياسيّة وغيرها وسائر نظمه بثقة مطلقة لا مبرّر لها. ولنقل إنّه فى هذه الحالة الّتى يرفض فيها جميع الماضى أو فى تلك الحالة الّتى يخال فيها حركة التّاريخ دائماً على صواب- ينظر إلى نفسه وموقفه بغرور أجوف ولعل هؤلاء وأُولئك ممّن عناهم اللّهُ تعالى بقوله: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ

سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً. أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا».

إنّ هـذا الغرور الأـجوف، وتلـك الثّقـة المطلقـة الّتى لاـ مبرّر لهـا تؤدّيان بالإنسان إلى الوقوع فى أخطاء كبرى تعرض المجتمعات بل وجانباً كبيراً من الإنسانيّة لكوارث عظمى ومتنوّعة لم يعرف لها التّاريخ مثيلاً.

١- سـورة الكهف (رقم١٨ مكّيـة) الآيات:.١٠٦-١٠٣ والآيـات تومئ إلى النّظرة الّتى تعتبر حركـة التّاريـخ خاضـعة للإعتبارات المادّيّة وحدها، والنّظرة الّتى تقيس التّقدّم البشرى بالمقياس المادّى وحده.

وهذا ما وقع فيه إنسان الحضارة الحديثة، والويل له مما صنعت يداه فى المقبلات من الأيام.

وقـد ولّـدت هاتـان النّظرتـان المتطرفتـان إلى التّاريـخ وإلى المسـتقبل مفهومـاً للتّقـدّم البشـرى غير متكامل ومِن ثمّ دافع بالإنسان إلى ارتكاب المزيد من الأخطاء الكبرى فى شأن نفسه وفى شأن عالمه.

لقـد اعتبر التّقـدّم فى الحضارة الحديثـة بالمقياس المادّى وحده. فيقاس التّقدّم فى أىّ مجتمع وفى ظل أىّ نظام سياسـى بحجم الإنتاج والإسـتهلاك بالنّسـبة إلى أشـياء الحياة المادّيـة: الطّعام، والملابس والمساكن وأدوات الزّينـة، ووسائل النّقل والطّاقة والطّرق، ووسائل اللّهو ووسائـل تيسـير الحيـاة اليوميـة المنزليـة وغيرهـا، والمصـانع والأسـلحة ومـا إلى ذلـك من أشـياء، يضـاف إلى ذلك المؤسـسات الحكومية والأهلية الّتى تنظّم كلّ هذه العمليات..

ولا يقيم هذا المفهوم عن التّقدّم البشرى وزناً لوضعية الإنسان الأخلاقيّة وللقيم الّتى ينبغى أن توجّه سلوكه مع الطّبيعة المادّية، والعالم، والمجتمع والأسرة.

وهذا المفهوم هو الدّليل الّذى يوجّه أفكار وخطط وعمليات المؤسسات الوطنية والدّولية المعنية بقضايا التّنمية، فالوكالات المتخصّصة للأمم المتّحدة، والجامعات، ومراكز الأبحاث الدّولية والوطنية تعتبر حركة التقدم والنموّ بهذا المقياس.

وكانت عاقبـة ذلك تقدّماً مذهلاً فى مجال المادّيات ... تقدّماً تجاوز أكثر الأحلام جموحاً فى بداية النّهضة الصّناعية الحديثة. ولكنه تقـدّم ترافق مع تـأخر مأسـاوى فى مجـال المعنويـات بـدأت بعض البصـائر المسـتقبلية فى العالم الغربى و (الشـرقى؟؟) تكتشـفه وتعى خطورته، وتحذر من عواقبه الوخيمة.

وعلى ضوء هذا المفهوم للتّقدّم قُسِّم الجنس البشرى فى الخمسينات من هذا القرن الميلادى إلى عوالم ثلاثة:

العالَم الأوّل: (أمريكا الشّماليّة، وأوربّا الغربيّة، واليابان) بلغ أعلى مستوى عرفه الإنسانُ فى التّقدّم المادى والتّنظيم.

العالَم الثّانى- (الإتّحاد السّوفياتى وأوربّا الشّرقيّة، والصّين «أخيراً») يلى العالم الأوّل فى الرّتبة من هذه الحيثيّة ويجهد لِلّحاق به فى شتّى الميادين.

العالَم الثّالث- (آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينيّة)، ويسمّى هذا القسم من البشريّة (العالم المتخلّف أو العالم النّامى).

وهكـذا يحمل العالَم الثالث وصـمة التخلّف وفقاً لهـذا المفهوم، وفقاً لمقاييس التّقـدّم المبنيـة على هـذا المفهوم- هذه المقاييس الّتى فرضـها فكر الحضارة الحديثة وسـطوتها، اندفعت شـعوب آسـيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينيّة فى تيّار هذه النّظرة إلى معنى التّقدّم البشرى لتحقّق لنفسـها اللّحـاق بالعـالَم الأوّل الّـذى يحول بينها وبين ذلك مسـتغلاً تفوّقه الهائل وضـعفها الكبير فى نهب ثرواتها وبلبلـة حياتها السّياسـية، ولكنّها فى سبيل التخلّص من وصـمة التخلّف العالقة بها وفقاً لهذا المفهوم تمضـى قدماً فى ما تحسب أنّه يضعها على طريق التّقـدّم مضـحّية فى سبيـل ذلك بالكثير من قيمها وأخلاقها متخلّيـة عن اصالتها، طامحـة إلى أنْ يكون إنسانُها نسـخةً دقيقـةً من إنسان العالَم الأوّل.

ولكنّ هـذا المفهوم عن التّقدّم البشـرى ناقص ومبتور لأنّه يمثّل جانباً واحداً من الوضـعيّة الإنسانية، وقد كان من أكبر الأخطاء الفكريّة الّتى وقع فيها إنسان الحضارة الحديثـة نتيجة لخطأ نظرته إلى التاريخ وإلى المسـتقبل، فإنّ الوضـعية الأخلاقيّة للإنسان ذات صـلة وثيقة

وأساسيّة بكونه متقدّماً أو متخلّفاً. وهذه حقيقة وجدت سبيلها أخيراً إلى الإدراك فى داخل الحضارة الحديثة، وهذا، على الرّغم من أنّه لا يزال فى نطاق ضيّقٍ نسبيّاً، باعث على الأمل.

لقد بدأت ترتفع، هنا وهناك، داخل الحضارة الحديثة، أصوات بعض ذوى العقول النيّرة والبصائر النّافذة من النخبة فى العالم الغربى من علماء وشعراء ومفكرين محذرة من الإنسياق وراء هذه النظرة الخاطئة، محذّرة من عواقبها المهلكة، داعية إلىاعتماد نظرة أخرى تقيم التّوازن فى السّعى نحو التّقدّم بين حاجات الإنسان الرّوحية ووضعيّته الأخلاقية من جهة وبين حاجاته وطموحاته المادّية من جهة أخرى، منذرين بأنّ استمرار الحضارة فى مادّيتها الخالصة سيؤدّى إلى خرابها ودمار الإنسانيّة أو جانب كبير منها.

إنّ نظرة هؤلاء المستقبليين من ذوى العقول النّيرة فى العالم الغربى (والشّرقى؟) قريبة من نظرة الإسلام إلى مسألة التقدّم والتخلّف مع تأكيدنا على وجود اختلافات جمّة تعود إلى تفاصيل النّظرة وإلى الوسائل والأساليب.

فالإسلام- ممثلًا بالقرآن الكريم، والسّنّة الشّريفة، والفقه- إذ يدفع بالإنسان نحو المستقبل الأفضل من حاضره وماضيه، يركّز على أنّ هذه الأفضليّة تقوم على مقياس مركّب يعطى لكلّ واحد من المادّة والمعنى دوراً حاسماً وأساساً فى إنجاز التّقدّم المتكامل المعافى، فلا بدّ أنْ تحقق حركة الإنسان فى الزّمان والمكان تقدّماً وتكاملاً على صعيد المادّة وعلى صعيد الوضعيّة الأخلاقيّة والصّفات الإنسانيّة لتكون حركته تقدّميّة.

قالَ اللّهُ تعالى: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدَّار الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ، وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنّ اللّه لاَ يُحِبُّ الْمُفسِدِينَ». [۱].

وقالَ تعالى: «يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينْ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيّبَاتِ مِنَ الرّزْقِ؟ قُلْ: هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يعْلَمُونَ. قُلْ: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَالإِثْمَ، والْبَغْىَ بِغَيْرِ الحقِ، وَأَنْ تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً، وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ». [۲].

أمّا تحقيق التّقدّم المادّى وحده مع إهمال العناية بالوضعيّة الأخلاقيّة والمعنويّة للإنسانيّة أو مع التّضحية بها فإنّه كقصر العناية على الوضعيّة الأخلاقيّة والرّوحية مع إهمال شؤون التّقدّم المادّى- كلاهما لا يمثّلان النّظرة المتوازنة الّتى يجب أن تقوم عليها حركة الإنسان التّاريخيّة وتبنى على هديها مؤسّسات الحضارة. إنّ كلّ واحد من الإتجاهين يمثّل انحرافاً معيّناً لا يخدم الإنسانيّة ولا يبنى الحضارة.

إننا- وفقاً لهذه النّظرة المتوازنة- كما نعتبر النقص فى إنتاج السّلع والخدمات المادّيّة بدرجة تكفى أكبر عدد من الناس وتحقّق لهم الرّفاهيّة واللّذة- كما نعتبر هذا النقص وما يتصل به تخلفاً، كذلك نعتبر من أسوأ مظاهر التّخلّف: تزايد الجرائم فى المجتمع بشتّى أنواعها، وتصدّع الأسرة، وجفاف العلاقات الإنسانية النّظيفة، ونموّ روح الحرب والعدوان داخل المجتمعات وبين الجماعات القوميّة والوطنيّة، وهو أنّ الحياة البشرية عندما تكون خارج الإطار القومى والعنصرى للمعتدى ... وغير ذلك من مظاهر فساد الوضعيّة الأخلاقية للإنسان فرداً وجماعة ومجتمعاً ودولةً.

ووفقاً لهذه النّظرة المتوازنة يكون من الخطأ تقسيم عالم اليوم إلى عالم متقدّم وعالم متخلّف. إنّ عالم اليوم كلّه- وفقاً لهذه النّظرة- متخلّف، فإنّه إذا كان العالم الثالث متخلّفاً على مستوى المادّة وأساليب التّنظيم والإدارة، فإنّ العالم الآخر متخلّف من حيث الوضعيّة الأخلاقية والعلاقات الإنسانية والصّفات الإنسانية فى أفراده وجماعاته ومجتمعاته.

وسنرى، خلال هذا البحث، أنّ منطلق أميرالمؤمنين علىّ بن أبىطالب عليه‌السّلام فى فهمه للتّاريخ وحركة الإنسان فى الحاضر نحو المستقبل هو هذه النّظرة المتوازنة الّتى اشتمل عليها الإسلام، وعبّر عنها القرآن الكريم، والسّنّة الشّريفة، والفقه المستمدّ منهما المبنى عليهما.

الامام فى مواجهة التاريخ

كان أميرُالمؤمنين عليّ عليه‌السّلام، كما يخبرنا هو، وكما سنرى خلال هذه الدراسة يوجّه عناية فائقة إلى التاريخ، عناية جعلت من التاريخ عنصراً بارزاً فيما وصل إلينا من كلامه فى مختلف الموضوعات الّتى كانت تثير اهتمامه.

وعناية الإمام بالتاريخ ليست عناية القاصّ والباحث عن القصص. كما أنّها ليست عناية السياسى الباحث عن الحيل السياسيّة وأساليب التمويه الّتى يعالج بها تذمّر الشعب، وإنّما هى عناية رجل الرسالة والعقيدة، والقائد الحضارى والمفكر المستقبلى.

إنّ القاصّ يبحث ليجد فى تاريخ الماضين وآثارهم مادّة للتّسلية والإثارة. والسياسى يبحث ليجد فى التاريخ أساليب يستعين بها فى عمله السياسى اليومى فى مواجهة المآزق، أو يستعين بها فى وضع الخطط الآنية المحدودة. [۱۹].

والمؤرّخ يقدم لهذا وذاك المادّة التاريخيّة الّتى يجدان فيها حاجتهما.

أمّا الرائد الحضارى، رجل الرسالة والعقيدة ورجل الدولة فهو يبحث ليجد فى‌التاريخ جذور المشكل الإنسانى، ويتقصّى جهود الإنسانيّة الدائبة فى سبيل حلّ هذا المشكل بنحو يعزّز قدرة الإنسان على التكامل الروحى- المادّى، كما يعزّز قدرته على تأمين قدر ما من السعادة مع الحفاظ على الطهارة الإنسانية.

وقد كان الإمامُ عليّ يتعامل مع التاريخ بهذه الروح ومن خلال هذه النظرة، ومن ثم فلم يتوقّف عند جزئيّات الوقائع إلا بمقدار ما تكون شواهداً ورموزاً، وإنّما تناول المسألة التاريخيّة بنظرة كلّيّة شاملة، ومن هنا فقلّما نرى الإمام فى خطبه وكتبه يتحدّث عن وقائع وحوادث جزئيّة، وإنّما يغلب على تناوله للمسألة التاريخيّة طابع الشمول والعموميّة.

والإمام ليس مؤرخاً، ولذا فليس من المتوقع أن نجد عنده نظرة المؤرخ وأسلوب فى سرد الوقائع وتحليلها والحكم عليها، وإنّما هو رجل دولة حاكم، ورجل عقيدة ورسالة فيها كل حياته، فهو يتعامل مع التاريخ باعتباره حركة تكوّن شخصية الإنسان الحاضرة والمستقبلة، ولذا فهى تشغل حيّزاً هاماً وعلى درجة كبيرة من الخطورة فى عملية التربية والتحرك السياسى، وهذا ما يجعل رجل رسالة وحاكماً كالإمام على عليه‌السلام حريصاً على أن يدخل فى وعى أمّته الّتى يحمل مسؤولية قيادتها ومصيرها ... الى التاريخ سليمة تجعله قوة بانية لا مخرّبة ولا محرّفة.

ونحن نعرف عناية الإمام علىّ (ع) الفائقة بالتاريخ واهتمامه البالغ بشأنه من نص ورد فى وصيته الّتى وجهها إلى ابنه الإمام الحسن عليه‌السّلام كتبها إليه بحاضرين [۲۰] عند انصرافه من صفّين، قال فيه:

«أىْ بُنَىَّ إنِّى وَإنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِى، فَقَدْ نَظَرْتُ فِى أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِى أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِى آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّى بِمَا انْتَهَى إلَىَّ مَنْ أُمُورِهِمْ، قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أوَّلَهَمْ إلى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مَنْ ضَرَرِه».

وكان قبل ذلك قد وجّه الإمام الحسن (ع) فى هذه الوصية إلى تعرّف التاريخ الماضى للعبرة والموعظة، قال: «أحْىِ قَلْبَكَ بِالْمَوعظَةِ ...وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْماضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِى دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُوا وَنَزَلُوا. فَإنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ».

وهذا النص يحملنا على الإعتقاد بأنّ الإمام عليه‌السّلام تحدّث كثيراً عن المسألة التاريخية فى توجيهاته السياسيّة وتربيته الفكرية لمجتمعه، ولرجال إدارته، ولخواصّ أصحابه.

ولكنّ النّصوص السياسيّة والفكريّة التى اشتمل عليها نهج‌البلاغة مِمّا يدخل فيه العنصر التاريخى قليلة جدّاً، وإنْ كانت النصوص الوعظيّة الّتى بنيت على الملاحظة التاريخية كثيرة نسبياً.

ولا نستطيع أن نفسّر نقص النصوص السياسيّة والفكريّة- التاريخيّة إلا بضياع هذه النصوص لنسيان الرّواة أو لإهمال الشّريف الرضى لما وصل إليه منها، لأنّه جعل منهجه فى تأليف كتاب نهج‌البلاغة: «اختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب،ثم محاسن الحِكم

والأدب». [۱۹].

وقد أدّى هذا المنهج بطبيعة الحال إلى إهمال الكثير من النّصوص السياسيّة والفكريّة لأنّه لم يكن فى الذّروة من الفصاحة والبلاغة.

ومن المؤكّد أنّ الكثير من كلام أميرالمؤمنين فى هذا الباب وغيره لم يصل إلى الشّريف الرضى كما اعترف هو بذلك فى قوله:

...« ولا ـ أدّعى – مع ذلك – أنّى أحيط بأقطار جميع كلام عليه‌السّلام حتّى لا يشذّ عنّى منه شاذّ، ولا يندّ نادّ، بل لا أبعد أن يكون القاصر عنّى فوق الواقع إلىّ، والحاصل فى ربقتى دون الخارج من يدى». [۲۰].

وعلى أيّة حال فإنّ سُؤالاً هاماً يواجهنا هنا، وهو: مِنْ أين استقى الإمام معرفته التاريخيّة؟ إنّه يقول عن نفسه ...: « نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ »....

فما الوسيلة الّتى توصّل بها إلى معرفة أعمالهم لينظر فيها هو كيف تسنّى له أن اطّلع على أخبارهم ليفكّر فيها؟

نقدّر أنّ الإمام قد اعتمد فى معرفته التاريخية على عدّة مصادر

۱– القرآن الكريم

يأتى القرآن الكريم فى مقدّمة هذه المصادر الّتى استقى منها الإمام معرفته التاريخيّة. وقد اشتمل القرآن على نصوص تاريخيّة كثيرة منبثة فى تضاعيف السّور تضمنت أخبار الأمم القديمة وارتفاع شأنها، وانحطاطها،واندثار كثير منها، وذلك من خلال عرض القرآن الكريم لحركة النّبوات فى تاريخ البشرية، وحكايته لكيفية استجابات الناس فى كلّ أمة وجيل لرسالات اللّه تعالى الّتى بشّر بها الأنبياء سلام اللّه عليه أجمعين..

وقد كان أميرُالمؤمنين علىّ عليه‌السّلام أفضل الناس – بعد رسول‌اللّه (ص) – معرفة بالقرآن من حيث الظاهر والباطن، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والأهداف والمقاصد، والأبعاد الحاضرة والمستقبلة، وغير ذلك من شؤون القرآن.كانت معرفته بالقرآن شاملة مستوعبة لكلّ ما يتعلق بالقرآن من قريب أو بعيد. والتأثير القرآنى شديد الوضوح فى تفكير الإمام التاريخى من حيث المنهج ومن حيث المضمون، كما هو شديد الوضوح فى كلّ جوانب تفكيره الأخرى.

وقد حدّث الإمام عن نفسه فى هذا الشأن كاشفاً عن أنّه كان يلحّ فى مسائله لرسول‌اللّه (ص) فى شأن القرآن من جميع وجوهه. قال: «وَاللّه مَا نَزَلَتْ آيَة إلا وَقَدْ عَلِمْتُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَأَيْنَ أُنْزِلَتْ. أنّ رَبِّى وَهَبَ لِي قَلْبَاً عَقُولاً وَلِسَاناً سَؤُولاً» [۱۹].

وشهاداتُ معاصريه له فى هذا الشأن كثيرة جداً. منها ما رُوِى عن عبداللّه بن مسعود، قال: «إنّ القرآنَ أُنْزِل على سبعةِ أحرُفٍ، مَا منها حرفٌ إلا له ظهر وبطن، وإنّ عليَّ بنَ أبىطالبِ عليه‌السّلام عنده علم الظاهر والباطن». [۲۰].

۲– التعليم الخاص

التعليم الخاص الّذى آثر به رسول‌اللّه (ص) علياً مصدر آخر من مصادر معرفته التاريخيّة وغيرها.

وفقد استفاضت الروايات الّتى نقلها المحدثون، وكتّاب السيرة، والمؤرخون من المسلمين على اختلاف مذاهبهم وأهوائهم– استفاضت هذه الروايات– بل تواترت إجمالاً– بأنّ رسول‌اللّه صلّى اللّه عليه وآله قد خص أميرَالمؤمنين علياً بجانبٍ من العلم لم يرَ غيره من أهل بيته وأصحابه أهلاً له.

فمن ذلك ما قاله عبداللّه بن عباس: «وَاللّهِ لَقدْ أُعطِيَ عَلَيُّ بن أبِىطَالِب (ع) تِسْعَةَ أعْشَارِ العلم، وَايمُ اللّهِ لَقدْ شَارَكَكُمْ فِي العُشرِ العَاشِرِ». [۱۹].

وما رُوِى عن رسول‌اللّه (ص): «عَلِيّ عَيبَةُ عِلْمِى». [۲۰].

وما رواه أنس بن مالك، قَالَ: «قِيلَ يَا رَسُولَ‌اللّه عَمَّنْ نَكْتُبُ الْعِلْمَ؟ قالَ: عَنْ عَلِيّ وَسَلمَانَ». [۱۹].

وقال الإمام عليه‌السّلام: «عَلَّمَنى رَسُولُ‌اللّهِ (ص) ألْفَ بَابِ مِنَ العِلِم كُلُّ بابِ يَفتَحُ ألفَ بابٍ». [۲۰].

وقد صرّح فيما وصل إلينا من نصوصِ كلامه فى نهج‌البلاغة بذلك فى عدّة مناسبات، فقال: ...

۱- بَلِ انْدَمَجْتُ [۱۹] عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوبُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ لأرشِيَةٍ فِي الطَّوِيِّ [۲۰] الْبَعِيدَةِ». [۱۹].

۲- «وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهذَا الْمَقَامِ وَهذَا الْيَوْمِ ». [... ۲۰].

۳ ...- « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ [۱۹] عَنْكُمْ غَيْبُهُ إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلى الصُّعُدَاتِ [۲۰] تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ». [۱۹].

۴- «يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ». [۲۰].

وإذا كانت بعضُ هـذه النصوص ظاهرة فى العلم بالغيبات (علم المستقبل)، فإنَّ غيرها مطلق يشـمل الماضـى، وإذا كان الإمام قد اطّلع من رسول‌اللّه (ص) على بعض المعلومات المتعلقة بالمستقبل فمن المرجّح أنه قد اطلع منه على علم الماضى.

۳- السّنة النّبويّة:

إشتملت السّنّة النبويّة على الكثير المتنوع من المادة التاريخيّة.

منه ما ورد فى تفسير وشرح القرآن الكريم، ومن ما اشـتمل إجمالاً أو تفصـيلاً على حكايـة أحداث تاريخيّة لم ترد فى القرآن إشارة إليها.

وقـد كـان أميرالمؤمنين على (ع) أعلم أهل البيت (ع) والصـحابة قاطبـة بما قاله رسول‌اللّه (ص) أو فعله وأقرّه، فقـد عاش على (ع) فى بيت رسول‌اللّه (ص) منـذ طفولته، وبعث الرسول (ص) وعلى عنـده، وكان أوّل من آمن به، ولم يفارقه منذ بعثته (ص) إلى حين وفاته إلاـ فى تنفيـذ المهمات الّتى كان يكلّفه بها خارج المدينـة وهى لم تسـتغرق الكثير من وقته، ومن هنا، من تفرغه الكامل لتلقى التوجيه النبوى، ووعيه الكامل لِما كان يتلقّاه كان الإمام أعلم الناس بسنّة رسول‌اللّه وكتاب اللّه.

۴- القراءة:

فقـدّر أنّ الإمام عليّاً قـد قَرأ مـدونات تاريخيـة باللّغـة العربيّـة أو بغيرها من اللغات الّتى كانت متداولة فى المنطقة الّتى شـهدت نشاطه، وخاصـة بعد أن انتقل من الحجاز إلى العراق واضـطرّته مشـكلات الحكم والفتن إلى التنقل بين العراق وسوريا، وإن كنا لا نعلم ما إذا كانت هـذه المدوّنات قد دفعت إليه صدفة أو أنّه بحث عن كتب كهذه وقرأها أو قرئت له بلغاتها الأصـلية مع ترجيحنا أنّه عليه‌السّـلام كان يعرف اللّغة الأدبيّة الّتى كانت سائدة فى المنطقة العراقيّة السّوريّة.

۵- الآثار القديمة:

وربما كانت الآثار العمرانيـة للأمم القديمـة من جملـة مصادر المعرفـة التاريخيّـة عند الإمام عليه‌السّـلام، ويعزّز هذا الظن بدرجة كبيرة قوله فى النص الآنف الذكر: «وَسِرْتُ فى آثَارِهِمْ» ممّا يحمل دلالة واضحة على أنّ مراده الآثار العمرانية.

وقد خبر الإمام فى حياته أربعة من أقطار الإسلام، هى: شبه الجزيرة العربية،واليمن، والعراق، وسوريا.

ونقـدّر أنه قـد زار الآثار الباقية من الحضارات القديمة فى هذه البلاد، وإذا كان هذا قد حدث- ونحن نرجّح حدوثه- فمن المؤكّد أنّ الإمام لم يزر هذه الآثار زيارة سائح ينشد التسـلية إلى جانب الثقافة، أو زيارة عالم آثار يتوقف عند الجزئيات، وإنّما زارها زيارة معتبر مفكر يكمل معرفته النظريـة بمصائر الشـعوب والجماعات بمشاهدة بقايا وأطلال مدنها ومؤسّـساتها الّتى حلّ بها الخراب بعد أن انحطّ بناتها وفقدوا قدرتهم على الإستمرار فاندثروا.

هذه هى، فيما نقدّر، المصادر المعلومة والمظنونة والمحتملة الّتى استقى منها الإمام على (ع) معرفته التاريخيّة.

التاريخ عند الإمام فى المجال الوعظى و فى المجال السياسى الفكرى

إستخدم الإمام عنصر التّاريخ فى مجالين، أحدهما مجال السّياسة والفكر، وثانيهما مجال الوعظ.

وهنا يواجهنا سؤال هام: لماذا يدخل الإمام عنصـر التاريخ فى أحاديثه الوعظية، أو فى أحاديثه وخطبه و كتبه السياسيّة والفكريّة، أو فى غير ذلـك من مجالاـت توجيههِ كرجـل رسالـة وعقيـدة وحاكم دولـة؟ لماذا التاريـخ؟ ونقول فى الجواب على هـذه المسألـة الّتى تثير

الشك حول جدوى التاريخ باعتباره مادة أساسية فى البنية الثقافية للإنسان والمجتمع أو باعتباره عاملاً مساعداً فى الأعمال الفكريّة الّتى تتناسب مع مادّة التاريخ ... نقول فى الجواب: إنّ الحياة الإنسانية لدى جميع الناس فى جميع الأزمان والأوطان واحدة فى أصولها العميقة، ومكوّناتها الأساسية، وحوافزها، فهى نهر متدفق من التجارب والآمال والإنجازات وخيبات الأمل، وهذا ما يجعل الأسئلة الّتى تثيرها مشكلات الحاضر حافزاً نحو استرجاع الماضى باعتباره عملاً مكمّلاً وضرورياً فى البحث الصحيح الموضوعى عن أجوبة أكثر سداداً وحكمة تؤدّى إلى حلول صائبة أو مقاربة للصواب للمشكلات الّتى تواجه الإنسان فى حاضره، أجوبة معجونة بالتّجارب الإنسانيّة السّابقة.

وقد يثير هذا التحليل حفيظة فريق من أهل الفكر المشتغلين بالسياسة، أو فريق من أهل السياسة يدعون لأنفسهم صلة بالفكر يرون- أولئك وهؤلاء- أنّ النزعة التاريخيّة، أو العقلية التاريخية (السلفية) تعيق نموّنا فى الحاضر وتقدّمنا فى المستقبل، لأنّها تشدّنا دائماً إلى الماضى، إلى قيمه وتصوّراته. إنّ التاريخ عند هؤلاء مرض يشوّه الحاضر ويقضى على المستقبل.

ولكن هذا الرأى بعيد عن الصّواب.

بطبيعة الحال نحن- فى فهمنا لدور التاريخ كعامل مكوّن فى البنية الثقافية للإنسان والمجتمع ومساعد فى عمليات الفكر- لا ندّعى أنَ من الحكمة أنْ يجعل الإنسان نفسه سجين التاريخ، لسنا فى فهمنا لدور التاريخ مع غلاة النزعة التاريخية الّذين يرون أنّ التاريخ هو الحقيقة كلّها، لا مرحلة من مراحل نمو الحقيقة التجريبية فقط. فهذا الموقف الفكرى يتّسم بالغلو والشطط.

ولكن ليس من الحكمة أيضاً أنْ يواجه الإنسان حاضره ويتجه نحو مستقبله وهو بلا جذور، إنّه حين لا يستشعر تاريخه الخاص بأمته أو تاريخ الإنسانيّة يفقد القدرة على الرؤية الصحيحة، ويفقد القدرة على تقويم المواقف الّتى تواجهه فى خاطره تقويماً سليماً سواء فى ذلك ما يتعلق منها بالحاضر نفسه أو ما يتعلق منها بالمستقبل، إنّه فى هذه الحالة يتحرّك فى الفراغ.

لهذا وذاك نرى أنَّ الإستخدام المتّزن للتاريخ، الإستخدام المتّسم بالحكمة والإعتدال يجعلنا أقدر على التحرّك فى حاضرنا وأكثر شعوراً بخطورة قراراتنا فيما يتعلق بشؤون المستقبل، لأن التاريخ فى هذه الحالة يعمّق حِسَّنا الأخلاقى حين اتخاذنا قرارات مستقبلية تمسّ نتائجها حياة أجيال، نصنع بهذه القرارات- المستقبليّة بالنسبة إلينا- حاضرها هى الّذى هو مستقبلنا المظنون الّذى قد لا نشاركها فيه لاننا نكون حينئذٍ قد غادرنا الحياة، ومن ثمّ فلا نواجه نتائج قراراتنا الماضية.

بدون استرجاع الماضى وما يمنحنا ذلك من عمق فى الرّؤية، وغنى فى التجربة الإنسانيّة ووعى لاستمرار الحضارة الإنسانيّة فينا وفيمن يأتى بعدنا من الأجيال- بدون ذلك لن يكون فى وسعنا تفادى أخطاء وقعت فى الماضى كما لن يكون من حقنا التمتع بنتائج تجارب ناجحة أنجزت فيه، كما أننا فى هذه الحالة قد نتّخذ بالنسبة الى المستقبل الّذى لا نملكه وحدنا قرارات متهوّرة شديدة الخطورة بالنسبة إلينا وإلى وضعية ومصير الأجيال الآتية.

إنّ الغلوّ فى استرجاع التّاريخ، فكراً وعملاً قد يجعل من التّاريخ مقبرة للحاضر والمستقبل، ويجعل الإنسان غريباً فى العالم الّذى يعاصره ويحيط به ويتدفّق بالحياة نحو المستقبل من حوله.

كما إنّ الغلوّ فى رفض التاريخ، والإنقطاع عنه والإنصراف عن تجاربه ومآثره قد يجعل الإنسان «ريشة فى مهبّ الريح» عاجزاً عن التماسك فى الحاضر، ويفقده القدرة على ممارسة دوره الأصيل فى بناء الحضارة ويجعل منه مجرّد ممثّل لأدوار يضعها الآخرون يعكس هو بتمثيله إراداتهم وأفكارهم وموجاتهم.

إذنْ لابدّ للإنسان من أن يتعامل مع التاريخ باعتدال يجعله دليلاً فى حركته وتربة ينمو فيها الحاضر الأصيل والمستقبل الأكثر يمناً وأصالة.

واستجابة لهذه الضّرورة تعامل أميرُ المؤمنين علىُّ بن أبى‌طالب (ع) مع التّاريخ فى مجال الوعظ وفى مجال السّياسة والفكر.

وأكبر همنا فى هذه الدراسة هو التّعرف على النظرة التاريخية للإمام فى مجالى السّياسة والفكر، مكتفين بالنسبة إلى المجال الوعظى

ذى المحتوى التاريخى بتقديم نموذج واحد من النصوص الوعظية فى كتاب نهج‌البلاغة، وتحليله مع تسليط الأضواء على الجانب التاريخى فيه.

التاريخ فى مجال الوعظ

حلّلنا فى فصل (الوعظ) من كتابنا «دراسات فى نهج‌البلاغة»، [۴۱] مواعظ أميرالمؤمنين على (ع) فى نهج‌البلاغة على ضوء الظروف السياسية والإجتماعية والنفسية الّتى كانت تسيطر وتوجه مجتمع العراق بوجه خاص فى أيام خلافة الإمام عليه‌السّلام.

وكشفنا النّقاب هناك عن أنّ الإمام لم يكن فى مواعظه داعياً إلى مذهب زهدى يقف موقفاً سلبياً من الحياة الدنيا والعمل لها والإستمتاع بها، وإنّما كان، فى مواعظه وتوجيهه الفكرى بوجه عام، يدعو إلى مواجهة الحياة بواقعية وصدق، محذّراً من اللّهاث المجنون وراء الآمال الخادعة والأحلام الكاذبة الّتى ليس لها فى واقع الحياة سند ولا أساس.

وكشفنا النّقاب أيضاً عن أن النّظرة الشّائعة إلى مواعظ الإمام فى نهج‌البلاغة قد تأثرت بالتّيار الزهدى السّلبى الّذى طبع المجتمع الإسلامى بطابعه فى عصور الإنحطاط، وهو دخيل على الفكر الإسلامى وعلى أخلاقيات الإسلام وتشريعه، ولذا فإنّ هذه النظرة خاطئة لا تمثل مقاصد الإمام وأهدافه من المواعظ الّتى كان يوجّهها إلى مجتمعه.

والمواعظ الّتى استخدم الإمام فيها عنصر التّاريخ كغيرها من مواعظه فى أنه لا يدعو فيها إلى مذهب زهدى سلبى من الحياة الدنيا، وإنّما يعالج بها حالة خاصة فى مجتمعه الّذى بدا غافلاً عن مصيره التعس، مهملاً لواجباته فى جهاد النفس وجهاد العدو، متلهفاً على المتع والثراء اللّذين لا يستحقهما الا مجتمع مستقر أحكم وضعه الأمنى والسّياسى والإجتماعى، وقطع دابر الطامعين فيه المتآمرين عليه، وهذا ما لم يكنه مجتمع العراق فى عهد الإمام عليه‌السلام، بل كان مجتمعاً قلقاً يعانى من اضطراب أمنه الخارجى وتدهور أمنه الداخلى، كما يعانى من التمزّق السياسى، وكان- نتيجة لذلك- يؤجّج مطامع الحكم الأموى فى الشام ويدفع به نحو التآمر عليه.

ونقدّم فيما يلى نموذجاً من النّصوص الوعظية الّتى يكون التاريخ عنصراً بارزاً وأساسيّاً فيها.

قال عليه‌السّلام: «أمّا بَعْدُ، فإنّى أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا، فَإنَّهَا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهوات، وَتحبَّبت بالعاجلةِ، وراقت بِالقليل، وتحلَّت بِالآمالِ، وتزيَّنت بِالغُرُور، لا تدُومُ حبرتُها، [۴۲] ولا تُؤمَنُ فجعتُها، غرَّارة ضرَّارة، حائلة [۴۳] زائلة نافدة بائدة، [۴۴] أكَّالة غوَّالة، [۴۵] لا- تعدُو- إذا تناهت إلى أُمنيَّةِ أهلِ الرَّغبةِ فِيها والرِّضاءِ بها أن تكُون كما قالَ الله تعالى سُبحانهُ «كماءٍ أَنزلناهُ مِن السماءِ، فاختلط به نباتُ الأرضِ، فأَصبح هشِيماً [۴۶] تذرُوهُ الرِّياح وكان الله على كُلِّ شىء مُقتدراً»، [۴۷] لم يكُن امرُؤ مِنها فِى حَبرةٍ إلا أعقبتهُ بعدها عبرةً، ولم يلقَ فِى سرَّائها بطناً إلا منحتهُ مِن ضرَّائَها ظهراً، [۴۸] ولم تطُلَّهُ فيها دِيمة [۴۹] رخاءٍ إلا هتنت [۵۰] عليهِ مُزنةُ بلاءٍ. وحرِىّ إذا أَصبحت لهُ مُنتصرةً أن تُمسِىَ لهُ مُتنكِرةً، وإن جانِب مِنها اعذوذبَ واحلولى أَمرَّ مِنها جانِب فأَوبى [۵۱] لا ينالُ امرُؤ مَن غضاريها رغباً [۵۲] إلا أرهقتهُ مِن نوائِبها تعباً، ولا يُمسِى مِنها فى جناحِ أمنٍ إلا أصبحَ على قوادِمِ خوفٍ. [۵۳] غرَّارةٌ ما فِيها، فانية، فانٍ مَن عليها، لا خيرَ فِى شىءٍ مَن أزوادِها إلا التقوى.

«مَن أقلَّ مِنها استكثرَ مِمَّا يُؤمِنُهُ، ومَن استكثرَ مِنها استكثرَ مِمّا يُوبِقُهُ، [۵۴] وزال عمَّا قلِيلٍ عنهُ».

«كم مِن واثقٍ بِها قد فجعتهُ، وذى طُمَأنِينَةٍ إليها قد صرعتهُ، وذى أُبهةٍ قد جعلتهُ حقِيراً، [۵۵] وذى نخوةٍ قد ردَّتهُ ذلِيلاً». [۵۶].

«سُلطانُها دُوَّل [۵۷] وعيشُها ريق، [۵۸] وعذبُها أُجاج، [۵۹] وحُلوها صَبِر، [۴۰] وغِذاؤُها سِمام [۴۱] وأسبابُها رِمام». [۴۲].

«حيُّها بِعرضِ موتٍ، وصحِيحُها بِعرضِ سُقم، وموفُورُها منكُوب [۴۳] وجارُها محرُوب». [۴۴].

«ألستُم فِى مساكِنِ من كان قبلكُم أطولَ أعماراً وأبقى آثاراً، وأبعدَ آمالاً، وأعدَّ عدِيداً. وأكثف جُنُداً؟ تعبَّدُوا لِلدُّنيا أىَّ تعبُّدٍ، وآثرُوها أىَّ إيثارٍ، ثُمَّ ظعنُوا عنها بِغيرِ زادٍ مُبلغٍ، ولا ظهرٍ قاطِعٍ». [۴۵].

«فهل بلغكُم أنَّ الدُّنيا سخت لهُم نفساً بِفِديةٍ [۴۶] أو أعانتهُم بِمَعُونةٍ، أو أحسنت إليهِم صُحبَةً..؟ بل أرهقتهُم بالقوادِحِ [۴۷] وأوهقتهُم

بِالقوارِعِ [۴۸] وضعضعتهُم بِالنَّوائب، [۴۹] وعفَّرتهُم لِلمناخِرِ، [۵۰] ووطِئتهُم بِالمناسِمِ، [۵۱] وأعانت عليهِم ريبَ المنُون».

«فقد رأيتُم تنكُّرها لِمن دان لها [۵۲] وآثرها وأخلدَ إليها [۵۳] حِين ظعنُوا عنها لِفِراقِ الأبدِ ... أفهذِهِ تُؤثِرون؟ أم إليها تطمئِنُّونَ؟ أم عليها تحرِصُون؟ فبِئستِ الدَّارُ لِمن لميتَّهِمها، ولم يكُن على وجلٍ مِنها».

«فاعلمُوا- وأنتُم تعلمُون- بِأنكُم تارِكُوها وظاعِنُون عنها، واتَّعظوا فِيها بِالَّذِين قالُوا (من أشدُّ مِنّا قُوَّةً.. [۵۴] حُمِلُوا إلى قُبُورِهِم فلا يُدعون رُكباناً. [۵۵] وأُنزِلُوا الأجداث فلا يُدعَونَ ضِيفاناً، [۵۶] وجُعِل لهُم مِنَ الصَّفِيحِ [۵۷] أجنانُ [۵۸] ومِن التُّرابِ أكفان... استبدَلُوا بِظهرِ الأرضِ بطناً، وبِالسَّعةِ ضِيقاً، وبِالأهلِ غُربةً، وبِالنُّورِ ظُلمَةً ». [... ۵۹].

ركّز الإمام عليه‌السّلام فی هذه الخطبة الوعظية- كما هو شأنه فی معظم مواعظه-على عاملين ثابتين فی طبيعة الحياة على هذه الأرض:

۱- عامل التغيّر والتقلّب فی الحياة:

الحياة بما هی حركة، وبما هی تفاعل، وبما هی طاقات وقوى تتفاعل فتتكامل أو تتقاتل فی داخل كل شیء ومن حول كل شیء فی الكون المادی كلّه- الحياة بما هی كل هذا متقلّبة متغيّرة متحوّلة باستمرار- هی فی حالة صيرورة دائمة لا تستقر على حال ولا تثبت على وتيرة واحدة.

۲- عامل الزّمن

أثر الزمن فی الأشياء والأعمار ظاهر لكلّ ذی بصيرة، فالزّمن يفتت الحياة باستمرار، فما أن يبدأ وجود الحياة فی شیء، بل ما أن يبدأ وجود شیء، حيّاً كان أو غير حیّ حتى يبدأ هذا الوجود بالذّوبان والتّفتّت والضّياع. إنّ الحياة تولد فی الزّمن. ولكنّ الزّمن يغتالها باستمرار.

وهذان العاملان- التّغيّر والزمن- لا يختصان بعالم الإنسان وحده، إنّهما يعملان فی كلّ شیء ويحُولانِ دون ثبات كل شیء: الجماد، والنّبات، والحيوان، والإنسان. ويتميّز الإنسان- بالنسبة إليهما- عن العوالم الأخرى بأنّه- لما أوتی من عقل وإدراك- يستطيع أن يعی الوجه المأساوی لعمل هذين العاملين، وأثرهما فی حياته وفی الوجود من حوله.

ووعیُ الإنسان لهذين العاملين وأثرهما فی الحياة والأشياء يجعله قادِراً على مواجهة الحياة ومباهجها الموقتة، ووعودها السّخيّة، وآمالها اللامعة. بعقل صافٍ خالٍ من الأوهام، ويعزّز فيه النّزعة الواقعية فی أخذ الحياة والتعامل مع الدّنيا- هذه النّزعة الّتی من شأنها أن تجعل الآمال أقل بريقاً وجذباً واستهواءً، والإنتصارات أقل مدعاة للغرور والصلف، والمآسی أقل إيلاماً. ويعزّز مناعة الإنسان أمام تكالب صروف الدهر، وخيبات الأمل وضياع الجهود، ونوازل المرض والموت ... فلا ينهار بسبب ذلك ولا ييأس ولا يستسلم، ولا يستكين ولا يهرب من العمل، وإنّما ينبعث للعمل والكفاح فی سبيل نفسه وأهله ومجتمعه وعالمه من جديد لأنّه لم يفاجأ بالخيبة والإخفاق، بل كان مهیء النفس لتقبّلهما ومن ثم فقد كان مهیء النفس لتجاوزهما، واستئناف‌العمل مرة أخرى بأملٍ واقعی جديد.

بالإجمال: إنّ وعیَ الإنسان لهذين العاملين، وإدراكهُ لأثرهما العميق والمصيری فی حياته وفی الوجود من حوله يجعله قادِراً على مواجهة الحياة بكلّ وجوهها وما فيها من حسن وقبح، وألم ولذّة، وواقع وخيال، ونجاح وإخفاق ... يواجهها بروح واقعية.

وحين يدخل الإمام عليه‌السّلام فی وعظه عنصر التاريخ فيتحدّث عن الماضين وما حلّ بهم من كوارث وآلام وما انتهت إليه حياتهم على عظمة توهجها من انطفاء فإنه يقدّم لتحليله النظری الّذی تناول واقع حياة معاصريه الّذين يخاطبهم- يقدّم نماذج تطبيقيّة من حياة أقوام آخرين.. إنّه يقدّم لمعاصريه تجربة الآخرين الّتی يعرفونها، ويبعثون حياتهم فی ساحاتها، ويرون آثارها الباقية من الماضی فی هذه الساحات.

فهذه المدن والمساكن، وهذه الضياع والمزارع، وهذه القلاع والحصون عمرها فی عصور سابقة أناس تقلبت بهم صروف الحياة وأفراحها وأحزانها، والآمال الّتی سعدوا بإنجازها وخيبات الأمل، ثم ماتوا وانقطعوا عن كل ما كان يملأ عليهم حياتهم من أحلام وأمانی. ومطامح ومطامع، وحب وبغضاء، وصداقات وعداوات ... وكان هؤلاء أطول أعماراً، وأكثرَ قوةً.. «وأعد عديداً»، وقد وجّهوا

كل ما أوتوا من قدرة وذكاء ومعرفة لدنياهم، فأعدوا لها واستعدوا، ولم يشغلهم عنها تفكير بالآخرة أو عمل لها، ولكن كلّ ذلك لم ينفعهم ولم يعد عليهم بطائل، لأنَّ عامل التغيّر والتقلّب من جهة وعامل الزمن من جهة أخرى، عملا دائماً- كما لا يزالان يعملان، وكما سيعملان فى المستقبل- على تفتيت حياة أولئك الناس، وكانت حياتهم- كما هى الحياة الآن، وكما ستبقى الحياة- تحمل فى جوهرها وفى أعماقها أثناء ولادتها ونموها وازدهارها بذور تقلصها وذبولها وأنطفائها فى آخر المطاف.

هذا نموذج من وعظ الإمام علىّ الّذى يدخل فيه عنصر التاريخ باعتباره يُضىء الحاضر لأنه يضيف إليه تجربة الماضى ويجعله- بذلك أكثر غنى، ويجعل الإنسان أكثر قدرة على مواجهته بروح واقعية وبعقل خالٍ مِنَ الأوهام، فلا يهن ولا يستسلم تحت وطأة الكارثة، ولا يطغى ولا يطوّح به الغرور وهو فى ذرى النجاح.

التاريخ فى مجال السياسة والفكر

تمهيد

إستخدام الإمام التّاريخ فى مجال الفكر كما استخدمه فى مجال السّياسة.

كان رجل رسالة هى الإسلام، رسالة استوعبت الحياة كلّها: تنظيماً وتشريعاً ومناهجَ. وهى رسالة ذات طابع عالمى، ممتدة فى الزّمان إلى آخر الزمان، أراد اللّه تعالى لها أن تكون ديناً للإنسان كلّ إنسان، تقوده نحو التكامل الّذى يحقّق له التّوازن والتّسامى.

وهى رسالة تقوم على العلم والمعرفة، وترفض الجهل لأنه يتيح لأعدائها أن يتسلّلوا فى ظلماته إلى قلوب أتباعها المؤمنين بها وعقولهم فيشوهون ويحرفون عقائدها وشرائعها ومناهجها، ويضلّلون بعد ذلك أتباعها المؤمنين بها وذلك حين يلبسون لهم الحق بالباطل والصواب بالخطأ.

ومن هنا كان من أكبر هموم رجل الرسالة الإستعداد الدائم فى هذا المجال، لأجل أن يجعل المسلمين على معرفة كاملة بالإسلام، وفى حالة وعى متجدّد ونام لحقيقة الإسلام وجوهره ومناهجه وغاياته ليكون المسلم المستنير بالمعرفة فى حصانة من الحيرة والتضليل، على بيّنة من أمره، وليكون الإسلام بمنجاة من التشويه والتحريف، ويكون كل مسلم مستنير ديدباناً على دينه الّذى هو معنى وجوده وشرف وجوده.

ومن هنا كان علىّ عليه‌السلام فى حركة تعليمية دائمة لمجتمعه وخواصّ أصحابه‌الذين كانوا علماء ينشرون علمهم ووعيهم بين الناس بالحديث والخطابة وحلقات الدرس والتعليم.

وكان الإمام عليه‌السلام يختار ولاته وعمّاله على البلدان من ذوى المعرفة ومن أهل البصائر. [۶۰] الّذين يتمتعون بالمعرفة والوعى والصلابة فى العقيدة ليكونوا- الى جانب عملهم الإدارى- معلّمين ورجال رسالة، وكان يوجههم نحو هذه المهمة التعليمية والتوجيهية. من ذلك ما كتب به إلى قثم بن العباس عامله على مكة: «أمَّا بَعدُ، فَأقِم لِلنّاس الحَجَّ، وَذَكِّرهُم بِأيامِ اللهِ، [۶۱] وَاجلِس لَهُم العَصرَينِ، [۶۲] فَأَفتِ المُستَفتَى، وَعَلِم الجاهِلَ، وَذاكِرِ العالِمِ». [۶۳].

وفى عمله الفكرى على صعيد التعليم والتوعية استعان الإمام عليه‌السلام بعنصر التاريخ ليعطى للفكر حرارة وحياة وحركة، وعمقاً فى الزمان وفى الإنسان، وليجعل، بهذا، من القضية الفكرية بضعة من الحياة المعاشة تحمل فى ثناياها رائحة المعاناة الإنسانية.

وكان الإمام رجل سياسة.

كان سياسيّاً على مستوى رجل الدولة ورجل العقيدة والرسالة طيلة حياته. ملأ العمل السياسى حياته فى عهد النبى (ص) بتكليف منه، وفى عهود الخلفاء الذين تقدّموه لحاجتهم إليه أو لحاجة الناس إليه. وكان- بالإضافة إلى ذلك- حاكماً ورئيس دولة فى السّنين الأخيرة من حياته.

وكان الإمام بهذين الإعتبارين فى حاجة دائمة إلى أن يُعطى لأمته ولأعوانه التوجيهات السّياسيّة اللّازمة. وكان فى بعض هذه

التّوجيهات يستعين بعنصر التاريخ لُيضيء الفكرة السّياسّية الّتى يقدّمها، وليُعطى توجيهه السياسى صدقاً واقعياً إضافة الى الصدق النظرى ... صدقاً واقعياً يوفّر للتوجيه السياسى حرارة ووهجاً. إنه بهذا العمل «يؤنس» التوجيه السياسى، ويجعله بحيث يخالط القلب كما يوجّه العقل.

التاريخ فى مجال الفكر

اشاره

تمهيد

التّفكر هو التّأمّل، والفِكر- بالكسر- اسم منه، وهو يستعمل- حسب ما ذكره علماء اللّغة- للدّلالة على معنيين: أحدهما: القوّة الموّدعة فى الدّماغ، الّذى هو مركز، التفكير وإن كان علينا أن نعترف بأنّ لوضعية أعضاء أخرى فى الجسم من حيث الصحة والمرض دخلاً فى عملية التفكير. والفكر- بهذا المعنى- اسم لآلة التفكير.

ثانيهما: أثر التّفكّر، وهو ترتيب أمور فى الذهن تتولّد منها معرفة جديدة، أو تؤّدى إلى تعميق وتوسيع معرفة قديمة. والفكر- بهذا المعنى- اسم لفعل التّفكير أو لعملية التّفكير.

هذا هو المعنى اللّغوى لكلمة تفكّر وفكر مع شرح وتوضيح.

وثمّة معنى ثالث لهذه الكلمة غلب استعمال اللّفظ فيه فى العصور الأخيرة، ولعلّه دخل العربية من الإستعمالات الأوربّيّة، وهو نفس الأفكار والمعلومات الّتى يجعلها الفكر- بالمعنى الأوّل- موضوعاً لعمله- الفكر بالمعنى اللّغوى الثانى-، فيقال: مثلاً، الفكر الإسلامى، والفكر المسيحى، والفكر الماركسى، والفكر الدّينى، فالفكر المادى ... يراد من ذلك الأفكار والمناهج والمعلومات الّتى يتشكل منها ويتقوّم بها مذهب أو فلسفة أو دين.والمقصود ببحثنا هنا هو هذا المعنى لكلمة فكر.

والفكر فى الثّقافة الّمتى تقوّم شخصية كلّ أمة على قسمين: فكر حىّ، وفكر ميّت، والأوّل هو ما يطلق عليه لفظ (فكر) فى عصرنا الحاضر، والثانى هو ما يطلق عليه فى عصرنا الحاضر مصطلح (تراث).

والتّراث فى أصل اللّغة: الميراث. وقد وردت كلمة (تراث) فى القرآن الكريم مرّة واحدة فى قوله تعالى فى خطاب المشركين...: « وَتأكُلُونَ التُّراثَ أكلاً لمّاً ». [... ۶۴].

وقد استعملت كلمة «ميراث» فى اللّغة العربية فى المادّيات والمعنويّات. أمّا استعمالها فى المادّيات فأمثلته كثيرة ظاهرة. وأمّا استعمالها فى المعنويّات فقد ورد فى القرآن الكريم فى عدة مواضع، هى الآيات التالية ...: « إنّ العُلماءَ ورَثةُ الأنبياءِ. إنّ الأنبياء لم يُورِّثوا دِيناراً ولا دِرهماً، ولكِن وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخذَ مِنهُ أخذَ بِحظٍّ وافرٍ». [۶۵].

وقد وردت مادة (و. ر. ث) فى نهج‌البلاغة فى مواضع كثيرة بصيغة الفعل الماضى والفعل المضارع، وبصيغة الإسم (ميراث، تراث) وغيرهما، واستعملت فى المادّيّات والمعنويّات، فمن استعمالها فى المعنويّات قوله: «لا مِيراثَ كالأَدبِ..» [۶۶].

لِعِلمُ وِراثَة كرِيمة ». [... ۶۷].

واستعملها فى المعنويّات فى السلطة السياسيّة فى قوله: «إن بنِى أُمَيَّةَ لَيُفوِّقُوننى تُراث مُحمّدٍ صلّى اللّه عليه وآله تفوِيقاً » [... ۶۸] وقوله: «فصبرتُ وفِى العينِ قذىً ... أرى تُراثِى نهباً ». [... ۶۹].

وعلى ضوء هذه الإستعمالات يمكن أن يقال أنّ التراث أو الميراث- بمعناه العام،لا بمعناه الإصطلاحى الفقهى- هو كلّ ما يخلفه سابق فى الحياة لِلاحق له فى الزّمان، مهما بعد الزّمان بالمورّث، سواء فى ذلك المادّيّات والمعنويات.

وإذن، فما يقع عليه اسم التراث أو الميراث شىء لم يكن فى حوزة الوراث وإنّما انتقل إليه من غيره. وهو قد يكون فى حاجة اليه وقد

لا يكون فى حاجة إليه. ومع كونه فى حاجة إليه فقد يعى حاجته إليه ويستعمله وينتفع به، وقد يعى حاجته إليه ولكنّه ينصرف عنه لسبب أو لآخر، وقد لا يعى حاجته إليه فيهمله ولا يعنى به إلا باعتباره أثراً من الآثار الّتى تتّصل بأحبّته وأهله الماضين ربّما تكون له قيمة عاطفية ولكن ليس له قيمة عملية فى حياة الوارث.

وهذا يعنى أنَّ التراث أو الميراث ليس- بالضرورة- جزءاً مقوّماً للحياة الحاضرة تفسد بدونه لأنّه يشغل فيها حيزاً مهماً وأساساً، ويسدّ فيها حاجات ملحّة لا غنى عنها، وإنّماقد يكون الأمر فيه هكذا، وقد يكون- فى نظر الوارث- شيئاً يحسن أن يقتنى ويستعمل ولكن فقده لا يغير شيئاً من وضع الحياة الحاضرة ولا يدخل نقصاً هاماً فيها. وقد يكون فى نظر الوارث ذا قيمة عاطفيّةٍ محضة لا يؤثّر فقده أبداً. وقد يكون فى نظر الوارث عباً على الحياة ومعوقاً لنموها ومانعاً من ازدهارها، ولذا فهو يسعى إلى نبذه والتخلص منه والبراءة من آثاره.

هذا تحليل لمفهوم التراث أو الميراث فى اللّغة العربية- بمعناه العام لا بمعناه الإصطلاحى الفقهى الخاص.

وقد استعملت كلمة التراث فى اللّغة العربية فى العصور الأخيرة على ألسِنة الباحثين والأدباء والمفكرين للدّلالة على آثار الفكر الإسلامى فى السّنّة وعلومها، والفقه وأصول الفقه، والتاريخ، والأدب، والفلسفة: وما إلى ذلك من الآثار الفكرية الّتى خلّفها المسلمون باللّغة العربية.

ذاك هو الفكر، وهذا هو التراث.

والفكر، فى المفهوم الحضارى- إذن هو المعلومات والشرائع والمناهج والقيم الّتى تقوّم شخصيّة الأمة الثقافية والحضارية، وتُعطيها سمتها المميّزة لها عن الأمم الأخرى، ويرسم لها دورها فى حركة التاريخ.

إنّ هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم تشكّل عقل الأمّة وروحها وضميرها.وهى تنظر إلى الكون والحياة والإنسان والأمم الأخرى من خلال هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم، وتواجه مشاكلها ومسائل حياتها على ضوء الحلول والمواقف الّتى يحميها هذا الفكر. وإنتاجها العقلى النظرى كلّه يكون مطبوعاً بطابع هذا الفكر، محتوياً روحه، ومستهدياً بالنور الّذى يشعّه ... مثلاً: الماركسيّة هى فكر العالم الشيوعى. فهى تشكّل عقل شعوبه وروحها وضميرها، وهى تميّز هذه الشعوب عن العالم الرّأسمالى بالسّمات الّتى تطبع بها طريقة الحياة لدى هذه الشّعوب. كما إنّ النتاج الثقافى النظرى لهذه الشّعوب مرسومبالطّابع الخاص للماركسية، بل لقد طمح المنظرون السوفيات إلى طبع النظريات العلميّة الّتى تفسّر بها المادّة بالطابع الخاصّ للماركسيّة: هذا فى العصر الحديث.

وقد كانت المسيحيّة فى القرون الوسطى وما قبلها بالنّسبة إلى أوربا على هذه الشاكلة.. كما كانت الكونغو شيوعية بالنّسبة إلى الصين.. والهندوسية بالنّسبة إلى الهند، والزّردشتية بالنّسبة إلى إيران، والإسلام بالنسبة إلى العالم الإسلامى منذ ظهور الإسلام وإلى يومنا هذا..

ولكلّ فكر بؤرة يرتدّ اليها كل شىء باعتبارها مقياساً للصدى والأصالة والإستقامة، وينطلق منها كلُّ شىء باعتبارها الذّخر الأكبر للأصول الأساس فى التكوين الثقافى للأمة.

مثلاً: كتاب رأس المال للماركسيّة والشيوعيّة، والإنجيل والتوراة للمسيحيّة، والبهاجافاد- جيتا للهندوسية، والقرآن للإسلام. والآوستا للزردشية.. وهكذا يكون لكل فكر مركز أساس يتضمّن الخطوط الكبرى والمبادئ المركزية لذلك الفكر.

هذا هو الفكر فى المفهوم الحضارى.

أمّا التّراث فى المفهوم الحضارى فهو مجرد ثقافة ومعرفة نظرية لا تبلغ فى أكثر الأحيان ومعظم الحالات أن تبلغ مستوى كونها فكراً بالمعنى الّذى شرحناه آنفاً، ولنقل: التّراث فكر ميّت.إنّ التراث لا يدخل فى صلب ثقافة الأمّة الّتى تغذى عقلها العملى وفعاليّتها وحركيّتها فى مجرى التاريخ، ولا يقوّم وجودها، ولا ينير طريق حياتها، ولا يميّزها عن غيرها من الأمم، وبالإجمال: كلّ ما هو دور إيجابى للفكر فى الأمة منفى عن التّراث. إنّ التّراث شىء من بقايا الآباء والأجداد، كان صالحاً لحياتهم فهو يمثّل هذه الحياة الماضية وأساليبها وألوانها، ولكنّه لا يصلح للحياة الحاضرة، أو لا يصلح أكثره للحياة الحاضرة،وإذا احتفظنا به ودرسناه وأقمنا له المؤسسات

فليس لأجل أن نُقيم عليه حياتنا ونقوّم به شخصيتنا كأمّة، وإنما ذلك لما تربطنا به من صلات عاطفية، أو لأنه يمثّل حلقة هامّة في تاريخ نموّنا، إنّ له قيمة عاطفية وقيمة أكاديميّة (نظرّية)، وليست له قيمة عملية، أو إنّ أكثره كذلك. ونحن ندرسه، ونحققه وننشره، ونحفظه لنعرف كيف كنا لا لنعرف كيف نكون؟ ولنرى صورتنا القديمة لا لنرسم صورتنا الحاضرة أو لنرى كيف تكون صورتنا المستقبلة. إن التراث، في أحسن الحالات، شيء من أشياء القلب والعاطفة، وليس من أشياء العقل والعمل.

هذا هو التراث في المفهوم الحضاري.

وهنا أودّ أن أُثير مسألة شديدة الخطورة وذات أهمّيّة بالغة جدّاً بالنّسبة إلينا نحن المسلمين في هذا العصر، وهي أنّ الكثرة الساحقة من المسلمين المتعلمين والمثقّفين على مناهج الغرب وأساليبه ينظرون إلى الإسلام- بما هو ثقافة ونظام وحضارة- ويتعاملون معه على أنه تراث، أي فكر ميت، لا على أنّه فكر.

أمّا الكثرة الساحقة من المسلمين فهُم بحمدِ اللّه ونعمته لا يزالون يتعاملون مع الإسلام على أنّه فكرهم (لا تراثهم) وهم يحرصون ما وسعهم الحرص على أن يقيموا حياتهم على هدى أحكامه وقيمه، وإن كان علينا أن نعترف أنّ الحياة الحديثة كثيراً ما تضطرّ الكثير منهم إلى تجاوز أحكام الإسلام، أو تغريهم بتجاوزها، لأنها حياة قائمة على غير الإسلام، وتستمدّ مفاهيمها الفكرية، وقيمها الأخلاقية، ومقاييسها الجمالية، وأفكارها العمليّة من غير الإسلام. ولكن هذه الكثرة الساحقة من المسلمين لا تزال تعتبر الإسلام- كما قلنا- (فكرها) وإن تجاوزته اضطراراً أو تهاوناً في الكثير أو القليل من شؤون حياتها.

إنه عقيدتها، وشريعتها، وقيمها.

ونعود، بعد هذا الإستطراد، إلى شرح موقف المسلمين الّذين يتعاملون مع الإسلام على أنّه تراث لا فكر.

هم يرون أنّ الإسلام- لا بما هو عقيدة- وإنّما بما هو شريعة وقيم، فكر عصر مضى، وأنّه بالنسبة إلى عصرنا هذا- حيث تشكّل حياتنا الحضارة الحديثة، ومناهجها في التشريع، وقيمها- مجرّد تراث، يمثّل مرحلة سابقة في نموّنا تجاوزها تطوّر التاريخ، فليس لنا والحال هذه أن نعتبره (فكرنا) أنّه (تراثنا)مبعث فخر لنا، موضوع حبنا وتقديرنا، ولكنّه لا يصلح لأن يشكّل حياتنا، ويكون موضوع عملنا الّذي نبني عليه مناهجنا ونستمدّ منه قيمنا.

والمفكرون العرب المحدثون المعنيون بقضايا النهضة العربية كثيراً ما يستعملون في التعبير عن الإسلام أو عن هذا الجانب أو ذاك من جوانب الفكر الإسلامي كلمة (تراث) [۷۰] ذاهبين إلى أنّ هذا (التراث الإسلامي) ليس شأن عصرنا وليس شأن الإنسان العربي في هذا العصر، وإنّما هو شأن السلف وقد ورثناه عنهم، ومن المؤكّد أنّه ليس من الصالح ولا من الراجح أن نأخذه كلّه لنتمثّله في حياتنا مناهج وتشريعات وقيماً لأنّه معطّل معوّق لنموّ هذه الحياة المعاصرة وازدهارها، ولكن هل ننبذه كلّه فلا نعنى بشيء منه، ونحفظه كأثر من آثار تاريخنا، أو نخضعه لمقياس انتقائي نأخذ بموجبه من هذا (التراث) ما يتفق مع حياتنا الحاضرة «والفكر المعاصر» وننبذ من هذا (التراث) ما لا يتوافق مع هذا (الفكر المعاصر) أو يخالفه.

ولكنّ هؤلاء المفكرين على خطأ فادح في هذه المسألة الهامة، بل المصيريّة لا بالنسبة إلى العرب وحدهم، بل بالنسبة إلى المسلمين جميعاً.

إنّ الإسلام لا يزال حتى الآن «فكر» المسلمين، والعرب منهم، وسيبقى فكر المسلمين جميعاً. ولم يبلغ الإسلام في قلوب وعقول المسلمين درجة من الضّمور والتقلص أو الإندثار والنّسيان بحيث يكون «تراثاً» يحتاج إلى «إحياء» كالّذي حدث في أوروبا في عصر النّهضة بالنّسبة إلى التراث اليوناني- الروماني.

إنّ الإسلام لا يزال «حياً» مملوءاً بالحياة في قلوب وعقول المسلمين، ولا يزال قادراً على «تحريك» مئات الملايين من المسلمين في جميع أنحاء العالم نحو أهدافه العظيمةالنبيلة، وإذن فهو لا يزال «فكر» هذه المئات من الملايين من البشر، وإنّما لا «يحركها» أو «لا تتحرك» وفقاً لمناهجه بسبب وجود الموانع الخارجية القاهرة والمعوّقات الشالّة لحركة المسلمين من خلال إسلامهم، وهي قوى

الحضارة المادّية الّتی استعمرت بلاد المسلمين وأقصت الإسلام عن مركز القيادة وحلّت محله فی هذا المركز.

وإذن، فالإسلام ليس «تراثاً» ميتاً نختلف على «إحيائه» «وعدم» «إحيائه» أو «إحياء» بعضه ممّا يتلاءم مع عصرنا كما يقولون ... إنّه «فكر حیّ» وما يدعوننا إليه هو «إماتة هذا الفكر الحیّ» لإحلال فكر آخر غريب محله هو فكر الحضارة المادّية.

وقـد أفلحت قوی الحضارة المادّيّـة لا فی «إماتة الإسـلام» فهو لا يزال حيّاً كما قلنا، ولكن فی فرض نفسـها على حياة المسـلمين الّذين يحملون فی قلوبهم وعقولهم إسلاماً حيّاً قادراً على التحريك ولكنه «ممنوع عن التحريك» وليس «عاجزاً» عنه.

واسـتمرار مفكرينا المتأثرين بهـذه الحضارة المادّيّـة فی جهودهم لفرضـها على واقع حياة المسـلمين وعزل الإسـلام عن هذه الحياة لن يـؤدّی إلی (إماتـة الإسـلام) كمـا لن يـؤدّی إلی «تحرير» المسـلم أو «العربی»، وإنّمـا يـؤدّی إلی مزيـدٍ من التمزق الـدّاخلی والأزمـات الحضاريـة لإنسان ينقسم على نفسه، موزع الذّات بين ضـرورات حياته اليومية وبين قناعاته العقلية والنفسـية والأخلاقية والعاطفية. وهذا مـا يؤدّی- كما أدّی بالفعل فی العالم الإسـلامی كلّه ومنه العالم العربی- إلی فقـدان الفعاليـة والإيجابيـة فی مواجهـة تحـدّيات الحياة، ويؤدی من ثمّ إلی مزيـد من التّخلف والعجز عن مجاراة حركـة التقـدم لـدی الأمم الأخری وهكـذا يسـیء هؤلاء المفكرون من حيث يحسـبون أنّهـم يحسـنون صـنعاً، فبـدلاً من إتاحـة الفرصـة أمـام الإنسـان العربی للتغلّب على مصـاعبه وعوامـل تخلّصه يضـيف هؤلاء المفكرون سـبباً آخر للتخلف يزيـد الأمر سوءاً لأنّه يقـدم تحت شـعار التقـدم، وهكـذا يكون حال الإنسان العربی فی هذه الحالة حالة القطّ الّذی يلحس المبرد الذی يغری لسانه وينزف دمه وهو يحسب أنّه يغذی نفسه بالمبرد الّذی يغريه فی حقيقة الحال.

رأينا أن نقـدّم للبحث عن التّاريـخ فی مجال الفكر عند الإمام علی (ع) بهذا التمهيد لشـعورنا العميق بخطورة هذه المسألة، وموقفنا من الفكر الإسلامی، وضرورة تصحيح النظرة السائدة إلی هذا الفكر الذی ملاک وجودنا كلّه.

النبوات

أ-بداية العصر التّاريخی للإنسان

يبـدو لنا من كلمات أميرالمؤمنين علی (ع) أنّ العهـد التاريخی للإنسانيـة بدأ بظاهرة وجود النبوّات فی المجتمع البشـری. هذه النبوّات الّتی تقود مجتمعاتها نحو حياة أفضل، ووجود إنسانی أكمل.

مـا قبل التاريـخ، إذن، بالنسـبة إلی الإنسانيّـة، هو ما قبل النبوّات، حيث كانت الإنسانيـة تعيش فی حالـة البراءة الفطريـة، وكانت النفس الإنسانيّـة لا تزال عذراء ساذجة، بدائية، خالية من أیّ تعليم ... ولذا فلم تكن لدی الإنسانية فی فترة ما قبل التاريخ هذه تجارب ومعاناة يعود عرضـها بالفائـدة التعليميّـة والتربويّـة لمجتمع متحضـر، تامّ التكوين، على درجـة عالية من التعقيد، يفترض فيه أنّه يبنی على هدی خاتمة الرّسالات، وخلاصة النبوّات، وهو مجتمع الأمة الإسلامية.

ولـذا لا نجـد فی جميع الكلام الصادر عن أميرالمؤمنين حديثاً عمّا قبل عهد النبوّات، ومن هنا اسـتنتاجنا أنّه يعتبر إشـراق النبوّة وظهور الأنبياء فی المجتمعات البشريّة بداية العصر التاريخی للبشرية.

وقـد بيّن اللّه تعالی فی القرآن الكريم تاريـخ بدايـة عهـد النّبوّات فی المجتمع البشـری فقال سـبحانه وتعالی: «كَانَ النّاسُ أمّـةً واحِدةً، فبَعثَ اللهُ النّبيّين مُبشّـرين ومُنـذِرين، وأنزَلَ معهُمُ الكِتابَ بِالحقِّ لِيحكُم بينَ النّاسِ فِيما اختلفُوا فِيهِ، وما اختلفَ فِيهِ إلا الـذِين أُوتُوهُ مِن بعدِ مـا جـاءتهُمُ البَيّناتُ بغياً بينهُم، فهـدَی اللهُ الّـذِينَ آمنوا لِما اختلفُوا فِيهِ مِن الحقِّ بِإذنِهِ، واللّهُ يهـدِی مَن يشاءُ إلی صِـراطٍ مُسـتقِيمٍ». [۷۱].

«كانَ النّاسُ أمـةً واحِـدةً ...» كان إنسان ما قبل التّاريخ، ما قبل النّبوّات يحيا فی وحدة فطرية قائمة على أساس وحدة المصالح ووحدة الـدّم من جهـة، وعلى عامل سـلبی من جهـة أخری هو عـدم وجود ما يهـدد حالة السـكون والخمود الّتی تميّز هذه الحياة نظراً لبساطة الحاجات وتوفّر ما يلبيها ويشبعها فی الطبيعة دون حاجة إلی مغالبة وصراع.

ولکن حرکة الحیاة النامیة المتصاعدة، وتزاید عدد أفراد النوع، وتفاوت القدرات العقلیة والجسمیة ... کل ذلک وما یشبهه من عوامل الإنقسام والتعقید أدّی إلی نشوء خلافات داخل الجماعة البشریة النامیة، ومغالبة وصراع بین أفرادها وفئاتها ... وربّما کان من مظاهر ذلک أو أوّل مظهر من مظاهر ذلک خلفّیات الجریمة الأولی بین ابنَی آدم حیث قتل أحدهما أخاه، وقد قصّ اللّه تعالی نبأهما فی القرآن الکریم، [۷۲] وتردّدنا فی أنّ هذه الجریمة هی من مظاهر ذلک أو أنّها أوّل مظهر من مظاهر ذلک ناشئ من وجود احتمال أنّ «آدم» القرآنی لا یمثّل بدایة الجنس البشری علی الأرض، وإنّما یمثّل بدایة النسل البشری الموجود الآن، ویکون، علی هذا، قد وجد نسل سابق علی النسل الموجود الآن من بدایة یمثّلها آدم سابق علی آدم القرآنی، واللّه تعالی أعلم وعلی هذا تکون آیة سورة البقرة (۲۱۳) موضوع البحث تؤرخ لفترة من عمر البشریّة سابقة علی الفترة التی بدأت بآدم القرآنی.

وعلی أیّ حال، ففی هذه المرحلة من نموّ الإنسان لم تعد وحدة الدم کافیة لتکوین وحدة المجتمع، ولم تعد ثمّة مصالح واحدة أو متّفقة، ولم تعد النفس الإنسانیّة عذراء، ساذجة، بدائیة ... ویستحیل علی النوع الإنسانی فی أن ینمو-کما أراد اللّه فی أوضاع کهذه تقوده فیها غرائزه فقط، ولا مرجح له فی خصوماته ومراعاته إلا غرائزه ... فی هذهالمرحلة من نمو الإنسان قضت حکمة اللّه ورحمته بإرسال الأنبیاء حاملین إلی الإنسانیة منهاج هدایتها الّذی یخرجها من عهد الغریزة إلی عهد العقل ومن منطق الصراع الّذی مرجعه الغریزة والقوة إلی منطق النظام ومرجعیة القانون.

وقد حقّق الإنسان، بإشراق عهد النبوّات، قفزة نوعیة عظیمة وحاسمة فی تطوّره نحو الأعلی وتکامله، فقد خرج المجتمع البشری بالنبوّات عن کونه تکویناً حیوانیاً- بیولوجیاً إلی کونه ظاهرة عقلیة- روحیة.. لقد عقلنت النبوّات المجتمع الإنسانی وروحنته.

وحقّقت النّبوّات للإنسان مشروع وحدة أرقی من وحدته الدّمویة البیولوجیة الّتی کانت سائدة قبل عهد الخلافات والإنقسامات والصراع ... وهی الوحدة القائمة علی أساس المعتقد، وبذلک تطوّرت العلاقات الإنسانیة مرتفعة من علاقات المادّة إلی علاقات المعانی ... بعهد النبوّات بدأ عهد الإنسان...

وتمضی الآیة الکریمة، بعد التأریخ لهذه المرحلة، فی بیان أنّ الإختلافات الّتی نشأت فی النوع الإنسانی، بعد إشراق عهد النّبوّات، غدت اختلافات فی المعنی اختلافات فی الدّین والمعتقد، إذ أنّ أسباب الصّراع والبغی من بعض الناس علی بعض، واستغلال الأقویاء للضعفاء لم تلغ بالدین الّذی جاءت به النبوات، بل استمرّت وتنوّعت، ولکن المرجع لم یعد الغریزة وإنما غدا القانون هو المرجع، وإذا کان من المستحیل علی الإنسانیة أن تجد قاعدة لوحدتها وتعاونها عن طریق الغرائز، وعلاقات المادة، فإنّ من الممکن لها أن تجد قاعدة ثابتة لوحدتها وتعاونها وتکاملها عن طریق القانون الذی یتضمّنه الدّین وغیر القانون من تربیة الدّین وإغنائه لروحیة الإنسان وأخلاقیّته، وذلک حین یستبدل الإنسان علاقات المادة بعلاقات المعنی. وعدم بلوغ الإنسانیة إلی هذا المرتقی لیس ناشئاً، فی عهد النّبوّات، من فقدان الوسائل، وإنما هو ناشئ من سوء الاختیار البشری، ومن سوء استخدام الحریة المعطاة.

لقد أفضنا فی الحدیث عن بعض جوانب الآیة الکریمة لنضیء بها الفکرة التی عبّر عنها الإمام علیهالسّلام فی شأن النبوات وبدایة العصر التاریخی للإنسان إذ قال: «.. واصطَفی سُبحانَهُ ... أنبیاءَ أخذَ علَی الوحیِ مِیثاقَهُم، وعلی تبلیغِ الرسالةِ أمانتَهُم، لمّا بدَّل أکثر خلقِهِ عهد اللهِ إلیهم، فجهِلُوا حقَّه، واتخذُوا الأندادَ معهُ، واجتالتهُمُ [۷۳] الشیاطِینُ عن معرِفته، واقتطعتهُم عن عِبادتِهِ، فبعثَ فِیهِمُ رُسُلَه، وواترَ [۷۴] إلیهم أنبیاءه ...، ولم یُخلِ اللهُ سُبحانهُ خلقهُ مَن نبیٍّ مُرسَلٍ أو کِتابٍ مُنزَلٍ، أو حُجَّةٍ لازِمةٍ أو محجَّةٍ [۷۵] قائمةٍ: رُسُل لا تُقَصِّر بِهم قِلّةُ عددِهِم، ولا کثرةُ المُکذِّبین لهُم مِن سابقٍ سُمِّی لهُ مَن بعدهُ، أو غابرٍ عرَّفهُ مَن قبلهُ، علی ذلِک نسلتِ القُرونُ، ومضتِ الدّهُورُ، وسلفتِ الآباء، وخلفتِ الأبناءُ». [۷۶].

وهکذا یعبّر الإمام عن جوانب من أفق الآیة الکریمة، فحین تعقّدت الحیاة البشریة نتیجة لنمو المجتمع وتشابک العلاقات فیه، وحین أدّی ذلک إلی تصادم بین ما تقضی به الحیاة الإجتماعیة من تعاون وما تدفع إلیه الغریزة والروح الفردیة من استئثار. وحین ترافق هذا مع الإنحراف عن مقتضیات الفطرة المستقیمة العذراء- وإن تکن فی ذلک الحین ساذجة- فی إدراک الخالق سبحانه وتعالی ... حین

حدث فی حياة الإنسانية كل هذا اقتضی لطف اللّه ورحمته إرسال الأنبياء ليضيئوا عقول الناس، ويرتفعوا بالمجتمع من علاقات المادة- البيولوجيا- إلی علاقات المعنی والقانون.

وقد تواترت حركة النّبوّات فی تاريخ البشرية: تضیء عقولها، وتصوغ مفاهيمها، تغنی حياتها، وتضعها رويداً رويداً علی طريق التكامل ...تواترت هـذه الحركـة فی خطّ تصاعـدی نحو الأكمـل والأفضـل والأجمـل، مستجيبة فی كل مرحلـة من مراحل التاريـخ البشـری لحاجـات تلـك المرحلـة، بـاذرة فيهـا بـذور نموّ آخر فی المسـتقبل يهیئ لمرحلـة من التقـدم والتكامل جديـدة.. إلی أن بلغت حركة النبوات ذروتها فی الرسالة الخاتمة الجامعة: رسالة الإسلام علی لسان خاتم النبيّين محمّد صلّی اللّه عليه وآله وسلّم.

قال عليه‌السـلام ...: « إلی أن بعث اللّه سُبحانهُ مُحمّـداً رسُولَ‌اللّه صـلَّی اللّه عليهِ وآلهِ وسـلَّمَ لإنجازِ عِـدتِهِ، وإتمام نُبوَّتهِ، مأخُوذاً علی النّبيِّين مِثاقُهُ، مشهورةً سِماتُهُ، [۷۷] كريماً مِيلادُهُ». [۷۸].

وقـال فی خطبـة أخری: «.. بـل تعاهـدهُم- النّاسَ- بِالحُجـجِ علی ألسُنِ الخِيرّة مِن أنبيائهِ ومُتحمِّلِی ودائِع رِسالاتِهِ قَرناً فقرناً، حتَّی تمّت بِنَبِيِّنا مُحمَّدٍ صلَّی اللّه عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ حُجَّتُهُ، وبلغَ المقطعَ [۷۹] عُذرُهُ ونُذُرُهُ..». [۸۰].

وظيفة النّبوّة:

ما وظيفة النبوّة فی المجتمع البشری؟

إنّها فيما نفهم من كلمات أميرالمؤمنين تتلخص فی هدفين كبيرين:

الأول: وهو أهمهما، إحياء الفطرة الإنسانيـة الصافية المسـتقيمة، هذه الفطرة الّتی يهتدی بها الإنسان إلی الإيمان الصـحيح باللّه سـبحانه وتعالی، ويدرك بها كونه مخلوقاً للّه، ومن ثمّ يدرك موقعه فی الكون. ويترتب علی هذا الإيمان الواعی تصحيح المسار الإنسانی فی طريق التكامل بجعل حركة الإنسان التاريخية وثيقة الصّلة بعقيدة التوحيد ومتفرعاتها.

الثانی: وهو، من بعض الوجوه نتيجة للأوّل، تكوين الحوافز الروحية والنّفسية

والإجتماعية لإنجاز عملية التقدّم العقلی والمادّی والإجتماعی فی الحياة فی صـيغة تضـمن التوازن بين النموّ الرّوحی- الأخلاقی والنموّ المادّی. وهذه الصّيغة الّتی توازن بين اتجاهی النموّ والنّشاط الإنسانی هی الدّين.

وهذه هی وظيفة النبوّة كما تفهم من القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة.

فـالنّبیّ يخرج النـاس من الظلمات إلی النّور فی عقائـدهم وعلاقاتهم الإجتماعيـة والسياسـية، ويصـحّح نظرتهم إلی موقعهم فی الكون، ومن ثمّ يوجد الإنسان الصّالح الّذی يسعی نحو التكامل فيحقّق لنفسه التقدّم المتوازن فی الشكل والمضمون، فی الرّوح والمادّة.

وليس النّبیّ مخترعاً كبيراً ومخططاً عظيماً يبدع الآلات والمؤسسات، وليست النبوّة مركزاً للأبحاث والدّراسات وما إلی ذلك.

إنّ الّذی يخترع الآلات ويُنشئ المؤسسات ويبتكر الخطط هو عقل الإنسان بعـد أن تتوفّر له دواعی النموّ والإنطلاق. فاذا تآخت معها قيم الروح والأخلاق حقق الإنسان إنجازات مادّيّة وتنظيمية تتّفق مع مُقتضـيات الإيمان، وتوفّر للإنسان حياة سـعيدة طيّبة، ورضوان اللّه والنجـاة فی الآخـرة. وإذا لم تتآخ قيم الروح والأخلاق مع دواعی النموّ والإنطلاق فی التعامل مع الكون المادّی حقّق الإنسان إنجازات مادّيّة وتنظيمية توفّرُ له القوة واللّذّة والرّخاء دون أن توفّر له السّعادة وطيب بالحياة.

وفهمنا لوظيفة النبوّة- كما تعكسـها نصوص نهج‌البلاغة- مسـتفاد من النصوص الّتی تحدّث فيها الإمام عن حالة العالم عشية بعثة النبی محمّـد (ص)، ذلك لأنّ النصوص الّتی تؤرخ للنّبوات السابقة لنبوّة محمد (ص) نادرة من جهة، وتشـبه، من جهة أخری، أن تكون فی معظمها مجرد إشارات يغلب عليها طابع الإجمال.

ولكن هذا لا يؤثر شـيئاً علی سلامة فهمنا لوظيفة النّبوّة، فإنها وظيفة واحدة منذ بداية حركة النبوّات فی فجر التاريخ الإنسانی إلی ختام النبوّات بنبوة محمّد (ص) ورسالة الإسـلام. ولا توجد اختلافات جوهرية بين النبوّات من حيث وظيفتهاالأساسـيّة، والإختلاف الأساسی الوحيد فيما بينها هو فی درجة الشّـمول والإتساع من حيث مساحة شمول التشريع للنشاط البشری من جهة، ومن حيث عُموم الرسالات

بالنسبة إلى الشّعوب من جهة أخرى.

قال عليه‌السّلام ...: « فَبعثَ فِيهم رُسُلَهُ، وواترَ إليهم أنبياءهُ لِيستأدُوهُم مِيثاق فِطرته، ويُذكِّروهُم منسِيَّ نِعمتِهِ، ويحتجُّوا عليهِم بِالتّبليغ، ويُثيروا لهُم دفائنَ العُقولِ، ويُرُوهُم آياتِ المقدِرةِ: مِن سقفٍ فوقهُم مرفُوعٍ، ومِهادٍ تحتهُم موضُوعٍ، ومعايِش تُحييهِم، وآجالٍ تُفنِيهِم وأوصابٍ [۸۱] تُهرِمُهم، وأحداثٍ تتابعُ عليهِم..». [۸۲].

إحتوى هذا النّص الّذى يؤرخ للنّبوّات السّابقة على القضايا التّالية فى معرض بيان الغاية من إرسال الأنبياء

۱- ميثاق الفطرة:

وهذه القضية تعنى مسألة الإيمان باللّه تعالى، وما يتفرع عن هذا الإيمان من قضايا أساسية تنبع منه وتتصل بكافة شؤون الحياة.

وما عبّر عنه الإمام هنا وفى مواضع أخرى من خطب وتوجيهات هو تعبير عن حقيقة كبرى من الحقائق القرآنية، ورد النّبى عليها أو الإشارة إليها فى عدّة آيات منها قوله تعالى: «وإذ أخذَ رَبُّكَ مِن بنِى آدمَ مِن ظُهُورِهِم ذُرّيَّتهُم وأشهدَهُم على أَنفُسِهِم: أَلستُ بِربّكُم؟ قالُوا: بلى شهِدنا، أن تقُولُوا يوم القِيامةِ إِنَّا كُنّا عن هذا غافِلِينَ. أو تقُولُوا إِنَّمَا أشرك آباؤُنا مِن قبلُ، وكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بعدِهِم، أفتُهلِكُنا بِما فعلَ المُبطِلُونَ». [۸۳].

وقد تكرّر ذكر هذه القضية الإيمانية الكبرى فى جميع النصوص التى أرّخ فيها الإمام للنبوّات.

۲- إثارة دفائن العقول

وهذه القضية تعنى بعث القوى العقلية والنّفسية فى الإنسان لإنجاز عملية التقدم الصحيح والتغيير الإيجابى فى المجتمع عن طريق الحركة التاريخية المستبطنة للوعى الإيمانى المستقيم.

۳- جعل الطّبيعة موضوعاً للبحث والنظرة:

هذه القضية دلّ عليها قوله ...: « وَيُرُوهُم آياتِ المَقدِرَةِ »....

وهذه القضية تخدم القضيتين الأوليين، فإنّ مراقبة الطبيعة لفهمها، والتعامل معها واكتشافها تعزّز قضية الإيمان لأنها تقدِّم مزيداً من الأدلّة التجريبية على ما أدركته الفطرة السليمة من قضايا الألوهة. كذلك يعين التعامل مع الطبيعة بصورة مباشرة على إنجاز عملية التقدم، بل شرط أساسى لإنجاز التقدم المادّى، وإذ تتخذ قضية الإيمان فى ذات الإنسان مع حركته التاريخيّة فى الطّبيعة والمجتمع فيكون تقدم على هدى الإيمان وأخلاقيات الروح والعقل، ويكون إيمان يستجيب للحياة الدنيا ولا يقف منها موقف الرفض والعداء.

فى نص آخر أرّخ الإمام للعالَم حين بعثة النبى محمد (ص) فقال ...: « إلى أن بَعثَ اللّه سُبحانَهُ مُحمّداً (ص ...) وَأَهلُ الأرضِ يومئذٍ مِلَلٌ مُتفرِّقة، وأهواء مُنتَشِرة،وطرائقُ مُتشتِّتَة، بينَ مُشَبِّهٍ للّه بِخلقِهِ أو مُلحِدٍ فِى اسمِهِ، أو مُشِيرٍ إلى غيرِهِ، فهداهُم بِهِ مِن الضّلالَةِ، وأَنقذَهُم بِمَكانِهِ مِنَ الجهالَةِ ». [... ۸۴].

وقال فى نصّ ثانٍ: «بَعثهُ والنّاسُ ضُلال فِى حَيرةٍ، وحاطِبُونَ [۸۵] فِى فِتنةٍ، قدِ استهوتهُمُ الأهواء، واستزلتهُمُ الكِبرِياءُ، [۸۶] واستخفَّتهُمُ [۸۷] الجاهِليّةُ الجهلاء. حيارى فِى زلزالٍ مِن الأمرِ وبلاءٍ مِن الجهلِ، فبالَغ (ص) فِى النّصِيحَةِ، ومضى على الطّرِيقةِ، ودعا إلى الحِكمَةِ والموعِظةِ الحسنَةِ». [۸۸].

وقال فى نصّ ثالث: «وأَشهدُ أنّ محمّداً عبدُهُ ورسُولُهُ، أرسلهُ بِالدِّينِ المشهُورِ ... والنّاسُ فِى فِتنٍ انجذمَ [۸۹] فِيها حبلُ الدِّينِ، وتزعزعت سَوارِى [۹۰] اليقِنِ، واختلف النّجرُ [۹۱] وتشتَّت الأمرُ، وضاقَ المخرجُ وعمِيَ المصدَرُ، فالهُدى خامِل والعمى شامِل، عُصِى الرّحمانُ ونُصِرَ الشّيطانُ، وخُذِلَ الإيمَانُ، فانهارت دعائمُهُ، وتنَكّرت معالِمُهُ، ودرست سُبُلُهُ، وعفت شُرُكُهُ [۹۲] أطاعُوا الشّيطانَ فسلكُوا مسالِكَهُ، ووردُوا مناهِلهُ، [۹۳] بِهِم سارت أعلامُهُ، وقام لِواؤُهُ، فِى فِتنٍ داستهُم بِأخفافِها، ووطِئتهُم بِأَظلافِها وقامت على سَنابِكِها [۹۴] فهُم فِيها تائهُون ... حائرُون ... جاهِلُون ... مفتُونُون ». [... ۹۵].

أشار الإمام فى هذه النّصوص إلى وجوه الفساد الّتى كان يعانى منها العالم عشية بعثة رسول‌اللّه (ص)، وهى وجوه الفساد الكبرى فى

كلّ عصر وفى كلّ أمّة، فإصلاحها هو وظيفة النّبوّة فى حركتها الصاعدة منذ بدأت فى مستهلّ التاريخ البشرى إلى أن ختمت بمحمّد (ص).

الأوّل: الضّلال فى العقيدة، فَالنّاسُ ضُلال فِي حَيْرَةٍ ... وَحاطِبُون فِي فتنَةٍ، وَهُم حائرونَ لأنّه حيث لا يستقر الإنسان على عقيدة أو يؤدى به الفساد العام إلى عقيدة باطلة، فإنّه يشعر بالضياع ويشعر بانعدام الهدف ... إنعدام المعنى من وجوده، يشعر بالعبث حين يواجه نفسه بسؤال: مَن أنا؟ لماذا أنا هنا؟ ما المعنى لوجودى ...؟ وهكذا يمضى هذا الإنسان الضائع فى التماس الجواب حيث لا جواب، لأنّه «.. بين مشبّه للّه بخلقه، أو ملحد فى اسمه، أو مشير إلى غيره».

الثّانى: الفساد السياسى والإجتماعى، فالناس قد أوقعتهم كبرياؤهم الّتى لا مبرّر لها فى الزّلل والسّقوط الحضارى، فحملت أقوياءهم على احتقار ضعفائهم وفقرائهم ... وخاصّتهم إلى الإستهانة بعامّتهم، فهانت كرامة الإنسان من حيث هو إنسان، وغدا مقياس الكرامة خاضعاً لعوامل غير إنسانية: للثّروة، أو للقوة،أو للنسب، وما إليها. لقد غدا الناس- نتيجة لذلك مَللاً متفرقةً متناحرةً، لكلّ ملّة مذهب وطريق، ولكلّ فئة هوى واتجاه، ولكلّ فريق منهج وغاية، والكل مفتون برأيه، مأخوذ بهواه، يعمل على شاكلته.

والنّبوّة تعالج وجوه الفساد كلّها فى الإنسان والمجتمع، فى الرّوح وفى المادة،والمؤسسات لتحقق الغاية العظيمة النبيلة، وهى تكوين الإنسان المتكامل.

وقد أعلن الأنبياء صلوات اللّه عليهم أجمعين هدفهم هذا على مدى التاريخ، كلّ واحد منهم فى المحيط الذى بعث إليه فى الزّمان الّذى كان فيه.. إلى أن ختمت النبوّة بمحمد (ص) فكان هذا الهدف العظيم بحجم امتداد الرسالة الخاتمة فى الزمان والمكان على مستوى البشريّة كلّها وعلى مدى المستقبل كله ... إلى نهاية الزمان: «فبالغ (ص) فى النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة ... « ...» فهداهم به من الضّلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة».

وقد أثمر جهد الأنبياء العظيم النبيل وجهادهم ومن اتبعهم وجرى على سنتهم-أثمر تحقيق هذا الهدف العظيم الذى هو وضع الإنسانية على طريق التكامل.

وربّما كان هذا القول مثيراً للدّهشة والتّعجب، والتّساؤل: كيف حقّق الأنبياء الكرام هدفهم هذا ولم يؤمن بهم إلا القليل، وأعرض عنهم أكثر الناس، بل حاربوهم ورفضوهم..؟ إنّ هدف النبوّة قد تحقق فى كلّ عصر، وعلى عهد كلّ نبىّ فى صورتين: إحداهما: فيمن آمن بالنّبىّ وصدّق به واتبع منهاجه، فالتزم فى حياته العامة والخاصة بالعقيدة والشريعة اللّتين اشتملت عليهما رسالته.

والصّورة الأخرى: تتمثّل فى الجو الثّقافى والرّوحى العام الّذى اشاعته الرّسالة النّبوية فى المجتمع نتيجة لتبليغ النبى وأتباعه، وللصراع الفكرى والإجتماعى الّذى ولّدته الرّسالة فى المجتمع، فإنّ هذا المناخ الثقافى يترك آثاره بلا شكّ على المفاهيم والمؤسسات والقيم والقناعات الّتى تسود المجتمع، ويدفع بها نحو التغيير بصورة لا شعورية، فينتقل المجتمع إلى حالة أفضل فى علاقاته وقيمه ومؤسساته وحوافز العمل فيه، وإن كان أكثر هذا المجتمع كافراً برسالة النّبىّ.

ومن هنا كان الأنبياء صلوات اللّه عليهم أجمعين هم آباء الحضارة الإنسانيّة والمدنية الإنسانيّة. وما من خير بلغته وتمتعت به البشريّة فى عقولها وأذواقها وقيمها ومؤسساتها وحوافز العمل من أجل التقدم المادى عندها إلا-وللأنبياء فيه فضل كبير، لأنّهم- على مدى التاريخ- أشاعوا، بما بثّوه من الوحى الإلهى فى الناس، وحدة جديدة فى كلّ مجتمع تنبثّ كالنّور ... كالعافية فيه فتضىء، بدرجات متفاوتة، مناطق الظلمة، وتلمس- بدرجات متفاوتة- مناطق البؤس والمرض فيه. وكان تأثير هذه الروح النبويّة متفاوتاً بنسبة مقاومة قوى الشر حين تعى درجة تأثير الخير النبوى، وبقاء هذا الخير حراً فى التأثير حين تغفل قوى الشرعية أو ترى لنفسها مصلحة فيه.

وهكذا، فمن هذا المنظور نفهم أنّ كلّ نبى قد هدى اللّه به الناس من الضّلالة،وأنقذهم بمكانه من الجهالة. فهم صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين آباء الإنسانية الكرام، وآباء الحضارة العظام.

وهذا نصّ آخر يضىء به الإمام جانباً آخر من جوانب وظيفة النبوّة فى نطاق الهدفين العظيمين، قال عليه‌السّلام: «قَد صُرِفَت نحوهُ أفئدةُ

الأبرارِ، وثُنِيت إليهِ أزمَّةُ الأبصارِ. دفنَ اللهُ بِهِ الضّغائنَ [۹۶] وأَطفأ بِهِ الثَّوائرَ. [۹۷] ألَّفَ بِهِ إخواناً، وفرَّقَ بِهِ أقراناً. أعزَّ بِهِ الذِّلّةَ، وأذَلَّ بِهِ العِزَّةَ». [۹۸].

فی هـذا النّصّ کشف الإمام عن عمل النبوّة فی تغییر القیم السائـدة فی المجتمع،هذه القیم الّتی تحکم وتوجه العلاقات داخل المجتمع بین فئاته وأفراده، وإبدالها بقیم أخری متّسـقة فی طبیعتها مع طبیعة الرّسالة النبویة لأنها مستمدة منها. وما یترتب علی ذلک من تغیّر فی المفاهیم والقناعات، ومن تبدل فی نوع العلاقات نتیجة لتبدل القیم الجاهلیّة بالقیم النبویّة.

لقـد ثنیت أزمّـة الأبصار نحو الرّسول الأکرم (ص) کما کانت تثنی نحو کل نبیّ فی مجتمعه، لأنه قـد أثار اهتمام الناس کلّهم، وأوجد هزّة راحت تنـداح علی المجتمع کلّه وتنفـذ فی أعماقه. وهـذه الفکرة تضـیء التحلیل الّـذی بیّنا فیه آنفاً أنّ أثر النبوّة الخیّرة لا یقتصـر علی المؤمنین بالنبی ورسالته وحدهم، وإنّما یتعداهم لیشمل ببرکاته المجتمع کله.

لقـد أدّت القیم الجدیـدة الّتی جاء بها النّبیّ إلی تغییر المفاهیم، ومن ثمّ إلی تغییر عمیق وجـذری فی العلاقات الإجتماعیّـة بین الأفراد والفئات، وإلی إحداث التّبدّلات الإجتماعیة.

لقد دفنت به الضغائن، لأن أسباب تولّدها قد زالت، ومن ثمّ فقد زالت أسباب تفجّرها فزالت الثوائر.

لقد نعم المجتمع کلّه بدرجة عالیة من الإسـتقرار والطمأنینة بعد أن انخفضت إلی أدنی الدرجات مظاهر العنف والتوتر فیه نتیجة لتبدّل المفاهیم والقیم الّتی کانت سائدة فیه بمفاهیم وقیم أخری بثّتها النبوّة.

وقـد أدّت القیم الجدیـدة إلی إیجـاد علاقـات جدیـدة: فألّف اللّه بالنبی ... بالقیم الّتی بشّـر بها وأذاعها فی الناس، إخواناً فی الإیمان، وفرقت هـذه القیم الإیمانیـة بین أقران اختلفت بهم الطریـق حین هتف صوت النبوّة فی المجتمع، فسـلک بعضـهم طریق الإیمـان وبقی الآخر علی طریقه القدیمة، وقیمه القدیمة، طریق الجاهلیة وقیم الجاهلیة.

کمـا أدّت هـذه القیـم الجدیـدة إلی تغییر فی المراتـب الإجتماعیـة، لأنّ القیـم القدیمـة الـتی کـانت تجعـل أسـاس الـترتیب فی البنیة الإجتماعیـة بین الأشـخاص أو الفئات متمثلاً فی المال، أو السـلالة والنسب، أو القوة الحربیة ... هذه القیم قد زالت وحلّت محلها قیمة جدیدة غدت هی الأساس الّذی یقوم علیه الترتیب الإجتماعی، وهی التّقوی۱ ومن ثم فقد أعزّ اللّه بالنبی ... بالقیم الّتی جاء بها الذّلة الّتی کانت تفرضها القیم الجاهلیة القدیمة علی الفقراء والمستضعفین، وأذلّ به العزّة الّتی کانت تنشأ من قیم غیر إیمانیة.

من تاریخنا الإسلامی تحفل السیرة النبویة بمئات من الشّواهد والنّماذج.

فالأذلاء فی الجاهلیـة کعمّار بن یاسـر وبلال الحبشـی غدوا أعزاء فی المجتمع الجدید، لأنّ القیم الجاهلیّة الّتی کانت تفرض علیهم أن یکونوا أذلاء فی مرتبة اجتماعیة متدنیة قد زالت بالإسـلام. وجاء الإسـلام بقیم جدیدة غیّرت موقعهم فی المجتمع فجعلتهم من النخبة، والأعزاء فی الجاهلیـة غـدوا أذلاء لأنّ القیم الّتی کانوا یتکئون علیها ویسـتمدون منها اعتبارهم الإجتماعی ویتبوّؤن مرکز النخبة فیه... هذه القیم قد زالت بالإسلام وحلّت محلّها قیمة جدیدة هی التقوی، وحیث أنهم لم یتحلّوا بهذه القیمة الجدیدة فقد غدوا من الأذلاء.

۱- فی شرح مفهـوم التقـوی الإسـلامی وبیـان مکوّنـاته وأبعـاده راجع کتابنـا (دراسـات فی نهج‌البلاغـة) فصـل: المجتمع والطبقـات الإجتماعیة.

وثمة نصوص فی نهج‌البلاغة تحدث فیها الإمام عن حالة العرب بالنّسبة إلی تأثیر النبوّة فی أوضاعهم الحیاتیة والمعنویة.

ففی النص التـالی صوّر أمیر المؤمنین حالـة المجتمع العربی الجـاهلی عشـیة بعثـة النبی محمـد (ص)، فی جمیع وجوه حیـاته الّتی کان علیها من النّواحی الرّوحیة والإجتماعیة والأخلاقیة. قال علیه‌السّلام: «إنّ اللهَ بعثَ مُحمّداً (ص) نَذِیراً للعالَمِین، وأمیناً علی التَّنزیلِ، وأنتُم معشرَ العربِ علی شرِّ دِینٍ وفِی شرِّ دارٍ مُنِیخون [۹۹] بینَ حِجارَةٍ خُشنٍ وحیَّاتٍ صُمٍّ [۱۰۰] تشـربُون الکَدِر، وتأکُلُون الجشِبَ، [۱۰۱] وتسفِکُون دِماءکُم وتقطعُون أرحامکُم، الأصنام فِیکُم منصوبَة والآثامُ بِکم معصُوبة» [۱۰۲] [۱۰۳].

إنّهم کانوا علی شرّ دینٍ.

كانت الأصنام فيهم منصوبة يتوجهون إليها بالعبادة والضراعة، كانوا، إذن، وثنيين، وكانت وثنيتهم، الّتى استعاروها من هنا وهناك، بدائية متخلفة خالية من الجمال الفنّى والذوق إضافة إلى خلوها، بطبيعة الحال، من كلّ مضمون روحى سليم وكانوا فى شر دارٍ.

كانت دارهم البادية القاحلة المجدبة الّتى تفرض عليهم شروط حياة صعبة قاسية جعلت من حياتهم سلسلة من الأخطار والمتاعب وألوان الحرمان.

وكانوا- بسبب ما هم عليه من إفلاس روحى لأنهم على شرّ دين، ومن تخلف فى حياتهم المادّيّة لأنهم فى شرّ دار ...- بسبب هذا وذاك- كانوا على شرّ حال فى حياتهم الإجتماعية وعلاقاتهم الإنسانية، فهم يقطعون أرحامهم، وهم يسفكون دماءهم.

وهم- بالإجمال- يكدحون بأستمرار لتوفير حياة متخلفة، قاسية، فقيرة فى الشكل والمضمون فى ظل علاقات اجتماعيّة وإنسانيّة فاسدة.

فى نصّ آخر يؤرخ الإمام للتغيير الّذى أدخلته النبوّة على حياة العرب، ويسجّل ملامح عامة للحال الّتى انتقلوا منها وللحال الّتى صاروا إليها بعد الإسلام.

قال عليه‌السّلام: «أمّا بعدُ فإنَّ الله سُبحانهُ بعثَ مُحمّداً (ص) وليس أحد مِن العربِ يقرأُ كِتاباً ولا يدّعِى نُبوَّةً ولا وحياً، فقاتلَ بِمن أطاعَ من عصاهُ، يسُوقُهُم إلى منجاتِهِم، ويُبادِرُ بِهِمُ السّاعة أن تنزِلَ بِهِم يحسِرُ الحسِيرُ ويقِفُ الكسِيرُ [۱۰۴] فَيُقِيم عليهِ حتى يُلحِقهُ غايتهُ، إلا هالِكاً لا خير فيهِ، حتَّى أرأهُم منجاتُهم [۱۰۵] وبوّأهُم محلَّتَهُم، [۱۰۶] فاستدارَت رحاهُم [۱۰۷] واستقامَت قناتَهُم». [۱۰۸].

كان العرب أمّيّين لا يقرأون ومن ثمّ فقد كان الجهل سائداً فيهم، وكانوا بعيدى عهد بالنبوّات ورسالات السماء ومن ثم فقد كانت حياتهم الروحية فقيرة هزيلة مشوّهة. وقد جهد رسول‌اللّه فى إخراجهم من الظلمات ... كلّ الظلمات: ظلمات الروح والعقل والحياة، إلى كلّ النور، من التخلف إلى التقدم، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن العمى الرّوحى إلى نعمة الإيمان الكبرى.

وبذلك بلغهم ساحل النجاة فى الدنيا والآخرة.

وبذلك أعطاهم دوراً عالمياً- بما هم مسلمون- يحملون فيه الهدى والنور والكرامة إلى جميع الأمم بعد أن كانوا كمية مهملة لا قيمة لها ولا قدر ولا دور.

وبذلك أعطاهم لين الحياة، وكرامة الحياة، واستقرار الحياة.

ولم تعد حياتهم قاسية صعبة، بل لقد استدارت رحاهم بالأرزاق.

ولم تعد حياتهم متوجسة متوحشة، بل لقد استقرت واطمأنت.

واستقامت قناتهم لم تعد مشرعة لأجل العدوان أو لأجل رد العدوان.

سلام اللّه وتحيّاته على جميع الأنبياء والمرسلين.

وعى التاريخ

من المؤكّد أن الإنسان العربى الجاهلى- قبيل الاسلام- كان يعوزه الوعى التاريخى بالمعنى الّذى عرفته الشعوب المتحضرة ذات الثقافة المدوّنة، وذات المؤسّسات السياسيّة والإدارية الرّاسخة العريقة. هذا فضلاً عن أن يكون الوعى التاريخى بالمعنى الّذى عرفه إنسان العصور الحديثة قد وجد لدى الإنسان العربى الجاهلى قبيل الإسلام.

وهذا الحكم ينطبق بوجه خاص على عرب الشّمال، وإن لم يكن عرب الجنوب- كما سنرى- أفضل حالاً منهم بكثير.

فقد كان العربى الجاهلى- قبيل الاسلام- يعيش حياة البداوة بما يلزمها من تنقل وارتحال طلباً للكلأ وللماء، ومن ثم لم يكن لدى العربى مؤسسات ثابتة، ونظم سياسية وإدارية.

وكانت الأمّية غالبة على هذا المجتمع، ومن ثم فلم يُنشئ ثقافة مدوّنة بأىّ نحو من الأنحاء إلا نقوشاً نادرة لا تبلغ أن تكون ثقافة مدوّنة تسهم فى تكوين الشخصية الثقافية للإنسان- لا نستثنى من ذلك عرب الجنوب الّذين كانوا قد فقدوا قبيل الإسلام- بانهيار نظام الرّى

عندهم- الكثير من سماتهم كشعب متحضر له ماضٍ عريق، وغدوا أقرب إلى البداوة والأميّة.

وكانت الحياة من البساطة والسذاجة بحيث أن أحداثها البارزة كانت نادرة جداً، ومحدودة المدى جغرافياً وبشرياً، وهذه الأحداث هى الّتى شكّلت مادة ما يسمى «أيام العرب» الّتى سنعرض للحديث عنها بعد قليل.

كما لم يكن لدى العربى الجاهلى شعور بالزمن المستمر كمفهوم حضارى، كانالزمن عنده مجرّد تعاقب للظواهر الفلكية والفصول. ومن المعلوم أنّه لم يكن لدى العربى الجاهلى تقويم.

ونتيجة لكل هذه العوامل لم تتكوّن لدى العربى أية خبرات تاريخية ماضية ذات شأن، ناشئة من وقوع الأحداث نفسها من ناحية والشعور بها من ناحية أخرى- لا أحداث مشتتة غير مترابطة- بل فى نطاق نظام للتعاقب الزّمنى وللعلاقات الداخلية فيما بينها.

وبعبارة أخرى: لم يكن لدى العربى الجاهلى شعور بأستمرار الأحداث وديمومتها، وتفاعلها الداخلى، وعلاقاتها بحاضره، وإمكانات تأثيرها فى المستقبل على النحو الذى يصح أن يسمّى وعياً تاريخياً. لقد كان وعى الماضى على هذا النحو لدى العربى الجاهلى قبيل الإسلام معدوماً.

نعم، لقد كان ثمّة وميض من الشّعور بالماضى لدى العربى الجاهلى.

كانت الذّاكرة تحمل صوراً غامضة، هلاميّة الشّكل ومشوّهة لهذا الماضى ناشئة من القصص الّتى كانت تسمّى «الأيام»، ومن العناية بالأنساب. لقد كانت «الأيام» والأنساب كما «البعد التّاريخى» للإنسان العربى.

إنّ هذا الوميض من الشّعور بالماضى لا يرقى، بالتأكيد، إلى أن يكون وعياً تاريخياً بالمعنى الّذى نفهمه الآن.

فقصص الأيام نادراً ما تملئها الأحداث الكبرى ذات الشّأن السّياسى والإنسانى وهو ما يعطى التاريخ حقيقته ومعناه. وغالب أحداثها يتكوّن من معارك صغيرة بين مجموعات قبلية، ويعطيها الخيال الشعرى والنصوص الشعرية المرافقة لها وهجاً وحجماً غير واقعيين.

كما أنّها تفقد عنصر الترابط فيما بينها، ولا تأخذ فى جميع الأحوال بنظر الاعتبار عنصر السببيّة، ولا تقوم بينها علاقات داخليّة.

وهى خالية من عنصر الزمن، وخلوّها من عنصر الزمن ليس ناشئاً من إهمال، بل ناشئ من عدم إدراك العربى الجاهلى لعامل الزمن التاريخى كما أشرنا آنفاً.

وكانت قصص الأيام فى حلقات السّمر الّتى تعقد أمام الأخبية والخيام للتسلية والمتعة، وللمفاخرة فى بعض الحالات. ولم تكن تتداول كمادة علمية. والرأى الراجح أنها لم تدوّن على الإطلاق.

والأنساب وإن كانت تدلّ على شعور بالماضى من خلال وعى الإنتماء إلى الآباء الّذين تشتمل على ذكرهم شجرة النسب القبلية، إلا أنّ علمنا بأنّ شجرات الأنساب كانت تقتصر على مجرّد ذكر الأسماء فقط دون أن تحتوى على أية مادة تاريخية، علمنا بهذا الوضع لشجرات الأنساب التى كانت تتداول عن طريق الرّوايات الشّفوية يجعل قيمتها كمصدر لتكوين الوعى التاريخى معدومة.

ومن المؤكدّ أنّ شجرات الأنساب فى العصر الجاهلى لم تعرف أىّ شكل من أشكال التدوين ليتيح فرصة إضافة مادّة تاريخيّة إليها. ولم تدوّن شجرات الأنساب فى كتب إلا فى عصر إسلامى متأخّر نسبيّاً.

ويظهر لنا هذا الوميض من الشعور بالماضى لدى العربى الجاهلى فى الشعور الّذى يصور مواقف أخلاقية للشاعر فى مجالات الحرب، والكرم، والوفاء، وما إلى ذلك، حيث تدفع الشاعر خشيته من (أحاديث الغد) الّتى تعكس مسلكية غير نبيلة إلى أن يجعل سلوكه منسجماً مع قيم النبالة كما تقضى بها أخلاقيات المجتمع الجاهلى فيكون وفياً، وشجاعاً حتى الموت، وكريماً ... هذا الشعور يمكن أن يكون نواة للوعى التاريخى، ولكنّه لا يرقى، بطبيعة الحال، إلى أن يكون وعياً تاريخياً بالمعنى الّذى حدّدناه آنفاً. إنّه وعى ناشئ عن قيم أخلاقية بدوية الطابع، وليس عن وجود تاريخ يستوعبه الشعور والوجدان، وهو مقصور على حالات فردية لم تبلغ أن تكون وعياً عاماً. وهو شعور بالخشية من تصرّف شخصى أو موقف شخصى قد يدفع الآخرين إلى إدانته، وليس شعوراً بإنجازات الآخرين وتفاعلاً معها.

كان هذا حال العربى الجاهلى

ولكن الحال تغيّر بعد ظهور الإسلام تغيّراً كاملاً.

إنّ القرآن الكريم والسّنّة الشريفة قد كشفا للعربى تدريجاً عن عمقه فى الزمان باعتباره مسلماً. وغدا القرآن والسّنّة يغذيان على مهل وعى المسلم بعمقه التاريخى من خلال القصص الّتى تؤرخ للأمم الماضية، وأنبيائها، ومواقفها منهم باعتبارهم أنبياء، وحالات ازدهارها، وانحطاطها، وفنائها.

ومن خلال هذا الوعى أدرك المسلم أنّه بإسلامه، وجهاده اليومى- بالسيف والكلمة- فى داخل الجماعة الإسلامية الّتى تبنى نفسها بعين اللّه وعلى يد رسول‌اللّه، وفى مواجهة المشركين ... أدرك بوضوح كامل أنّه بعمله اليومى هذا يصنع تاريخاً موصولاً بما وعاه من تاريخ الأمم الماضية كما تعلّمه من الكتاب والسنة. وهكذا وجد الوعى التاريخ لدى الإنسان المسلم.

وللتّاريخ وظيفة تتعدى شعورنا بالإستمرار والديمومة. وهذه الوظيفة تربوية أخلاقية. لا يعنى هذا أنّ التاريخ يتحوّل إلى مادّة وعظية فقط، فإنّ البحث والنقد غرضان من أغراض التاريخ بلا شك، ولكن الوظيفة النهائية بعدهما هى، كما قلنا، تربوية أخلاقية.

وهذه الوظيفة تستمدّ معالمها وطبيعتها من طبيعة النهج الّذى تسلكه الأمة فى بناء نفسها، ومن طبيعة الدور الّذى تعد نفسها للقيام به فى محيطها الإقليمى أو على المستوى العالمى، ولذا نرى أنّ كلّ أمّة ذات نهج فكرى مميّز لشخصيتها تجعل التاريخ مادة بانية لهذا النهج الّذى ارتضته.

وهذا لا يعنى- بطبيعة الحال- أن يحرّف التاريخ ليكون أداة دعائية وسياسيّة. إنّ الأمانة للحقيقة يجب أن تكون دائماً مرعيّة، وإنّما يعنى أنّ التاريخ ليس مادة ترف فكرى وتسلية. إنّه مادة شديدة الخطورة إذا تولّى استعمالها فى الشأن العام رجال لا يقيمون للأخلاق وزناً ولا تحركهم روح رسالية، وأجهزة كذلك ... رجال وأجهزة يحركهم التعصب والغرور القومى والعنصرى ... فى هذه الحالة قد يوجّه التاريخ ليكون مبرّراً نظرياً وعاملاً نفسيّاً لدى الجماهير يخدم الطّغيان والإتجاهات العدوانيّة لدى السّياسيّين ورجال الحرب ضد أمة أخرى، وفى هذه الحالة يعرض التّاريخ للتّزوير والتّحريف.

والتّاريخ حافل بأمثلة عن تسخير التاريخ لغايات غير أخلاقية وغير رسالية فى العصور القديمة وفى العصر الحديث.

وللتاريخ فى الإسلام- انطلاقاً من هذا الفهم- وظيفة تتّصل بطبيعة الإنسان المسلم وطبيعة المجتمع الإسلامى.

إنّ الإنسان المسلم إنسان أخلاقى يعتنق رسالة عالمية، والمجتمع الإسلامى مجتمع أخلاقى وذو رسالة عالمية.

وإذن فالتاريخ ينبغى أن يخدم الرّسالية والأخلاقية فى علاقات المسلم الداخلية والخارجية، كما ينبغى أن يخدم الرّسالة والرّوح الرّسالية فى العالم.

وكلّما حدث فى سلوك المسلم أو سلوك الجماعة الإسلامية انحراف عن الأخلاقية أو انحراف عن الرّوح الرّسالية فى ممارسة الحياة والتعامل مع الآخرين فإنّ التاريخ يستعمل، إلى جانب الوسائل التربوية الأخرى والتنظيمية لتصحيح النظرة الخاطئة، وتقويم مسار الفرد والمجتمع.

والقرآن الكريم حافل بالشواهد على هذه الحقيقة نذكر منها شاهداً مميّزاً لأنّه يتضمن تعبيراً غدا مصطلحاً إسلامياً فى الشّأن التاريخى، هو مصطلح «أيام اللّه» الّذى يعنى الأحداث الكبرى فى تاريخ كلّ أمّة سواء أكانت نجاحات كبرى وانتصارات باهرة أو نكبات عظمى وانهيارات مأساوية.

وقد ورد هذا التعبير (أيام اللّه) فى القرآن الكريم مرة واحدة فقط، ذلك فى سياق الآيات الكريمة الّتى تضمنت بيان تربية وتوجيه نبىّ اللّه موسى بن عمران سلام اللّه عليه لبنى إسرائيل وهدايتهم إلى الإيمان الصحيح، ورفع مستوى إدراكهم من حالة الجهالة والبدائية والماديّة إلى المستوى الإيمانى- الحضارى. قال اللّه تعالى: «ولَقَد أرسلنا مُوسى بِآياتِنَا أن أخرِج قومكَ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وذكِّرهُم بِأيَّامِ اللّه. إنّفِى ذلِك لآياتٍ لِكُلِّ صبَّارٍ شكُورٍ». [۱۰۹].

وورد ذكر هذا المصطلح فى نهج‌البلاغة فى موضعين: أحدهما فى كلام للإمام عند تلاوته قوله تعالى (يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالغُدُوِّ والآصالِ رِجال لا تُلهِيهِم تِجارَةٌ ولا بيع عن ذِكرِ اللهِ) [... ۱۱۰] قال فى وصفهم ...: « وما برحَ لِلهِ.. عِباد ناجاهُم [۱۱۱] فِى فِكرِهِم، وكلَّمهُم فِى ذاتِ عُقُولِهم، فاستصبحُوا: [۱۱۲] بِنُورِ يقظةٍ فى الأبصارِ والأسماعِ والأفئدةِ، يُذكِّرُون بِأيَّامِ اللهِ، ويُخوِّفُون مقامه ». [... ۱۱۳].

وثانيهما فى كتاب له إلى عامله على مكّة قثم بن العبّاس، [۱۱۴] قال فيه: «أمَّا بعدُ، فأَقِم لِلناسِ الحجَّ، وذكِّرهُم بِأيَّامِ اللهِ». [۱۱۵].

من هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس كان الإمام عليه‌السّلام يتعامل فى توجيهه الفكرى، وفى وعظه، وفى تعليمه وتوجيهه السّياسى مع التاريخ، وكان يوجّه المسلمين إبى أن يعُوا التاريخ على هذا الأساس، وأن يتعاملوا مع التاريخ من هذا المنطلق الّذى يخدم الأخلاقية والرّسالية.

ولعلّ الخطبة القاصعة [۱۱۶] أفضل مثال على طريقة تعامل الإمام على مع التاريخ بهدف التربية وتقويم سلوك المجتمع أخلاقياً، وتوعيته بمسؤوليته الرّسالية، وسندرس فى‌فصل آتٍ جوانب من هذه الخطبة.

ويمكن أن نكوّن فكرة مقاربة للحقيقة عن جهود الإمام الفكرية فى حقل التوعية بالتاريخ إذا لاحظنا أن الكثير مما ورد فى نهج‌البلاغة- وهو قليل من كثير من كلام الإمام وخطبه- إن لم يكن أكثر ما ورد فى كلامه فى النهج من المواد التالية (و. ع. ظ/ ح. ذ. ر/ ز. ج. ر/ ع. ب. ر ...) كان الإمام قد خاطب به الناس فى حالات شتّى وأزمان شتّى، موجهاً تفكيرهم نحو التاريخ بهدف التربية وتقويم السّلوك الفردى والإجتماعى فى شؤون الحياة عامة من روحيّة واجتماعية وسياسيّة. ولا يختصّ ما رُوى عنه فى هذا الشأن بالوعظ وحده كما ربما يتوهّم البعض.

ومن أمثلة ما أشرنا إليه آنفاً قوله عليه‌السّلام فى مواضع من نهج‌البلاغة: «وعظتم بمن كان قبلكم ... » « ... فاتعظوا عباد اللّه بالصبر النّوافع ... » « ... واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكّروا فى الخير والشرّ أحوالهم، واحذروا ان تكونوا أمثالهم ...» « واتَّعِظُوا فِيها بِالّذِين قالُوا (من أشدُّ مِنّا قُوَّةً)». [۱۱۷].

إلى أمثال هذه العبارات الّتى ورد كثير منها فى خطبه وكتبه.

فقد كان الامام يقاتل بكل سلاح نزعه الشرّ والإنحراف وتيّار الفتنة الّتى بدأت تجتاح المجتمع الإسلامى. وكانت توعية المجتمع بالتّاريخ أحد هذه الأسلحة.

التاريخ يعيد نفسه

هل يعيد التاريخ نفسه؟

من البديهى أنّ التّاريخ لا يعود مرة أخرى إلى ساحة الحاضر أو المستقبل، إذا أردنا من هذه القضية عودة تفاصيله وجزئيات أحداثه، فالأحداث ليست أشياء مجرّدة تقع فى الفراغ دون أن تكون لها صلة بالبشر، وإنّما الأحداث بما هى صنع البشر تحمل السّمات الشخصية الخاصة لصانعيها: تحمل طابع مصالحهم الآنية، وأمزجتهم وعواطفهم، وأخلاقياتهم وطريقة فهمهم للحياة ... وقد تنعدم هذه السمات الشخصية المميّزة مع أصحابها، ولن تعودَ على الإطلاق. وإذن، فالتاريخ بهذا المعنى لا يعود ولا يتكرر.

إنّ ما حدث فى الماضى قد حدث مرة واحدة، ولن يحدث مرة أخرى، لن يتكرر، على الإطلاق.

أمّا إذا أردنا من هذه القضية عودة نمط الحركة التّاريخيّة ومظاهره العامة وآثارها النّفسيّة والإجتماعيّة فى المجتمع فإنّ التاريخ يعود بالتأكيد حين تتوفّر فى الحاضر ... فى نسيجه الإجتماعى وعلاقاته الإنسانية الأسباب الموضوعية الّتى أدّت إلى نشوء نمط الحركة التاريخيّة فى الماضى.

إنّ الإنسان هو الإنسان فى كلّ زمان.

إنّه يتحرك فى الزّمان والمكان مدفوعاً- فرداً وجماعةً ومجتمعاً- بمصالحه وعلاقاته وعواطفه، والعقائد والشرائع والمثل والقيم

الأخلاقیـة والرّوحیـة إذا تأصّـلت فیه وتعمقت فی وجـدانه وکیفت نظرته إلی الکون والحیاة والإنسان فإنها تکون قادرة علی أن تـدخل تغییراً عمیقـاً علی عواطفه ومصالحه وعلاقاته فی المجتمع والعالم، ومن ثمّ فإنّها تکون قادرة علی تغییر تاریخه ونقله إلی مسار جدیـد، ما دامت لا تواجه عقبات تشلّ فاعلیتها وتأثیرها.

أمّـا إذا فشـلت العقائـد والشـرائع والمثـل والقیم الأخلاقیـة والرّوحیـة فی إدخال التغییر المناسب لها علی تکوین الإنسان النفسـی وعلی تقدیره لمصالحه،لأنها لم تتأصّل فی أعماقه ولم تغیّر نظرته إلی الکون والحیاة والإنسان، فإنّ تاریخه فی هذه الحالة سیتکرر.

إنّ هـذا التاریـخ الجدیـد لن یحمـل نفس السّـمات والخصـائص الماضیـة فی الغالب، ولکنّه یحمل نفس الروح، ویخلّف فی المجتمع نفس الآثار الّتی کانت فی الماضـی تحمل أسـماء جدیدة وتقدم نفسـها بمبرّرات جدیدة لا تعدو أن تکون مجرّد قشرة خادعة یستطیع المؤرخ الباحث أن یکتشف ما وراءها فیتجاوزها إلی العمق لیجد الواقع القدیم تحت الأشکال الجدیدة. [۱۱۸].

فی أول خطبـة خطبها أمیرالمؤمنین علیّ بعد أن بویع بالخلافة فی المدینة نری أنّه قد لاحظ عودة الأشـکال القدیمة للإنقسامات القبلیة والفئویـة داخل المجتمع العربی الجاهلی إلی المجتمع الإسـلامی فی عهـد عثمان وبعـد مقتله بکلّ ما کانت تحتویه هـذه الأشـکال من روح قبلیة وعنصریة، وأخلاقیات جاهلیة رجعیّة.

وقد کانت عودة هذه الأشـکال القدیمة حاملة مضـمونها الرجعی نتیجة لضمور المثل العلیا والقیم المؤثرة فی حرکة التاریخ الإسلامی، ونتیجـة لضـعف مؤسـسة الخلافة فی عهد عثمان، هذا الضـعف الّذی مکّن القوی القدیمة والقیم القدیمة- الّتی لم تکن قد ماتت بعد، وإنّما کانت تعانی من حالة خمود وضـمور- مکّنها من أن تسـتعید فاعلیتها، وتعود إلی التأثیر فی حرکة التاریخ تحت شـعارات مناسبة تنسجم مع الإسلام فیالشکل الخارجی.

لقـد عادت إلی الظهور والفاعلیة تلک القیم والمثل الجاهلیّة القدیمة الّتی کانت تقود حرکة التاریخ فی المجتمع العربی وترسم ملامح هذا المجتمع وتوجه خطاه قبل بعثة الرّسول الأکرم وانتصار الإسلام.

وقـد رأی أمیرالمؤمنین علیّ هذه القیم البائدة العائدة من خلال رصده للظواهر الجدیدة الّتی تبدو فی حرکة الجماعات داخل المجتمع الإسلامی، وحرکة القیادات الّتی توجّه هذه الجماعات سراً وعلانیةً.

وقـد رأی مع ذلک الأفاعیل التی سـتنجم عن هـذه الحرکـة الرجعیة للتاریخ فی الإسـلام، والمآسـی الکبری الّتی سـتنزل بالمسـلم فرداً وجماعةً ومجتمعاً ودولةً ومؤسساتٍ نتیجة لانبعاث هذه الرّوح الشّریرة من جدید.

قال علیه‌السـلام: «ذِمَّتِی بِمالا أقُولُ رهِینة [۱۱۹] وأنـا بِهِ زعِیم. [۱۲۰] إنَّ من صـرَّحت لهُ العِبرُ عمّا بین یـدیهِ مِن المثُلاتِ [۱۲۱] حجزتهُ التّقوی عن تقحُّم الشُّبُهـاتِ، [۱۲۲] ألا وإنّ بلِیَّتکُم قـد عادت کهیئتِها [۱۲۳] یوم بعثَ اللهُ نبِیَّهُ صـلَّی اللهُ علیهِ وسـلَّم. والّذی بعثهُ بِالحقِّ لتُبلبُلُنَّ [۱۲۴] بلبلةً، ولتُغربلُنَّ [۱۲۵] غربلةً، ولتُساطُنَّ سوط القِدرِ [۱۲۶] حتی یعُودَ أسفلُکُم أعلاکُم، وأعلاکُم أسفلکُم ». [... ۱۲۷].

یقول لهم: إنّ البلیّة (الفساد الإجتماعی، والإنحطاط الأخلاقی والحضاری) الّتی کانت تسم الحیاة العربیة فی الجاهلیة نتیجة لسـیادة قیم الجاهلیـة ونظرة الجاهلیـة إلی الکون والحیاة والإنسان- هذه البلیّة قد عادت کما کانت عشـیة بعثة الرسول الأکرم (ص) لأنّ القیم الّتی ولّدت هذه البلیّة فی الماضـی الجاهلی قد دبّت فیها الحیاة من جدید علی حساب القیم الجدیدة الّتی جاء بها الإسـلام، هذه القیم الّتی تقلّص نفوذها وتأثیرها، بسـبب عوامل متنوعـة، علی الإنسان المسـلم، وأدّی ذلک إلی حدوث ثغرات نفذت منها القیم القدیمة فعادت من جدید.

ثم أنذر الإمام علی مجتمعه بأنّ هذه البلیّة الّتی عادت ستکون لها آثار مأساویة علی المجتمع الإسلامی.

ستنجم عن هذه البلیّة الأزمات الإجتماعیة والثورات الّتی ستلقی بالمجتمع فی غمار حروب أهلیة مدمّرة، ولا بدّ أن تکون هذه الأزمات والحروب الأهلیة أضرس،وأعم شراً، وأشدّ فتکاً مِمّا کان یحدث فی الجاهلیة.

ستکون فی المجتمع نتیجة لعودة هذه البلیّة بلبلة (اختلاط وتداخل) وشد وجذب ینتج عن الأزمات والثورات ویولّدها.

وسيكون حال المجتمع- نتيجة لهذه البليّة العائدة- حال القدر التى تغلى على النار وتختلط فيها المواد، ولا يستقر على حال، ولا ينعم بالطمأنينة، وإنّما هو فى قلق دائم، واضطراب مستمرّ.

سيؤدّى ذلك إلى الغربلة، وتمييز مواقف الرجال والجماعات، لأنّ المحن والأزمات تفرز الفئات الإجتماعية، وتحدّد سماتها.

ولكن كلّ ما سيحدث لن يتضمّن شيئاً من الخير، بل سيعود على المجتمع بالشّرور، وسيؤدّى بالمجتمع إلى التمزق الّذى يشلّ الفاعلية، ويعطّل الطاقات الإيجابية، بل يهددها، ويعوق حركة التقدّم.

ستكون جاهلية تتغشّى بشعارات الإسلام، جاهلية بعثتها القيم الجاهلية الّتى عادت إلى الحياة، فكانت هى، بدل القيم الإسلامية الجديدة، الأسباب الموضوعية لتحريك الإنسان المسلم فى الزّمان والمكان.

هكذا يصوّر الإمام عودة التّاريخ.

وفى خطبة أخرى خطبها الإمام بذى قار [۱۲۸] وهو فى طريقه من المدينة إلى البصرة بعد أن خرج عليه الزبير بن العوام وطلحة بن خويلد وأمّ المؤمنين عائشة فاتحين بخروجهم أبواب الفتنة الّتى عصفت بالمسلمين، والحرب الأهلية الّتى مزّقت وحدتهم ... هذه الفتنة الّتى ولّدتها القيم الجاهلية الّتى تنبّأ الإمام بها فى خطبته الأولى ... فى هذه الخطبة بيّن الإمام عليه‌السّلام أنّ مسيره لمواجهة المظهر الأول للفتنة هو كمسيره مع رسول‌اللّه (ص) لمواجهة قوى الجاهلية، وأنّ الروح المحركة واحدة فى الحالين رغم اختلاف المظهر الخارجى الّذى قد يوحى للساذجين بخلاف ذلك، ولكنّه لا يخدع الخبير.

قال عليه‌السلام ...: « أما واللّه إن كُنتُ لفِى ساقتِها [۱۲۹] حتّى تولّت بِحذافيرِها [۱۳۰] ما عجزتُ ولا جبُنتُ. وإنَّ مسيرِى هذا لِمِثلِها، فلأنقُبنَّ [۱۳۱] الباطِل حتَّى يخرُج الحقُّ مِن جنبِهِ. مالى ولِقُريش!! واللّه لقد قاتلتُهم كافِرين، ولأُقاتِلنَّهُم مفتُونين، وإنّى لصاحِبُهُم بِالأمسِ كما أنا صاحِبُهُمُ اليومَ». [۱۳۲].

كان الإمام يتحدث عن شأن الجاهلية فى مواجهة الإسلام، وعن كفاحه مع رسول‌اللّه (ص) ضد الجاهلية. ثم بيّن أنّ مسيره هذا إلى البصرة لمثل ما كان يكافحه من مظاهر عناد الجاهلية فى حياة رسول‌اللّه (ص).

إنّ التاريخ قد عاد، ولكن تحت شعارات جديدة. قال ابن أبى‌الحديد فى شرح هذا النص: «وشبّه عليه‌السّلام أمر الجاهلية أمّا بعجاجة ثائرة، أو بكتيبة مقبلة للحرب، فقال: إنى طردتُها، فولّت بين يدىّ، ولم أزل فِى ساقتِها أنا أطردها وهى تنطرد أمامى، حتَّى تولَّت بِأسرِها، ولم يبق مِنها شىء، ما عجزتُ عنها،ولا جبُنتُ مِنها.»

«ثمّ قال: وإنّ مسيرى هذا لِمِثلِها، فلأنقُبنّ الباطِل، كأنّه قد جعل الباطل كشىء قد اشتمل على الحق واحتوى عليه، وصار الحق فى طيّه، كالشىء الكامن المستتر فيه، فأقسم لينقُبنّ ذلك الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبِه». [۱۳۳].

وهكذا يصوّر الإمام عودة التاريخ حين تنشط الأسباب القديمة الّتى أنتجت الأحداث والمواقف القديمة، فتؤدّى إلى تكرار المواقف والإتجاهات ولكن تحت شعارات جديدة تتناسب مع الثقافة السائدة فى المجتمع.

وثمّة نصوص أخرى، غير ما ذكرنا، منثورة فى نهج‌البلاغة، تتضمّن الدّلالة على هذه الحقيقة.

مصارع القرون عوامل انحطاط الأمم

«مصارع القرون» تعبير استعمله الإمام فى إحدى خطبه فقال «واعتَبِرُوا بِما قد رأيتُم مِن مصارِعِ القُرُونِ قبلَكُم». [۱۳۴] ويريد به الأمم الماضية أو الأجيال الماضية، فالقرن فى اللغة جماعة الناس فى عصر واحد. [۱۳۵] فالإمام فى هذا التعبير يوجّه الأفكار نحو التأمل فى مصائر الأمم والشعوب، وكيف ولماذا تضعف وتتفسخ ويصيبها الإنحطاط والتخلف؟.

ويتساءل الإمام فى خطبة أخرى- ربّما تكون آخر خطبة، أو فى أواخر كلامه فى حشد عام- [۱۳۶] عن مصير الدّول والشّعوب القديمة، فيقول مخاطباً أصحابه ...: « وإنَّ لكُم فِى القُرُونِ السّالِفةِ لعِبرةً، أين العمالِقةُ وأبناء العمالِقةِ؟ أين الفراعِنةُ وأبناءُ الفراعِنةِ؟ أين

أصحابُ مدائنِ الرَّسِّ الّذين قتلُوا النَّبيِّين، وأطفأوا سُنَنَ المُرسلِين، [۱۳۷] وأحيواسُنَنَ الجبَّارِينَ؟ أين الّذِينَ ساروا بِالجُيوشِ، وهزمُوا بِالألُوفِ، وعسكرُوا العساكِر، ومدَّنُوا المدائن؟». [۱۳۸].

لقد كان الوضع الداخلى لمجتمع الإمام أثناء حكمه العاصف يقتضيه أن يستعين بالتاريخ ليواجه ما كان يتردّى فيه هذا المجتمع- فى العراق بوجه خاص- من انقسامات قبليـة، ومواقف عنصرية، وتسلط لرؤساء المجموعات القبلية على قبائلهم، وافتتان كثير من النابهين فى المجتمع والقياديين فى المجموعات القبليـة بالسخاء الّذى كانوا يتسامعون به عن معاوية بالنّسبة إلى أنصاره السياسيين ... وكان يرى ببصيرته النافذة أنّ هذه الطريق تؤدى بالمجتمع إلى الكارثة: ستنهكه النّزاعات الدّاخلية، وتخلخل بنيانه وتذهب بتماسكه، وتدفع بقياداته إلى خيانة مجتمعها والإرتماء فى أحضان الحكم الأموى الإستبدادى فى سوريا، وتفقد العراق دوره القيادى فى دولة الخلافة، فتجعله تابعاً صغيراً للشام.

وكان الإمام على يواجه هذا الخطر بشتى الأساليب، وعلى مختلف المستويات.

ومن الأساليب الّتى استعملها على المستوى الشعبى أسلوب التنظير بالتاريخ لحال مجتمعه، عاملاً على أن يكوّن لدى الناس العاديّين وعياً تاريخيّاً، ورؤيةً للحاضر واقعيةً تدرك ما فيه من خطورة وإحساساً بمخاطر الممارسات الّتى تسود المجتمع ... كلّ ذلك لأجل أن يبعث فى نفوسهم وعقولهم الحذر والتبصّر حين تعرض عليهم خيارات سبّبت للأمم الماضية نكبات أضعفتها أو حطمتها.

ومن الأمور الهامة الّتى يجب التّنبيه عليها أنّ الإمام فى تصويره لانحطاط الأمم ومصارع القرون لا يردّ ذلك إلى أسباب غيبية، وإنّما يعرض أسباباً موضوعية لهذا الإنحطاط كما سنرى.

وأفضل الأمثلة الّتى يحتويها نهج‌البلاغة فى موضوعنا هو الخطبة المسماة «القاصعة» [۱۳۹] وهو يعرض فيها الآفات الّتى تعرّض مجتمع العراق للخطر، ويذكر النظائر التاريخيّة لذلك عارضاً أسباب الإنحطاط.

عالج الإمام فى هذه الخطبة آفة شديدة الخطورة كانت تتعاظم وتستفحل فى مجتمع العراق فى ذلك الحين. تلك هى آفة الصّراع الدّاخلى الّذى كان يمزق وحدة المجتمع العراقى ويشلّ فاعليته وينعكس بآثاره السّيئة وتفاعلاته المشؤومة على سائر دولة الخلافة.

وقد كان هذا الصّراع يبدو للمراقب بوجوه متنوعة

۱- الصّراع القبلى

فقد نشطت الرّوح القبلية والقيم القبلية، وعادت إلى الظهور فارضة منطقها فى رسم خريطة العلاقات الإجتماعية والسّياسيّة داخل المجتمع، وكان ظهور الرّوح القبلية نتيجة لجملة من الأخطاء الّتى ارتكبت فى عهد إدارة الخليفة الثالث عثمان بن عفان. وكانت أخطاء فى السّياسة، وفى الإدارة، وفى التنظيم الإقتصادى، وفى التّوجيه الثقافى العام.

ويبدو أنّ هذه الرّوح القبلية قد سبّبت تخريباً واسع النطاق داخل المجتمع العراقى، ونرجح أنّ معاوية بن أبى‌سفيان كان يستغلّها للإمعان فى تصديع وحدة مجتمع العراق.

ويبدا أنّ هذه الرّوح القبلية الّتى كان يذكّيها أصحاب المصالح الخاصة قد أفلحت إلى حدّ بعيد فى تمزيق وحدة المجتمع، وإشاعة روح الشكّ والضغينة بين فئاته السّياسيّة، وداخل كلّ فئة أيضاً. يصوّر لنا ذلك نصّ فى إحدى خطب الإمام يحذّر ويؤنّب فيه مجتمعه، قال: «قدِ اصطلحتُم على الغِلِّ فيما بينكُم [۱۴۰] ونبت المرعى على دِفِنكُم. [۱۴۱] وتصافيتُم على حُبِّ الآمالِ. وتعاديتُم فِى كسبِ الأموالِ. لقد استهام بِكُمُ الخبث، [۱۴۲] وتاه بِكُمُ الغُرورُ، [۱۴۳] واللهُ المُستعانُ على نفسِى وأنفُسِكُم». [۱۴۴].

وقد روى ابن أبى‌الحديد فى شرحه على نهج‌البلاغة ما يصور التخريب والتمزيق اللّذين كانت تحدثهما هذه الرّوح القبلية، قال: «وقيل أنّ أصل هذه العصبية وهذه الخطبة أنّ أهل الكوفة كانوا قد فسدوا فى آخر خلافة أميرالمؤمنين، وكانوا قبائل فى الكوفة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادى باسم قبيلته: يا للنّخع! مثلاً، أو يالكندة نداء عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشّر، فيتألّب عليه فتيان القبيلة الّتى مرّ عليها، فينادون: يالتميم! ويالربيعة! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضى إلى قبيلته

فيستصرخها، فتسلّ السّيوف وتثور الفتن،ولا يكون لها أصل فى الحقيقة إلا تعرّض الفتيان بعضهم ببعض». [۱۴۵].

وما لا يرى ابن أبى‌الحديد له أصلاً نرى له أصلاً فى دسائس معاوية أو عملائه الّذين نقدّر أنّهم يشجّعون أمثال هذه الممارسات القبليّة، ويمدّونها بمزيد من أسباب الإثارة والهياج ليزيدوا مجتمع العراق إنهاكاً وتمزّقاً. وكذلك نرى لها أصلاً فى سياسات رؤساء القبائل الّذين كان نهج علىّ السّياسىّ يهدّد سلطانهم ونفوذهم، فكانوا يشجّعون العامّة والبسطاء على أمثال هذه الممارسات ليثبّتوا سلطانهم على قبائلهم.

۲- الصّراع العنصرى

لقد كان مجتمع العراق، كغيره من بلاد الإسلام فى ذلك الحين، يضمّ مجموعات كبرى من المسلمين غير العرب الّذين أدّى التّوسّع فى الفتوح خارج شبه الجزيرة العربية إلى احتلال بلادهم فى إيران ومستعمرات الإمبراطوريّة البيزنطيّة (مصر وسوريا، وغيرهما)، ومن ثم أدّى إلى دخول كثير منهم فى الإسلام.

وقد كان هؤلاء- من الناحية النظرية- يتمتعون بحقوق مساوية لحقوق المسلمين العرب كما يتحملون واجبات مساوية. لقد ضمن لهم الإسلام مركزاً حقوقياً مساوياً تماماً للمسلمين العرب، ولكنهم كانوا من الناحية الواقعية يعانون من التمييز العنصرى بسبب انطلاق الرّوح القبلية والعصبية العربية.

وقد ألغى الإمام على فور تسلّمه السلطة جميع مظاهر التّمييز العنصرى والعصبية العنصرية الّتى كان يعانى منها، بشكل أو بآخر، المسلمون غير العرب.

وقد أثار ذلك ردود فعل سلبيّة عند زعماء القبائل، فاحتجوا على التسوية فى العطاء بينهم وبين الموالى (المسلمين غير العرب)، واندفعوا ينصحون الإمام عليّاً قائلين: «يا أميرالمؤمنين، أعطِ هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم، واستمل من تخاف خلافه من النّاس». [۱۴۶].

وكان هؤلاء ينظرون فى نصيحتهم هذه وينطلقون فى نظريتهم السّياسيّة هذه من التجربة الّتى كان يقوم بها معاوية بن أبى‌سفيان.

ولكنّ الإمام علياً كان ينطلق فى ممارسته السّياسيّة من قاعدة أخرى، فأجابهم قائلاً: «أتأمُرُونّى أن أطلُب النَّصر بِالجورِ فِيمن وليتُ عليهِ؟!! واللهِ لا أطُورُ [۱۴۷] بِهِ ما سمر سمِير، [۱۴۸] وما أمَّ نجم فِى السَّماء نجماً». [۱۴۹].

وتشتمل الخطبة القاصعة على عدّة شواهد تدلّ على أنّ ما كان يثير فى نفس الإمام قلقاً عميقاً ليس الصّراع القبلى المستفحل وحده، بل الصّراع العنصرى أيضاً.

هذا الصراع بوجهيه- القبلىّ والعنصرىّ- كان، بالإضافة إلى أنّه آفة فى ذاته، يؤدّى إلى توليد آفات أخرى:

۱- يعمّق ويرسّخ الواقع الإجتماعى القبلى والتكوين الإجتماعى القبلى للمجتمع فى الثقافة العامّة، والبنية النّفسية للفرد، وبذلك يحول دون تطوّر التركيب الإجتماعى من طور القبلية الّتى تقسم المجتمع إلى وحدات تقوم على علاقة الدّم إلى طور التّوحد على أساس العقيدة والشّريعة والمؤسسات والمصالح المشتركة، وهو يؤدّى بالتّالى إلى أن يكون معوّقاً حضارياً أيضاً يجمّد المجتمع فى حالة التخلف على صعيد المؤسسات والإنجازات التنظيمية.

۲- يزيد ويعزّز سلطة رؤساء القبائل على قواعدهم القبلية، فيؤثر ذلك على فاعلية أجهزة السّلطة المركزية ويضعفها.

۳- يؤثر على تلاحم المجتمع- وهو فى حالة حرب مع القوى الخارجة على الشّرعية فى الشام، ومع الخوارج.

۴- يعزّز إمكانات تسلل معاوية بن أبى‌سفيان إلى داخل التكوينات السياسية فى مجتمع العراق، وهى القبائل.

وننتقل الآن إلى عرض الشّواهد من الخطبة القاصعة. [۱۵۰].

بيّن الإمام أوّلاً أنّ الكبرياء من صفات اللّه تعالى. ومن ثمّ فليس للناس أن يتكبّر بعضهم على بعض.

ثم عرض، ثانياً، لكبرياء أبليس، وتعصّبه ضدّ آدم مفتخراً بأصله، وذكّر بأن كبرياء إبليس كانت كارثة عليه إذ قضت على منزلته

العالیة.

ثم قرن الإمام بین کبریاء إبلیس وکبریاء البشر علی بعضهم، واعتبر المتکبرین أتباعاً لإبلیس فی هذا الخُلق الذمیم: «صدَّقهُ بِهِ أبناء الحمیَّةِ، [۱۵۱] وإخوانُ العصبیّةِ، وفرُسانُ الکِبرِ والجاهِلیَّةِ، حتَّی إذا انقادت لهُ الجامِحَةُ مِنکُم، [۱۵۲] واستحکمتِ الطَّماعِیَةُ مِنهُ فیکُم- فنجمتِ [۱۵۳] الحالُ مِن السِّرِّ الخفِیِّ إلی الأمر الجلِیِّ- استفحل سُلطانُهُ علیکُم. [۱۵۴] فأصبحتُم أعظم فی دینِکُم حرجاً، [۱۵۵] وأوروی فِی دُنیاکُم قدحاً [۱۵۶] مِن الّذین أصبحتُم لهُم مُناصِبینَ وعلیهِم مُتألِّبینَ».

وهکذا بیّن لهم الإمام أن الشرّ والفساد النّاشئین عن العصبیّة، والصّراع النّاتج منها لا یقتصر تأثیرها علی الجانب الدینی والإیمانی فقط، وإنّما یتعدی ذلک إلی التّأثیرعلی الوضع الحیاتی الدّنیوی، لهذه العصبیّة (أوری فی دُنیاکم قدحاً) من هؤلاء الّذین تخافون منهم علی امتیازاتکم المادّیّة فتتعصبون ضدّهم.

ثم أثار الإمام فی أذهانهم ذکری تاریخیة یعرفونها من القرآن، هی قصة ابنی آدم: «ولا تکُونُوا کالمُتکبِّرِ علی ابنِ أمِّهِ من غیرِ ما فضلٍ جعلهُ اللهُ فیه سِوی ما ألحقتِ العظمةُ بِنفسِهِ مِن عداوةِ الحسدِ، وقدحتِ الحمیَّةُ فی قلبه من نارِ الغضب،ونفخ الشیطانُ فی أنفِهِ من ریحِ الکِبرِ الّذی أعقبهُ اللهُ بهِ النَّدامةَ، وألزمهُ آثام القاتِلین إلی یومِ القیامةِ».

ثم یعود الإمام إلی تأنیب سامعیه علی ما هم علیه من روح قبلیة، وتعصب عنصری ذمیم، مبیناً لهم أنّ هذه الآفة الخطیرة الوبیلة قد ابتلیت بها الأمم الماضیة وذاقت مرارتها: «ألا وقد أمعنتُم فی البغی، [۱۵۷] وأفسدتُم فی الأرضِ، مُصارحةً للّه بالمُناصبةِ، [۱۵۸] ومُبارزةً لِلمؤمنینَ بِالمُحاربةِ (یقصد بالمؤمنین أولئک الّذین توجّه ضدهم العصبیّة) فاللّه اللّه فی کِبرِ الحمیَّةِ، وفخر الجاهلیَّةِ، فإنَّه ملاقِحُ الشَّنآنِ [۱۵۹] ومنافخُ الشیطانِ، الّتی خدعَ بِها الأُمم الماضِیة والقُرُون الخالِیة. [۱۶۰] أمراً تشابهتِ القُلُوبُ فیه، وتتابعتِ القُرونُ علیهِ، وکِبراً تضایقتِ الصُّدُورُ بهِ».

ثم یوجّه الأنظار بصورة مباشرة إلی القیادات الّتی تغذّی هذه الآفة، وتؤجّج نارها وهم زعماء القبائل: «ألا فالحذر الحذر مِن طاعةِ ساداتِکُم، الّذین تکبَّرُوا عن حسبِهِم وترفَّعُوا فوق نسبِهِم ... فإنَّهُم قواعِدُ أساسِ العصبیَّةِ، ودعائمُ أرکانِ الفِتنةِ، وسُیُوف اعتِزاءِ [۱۶۱] الجاهِلیة. فاتقُوا اللّه ولا تکُونُوا لِنعمِهِ علیکُم أضداداً، ولا لفضلِهِ عِندکُم حُسَّاداً، ولا تُطیعُوا الأدعیاء الَّذِینَ شربتُم بصفوکُم کدرهُم، [۱۶۲] وخلطتُم بصحَّتکُم مرضهُم، وأدخلتُم فی حقِّکُم باطِلهُم، وهُم أساسُ الفُسُوقِ وأحلاسُ العُقُوقِ ». [... ۱۶۳].

ثم یعود الإمام إلی التنظیر بالتاریخ، مذکّراً بالنهایات الفاجعة للأُمم والشعوب الّتی فتکت بها آفة التّعصب والتّناحر، مقابلاً ذلک بالنهج النبوی الإنسانی البعید عن الکبر: «فاعتبِرُوا بِما أصابَ الأُمم المُستکبِرین مِن قبلِکُم مِن بأسِ اللّهِ وصولاتِهِ، ووقائعِهِ ومُثُلاتِهِ واتّعِظُوا بِمثاوی خُدُودهِم ومصارع جُنُوبِهِم ... فلو رخَّص اللّه فی الکِبر لأحدٍ مِن عِبادِهِ لرخّص فیه لِخاصَّةِ أنبیائِهِ ... ولقد دخل مُوسی بنُ عِمران ومعهُ أخُوهُ هارُون- علیهماالسّلام- علی فِرعون وعلیهِما مدارِعُ الصُّوفِ، [۱۶۴] وبِأیدیهِما العِصِیُّ، فشرطا لهُ- إن أسلم- بقاءَ مُلکِهِ، ودوام عِزّهِ، فقالَ: (ألا تعجبُون مِن هذینِ یشرِطانِ لی دوامَ العِزِّ وبقاء المُلکِ، وهُما بِما ترونَ مِن حالِ الفقرِ والذُّلِ)».

ویستمرّ الإمام فی التّنظیر التّاریخیّ، داعیاً مستمعیه إلی فحص المواقف التاریخیّة الّتی مرّت علی الأمم السّابقة، وتجنّب الإختیارات والتّجارب الّتی أدّت إلی الإنحطاط والإنهیار، واختیار المسلکیّة الّتی ثبت بالتّجربة صلاحها ...: « واحذرُوا ما نزلَ بِالأُمم قبلکُم مِن المُثُلاتِ بِسُوءِ الأفعالِ وذمیم الأعمال. فتذکّرُوا فی الخیر والشَّرِّ أحوالهُم، واحذرُوا أن تُکُونُوا أمثالهُم. فإذا تفکَّرتُم فی تفاوُتِ حالیهم، فالزمُوا کُلَّ أمرٍ لزمتِ العِزَّةُ بِهِ شأنهُم، وزاحتِ الأعداءُ لهُ عنهُم. [۱۶۵] ومُدَّتِ العافیةُ بِهِ علیهِم، وانقادتِ النعمةُ لهُ معهُم، ووصلَتِ الکرامةُ علیهِ حبلهُم، مِن الإجتنابِ لِلفُرقةِ، واللُّزُوم للألفةِ، والتَّحاضِّ علیها، [۱۶۶] والتَّواصی بِها. «واجتنبُوا کُلَّ أمرٍ کسر فِقرتهُم، [۱۶۷] وأوهنَ مِنّتهُم [۱۶۸] مِن تضاغُن القُلوبِ، [۱۶۹] وتشاحُن الصُّدورِ، وتدابُرِ النُّفُوسِ وتخاذُلِ الأیدی ». [... ۱۷۰].

ویستمر الإمام فی تنظیره التاریخی بتقدیم أمثلة محددة من حیاة الإسرائیلیین والعرب، بعدما کان فی تنظیره السّابق یذکر الأمم بشکل عام، دون أن یخصّ بالذّکر أمة بعینها ...: « وتدبَّرُوا أحوال الماضِین مِن المُؤمِنینَ قبلکُم: کیف کانُوا فی حالِ التّمحِیص [۱۷۱]

والبلاءِ. ألم يكَونُوا أثقلَ الخلائقِ أعباءً، وأجهد العِبادِ بلاءً [۱۷۲] وأضيق أهلِ الدُّنيا حالاً. اتخذتهُم الفراعِنةُ عبيداً فسامُوهُم سُوء العذابِ، وجرَّعُوهُمُ المُرار، [۱۷۳] فلم تبرحِ الحالُ بِهم فى ذُلِّ الهلكةِ وقهرِ الغلبةِ ... حتَّى إذا رأى اللّه سُبحانهُ جدّ الصَّبر منهُم على الأذى فى محبَّتِهِ، [۱۷۴] والإحتمالَ للمكرُوه من خوفِهِ، جعلَ لهُم فى مضايقِ البلاءِ فرجاً، فأبدَلهُمُ العِزَّ مكان الذُّلِّ، والأمنَ مكان الخوف، فصاروا مُلوكاً حُكّاماً، وأئمَّةً أعلاماً ... فانظُرُوا كيفَ كانُوا حيثُ كانتِ الأملاءُ مجتمِعةً، [۱۷۵] والأهواء مُؤتلِفةً، والقُلُوبُ مُعتدِلةً، والأيدى مُترادِفةً، [۱۷۶] والسُّيوفُ مُتناصِرةً، والبصائرُ نافِذةً، [۱۷۷] والعزائمُ واحِدةً، ألم يكُونُوا أرباباً فى أقطارِ الأرضين، ومُلُوكاً على رِقابِ العالَمِينَ.»

فانظُرُوا إلى ما صارُوا إليه فى آخرِ أمُورِهم، حين وقعتِ الفُرقَةُ وتشتَّتِ الألفةُ، واختلفتِ الكلِمةُ والأفئدَةُ، وتشعَّبُوا مُختلِفين، وتفرَّقُوا مُتحارِبين، قد خلع اللّه عنهُم لِباس كرامتِهِ. وسلبهُم غضارَةَ نِعمتِهِ، [۱۷۸] وبقى قصصُ أخبارِهِم فِيكُم عِبراً لِلمعُتبرين مِنكُم.

«فاعتبِروا بحالِ ولدِ إسماعيل وبنى إسحاق وبنى إسرائيل عليهِمُ‌السلامُ، فما أشدَّ اعتِدالَ الأحوالِ [۱۷۹] وأقربَ اشتِباه الأمثالِ.»

«تأمَّلُوا أمرهُم فِى حالِ تشتُّتِهم وتفرُّقهم ليالِى كانت الأكاسرةُ والقياصِرةُ أرباباً لهُم. يختارُونهم عن ريفِ الآفاق، [۱۸۰] وبحرِ العِراقِ [۱۸۱] وخُضرةِ الدُّنيا، إلى منابتِ الشِّيح ومهافِى الرِّيح، [۱۸۲] ونَكد المَعاشِ [۱۸۳] فتركُوهُم عالةً مساكِينَ، إخوانَ دبرٍ ووبرٍ، [۱۸۴] أذلَّ الامم داراً، وأجدبهُم قراراً، لا يأوُون إلى جناحِ دعوةٍ يعتصِمُون بها، ولا إلى ظِلِّ ألفةٍ يعتمِدُون على عِزِّها، فالأحوالُ مُضطرِبةٌ، والأيدى مُختلفةٌ، والكثرةُ متفرقةٌ، فى بلاءِ أزلٍ [۱۸۵] وأطباقِ جهلٍ، [۱۸۶] من بناتٍ موؤودةٍ، وأصنام معبُودةٍ، وأرحامٍ مقطُوعةٍ، وغاراتٍ مشنُونةٍ.»

«فانظُروا إلى مواقِعِ نعمِ اللهِ عليهِم حينَ بعثَ إليهِم رسُولاً فعقدَ بمِلَّتِهِ طاعتهُم، وجمع على دعوتِهِ ألفتهُم كيف نشرتِ النِّعمةُ عليهم جناحَ كرامتِها، وأسالت لهُم جداول نعيمها. والتفَّتِ المِلَّةُ بهم فى عوائد بركتِها، فأصبحُوا فى نعمتها غرقين [۱۸۷] وفى خُضرةِ عيشِها فكهين [۱۸۸] قد تربَّعتِ الأمُورُ بهم [۱۸۹] فى ظلِّ سُلطانٍ قاهرٍ وآوتهُمُ الحالُ إلى كنفِ عزٍّ غالبٍ [۱۹۰] وتعطَّفتِ الأمُورُ عليهم فى ذُرى ملكٍ ثابتٍ [۱۹۱] فهُم حُكّام على العالمين، ومُلُوك فى أطرافِ الأرضين. يملِكُون الأمُور على من كان يملِكُها عليهم، ويُمضُون الأحكام فيمن كان يُمضِيها فيهم، لا تُغمزُ لهم قناة، ولا تُقرعُ لهم صفاة » [... ۱۹۲].

«وإنَّ عندكُمُ الأمثالُ من بأسِ اللّه وقوارعِهِ، وأيَّامِهِ ووقائعِهِ، [۱۹۳] فلا تستبطئُوا وعيدهُ جهلاً بِأخذِهِ وتهاوُناً ببطشِهِ، ويأساً من بأسِهِ فإنَّ اللّه سُبحانهُ لم يلعنِ القرن الماضى بين أيديكُم إلا لتركِهم الأمرَ بالمعرُوف والنّهى عن المُنكرِ، فلعن اللّه السُّفهاء لرُكُوب المعاصى، والحُلماءَ لتركِ التناهى». [۱۹۴].

۵- المعروف والمنكر والأكثرية الصّامتة من فرائض الإسلام الكبرى فريضة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

وقد ورد تشريع هذه الفريضة فى الكتاب الكريم والسّنّة الشّريفة فى عدة نصوص دالّة على وجوب الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر على جميع المسلمين بنحو الواجب الكفائى. [۱۹۵].

كما وردت نصوص أخرى كثيرة فى الكتاب والسّنّة، منها ما يشتمل على بيان الشّروط التى يتنجز بها وجوب هذه الفريضة على المسلم. ومنها ما يضىء الجوانب السّياسية والإجتماعية لهذه الفريضة، كما يوضح المبدأ الفكرى الإسلامى العام الّذى ينبثق منه هذا التّشريع، دلّ على وجوب هذه الفريضة من الكتاب الكريم قوله تعالى: «ولتكُن مِنكُم أُمَّةٌ يدعُون إلى الخيرِ ويأمُرُون بِالمعرُوفِ وينهون عن المُنكرِ، أُولئك هُمُ المُفلحُون». [۱۹۶].

فقد دلّت هذه الآية على وجوب الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر من جهة دلالة لام الأمر فى «ولتكن» على الوجوب.

كما أنّ ظاهرها أنّ الواجب هنا كفائى لا عينى، لأن مفاد الأمر تعلّق بأن تكون فى المسلمين أُمّة تأمر وتنهى، لا بجميعهم على نحو العينيّة الإستغراقيّة وعليه فإذا قامت جماعة منهم بهذا الواجب سقط الوجوب عن بقيّة المكلّفين كما هو الشّأن فى الواجب الكفائى.

ولم يحدّد فى القرآن والسّنّة عدد مخصوص لأفراد هذه الأمّة، فيراعى فى عدد الأفراد القائمين بالواجب مقدار الوفاء بالحاجة.

وقد جعل اللّه تعالى فى كتابه الكريم وعى هذه الفريضة، وأدائها حين يدعو وضع المجتمع إلى ذلك، من صفات المؤمنين الصّالحين، فقال تعالى: «والمُؤمِنُون والمُؤمِناتُ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ يأمُرُون بِالمعرُوفِ، وينهون عن المُنكرِ، ويُقيمُون الصَّلاةَ وُيؤتُون الزَّكاةَ ويُطيعُون اللّه ورسُولهُ أُولئك سيرحمُهُمُ اللّه إن اللّه عزيز حكيم». [۱۹۷].

فقد دلّت الآية المباركة على تضامن المؤمنين بعضهم مع بعض فى عمل الخير والبرّ والتقوى، وأنّهم جميعاً من جنود هذه الفريضة حين يدعوهم الواجب إليها.

وسياق الآية الكريمة دالّ على وجوب الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، من حيث أن بقيّة ما ورد فى الآية كلّه من الواجبات المعلومة فى الشريعة (الصّلاة، والزّكاة، وطاعة اللّه ورسوله)، [۱۹۸] وإن لم تكن الدّلالة السّياقيّة من الدّلالات الّتى لها حجيّة فى استظهار الأحكام الشّرعية.

وكما ورد مدح المؤمنين والمؤمنات- كأفراد- فى الآية الآنفة، فقد ورد فى آية أخرى مدح المسلمين كافّة- كأمّة ومجتمع- من حيث وعيهم لهذه الفريضة وعملهم بها، وتلك هى قوله تعالى: «كُنتُم خير أُمَّةٍ أُخرِجت لِلناسِ تأمُرُون بِالمعرُوفِ وتنهون عن المُنكرِ، وتُؤمنُون بِاللّه». [۱۹۹].

وقد مدح اللّه فى كتابه الكريم المسلمين من أهل الكتاب، أتباع الأنبياء السّابقين قبل بعثة النّبىّ محمّد (ص) بوعيهم لهذه الفريضة والعمل بها، ممّا يكشف عن أنّها فريضة عريقة فى الإسلام منذ أقدم عصوره وصيغه، وأنّها قد كانت فريضة ثابتة فى جميع مراحله التّشريعيّة الّتى جاء بها أنبياء اللّه تعالى جيلاً بعد جيل. قال تعالى: «ليسُوا سواءً مِن أهلِ الكتابِ أُمَّةٌ قائمة يتلُون آياتِ اللهِ آناء الليلِ وهُم يسجُدُون. يُؤمنُون بِاللّه واليوم الآخرِ، ويأمُرُون بِالمعرُوف وينهون عن المُنكرِ، ويُسارعُون فى الخيراتِ وأُولئك مِن الصّالحين». [۲۰۰].

وقد كان إحياء هذه الفريضة، وجعلها إحدى هواجس المجتمع من شواغل الإمام الدّائمة. وقد تناولها فى خطبه وكلامه- كما تعكس لنا ذلك النّماذج الّتى اشتمل عليها نهج‌البلاغة- من زوايا كثيرة: تناولها كقضيّة فكريّة لا بدّ أن توعى لتغنى الشّخصية الواعية، وباعتبارها قضية تشريعية تدعو الأمّة والأفراد إلى العمل.

ومن هذين المنظورين عالجها بعدة أساليب.

لقد أعطاها منزلة عظيمة، تستحقها بلا شك، بين سائر الفرائض الشرعيّة، فجعلها إحدى شعب الجهاد الأربع: «.. والجهادُ منها- من دعائم الإيمانِ- على أربعِ شُعبٍ: على الأمرِ بالمعرُوف والنَّهى عن المُنكرِ، والصِّدقِ فى المواطن، وشنآن الفاسقينَ، فمن أمرَ بالمعرُوفِ شدَّ ظُهُور المؤمنين، ومن نهى عن المُنكرِ أرغم أنُوف الكافرين ومن صدق فى المواطن قضى ما عليه، ومن شنِئ الفاسِقِين وغضِب للّه غضِب اللّهُ لهُ وأرضاهُ يوم القيامةِ». [۲۰۱].

وجعل الإمام هذه الفريضة، فى كلام له آخر، تتقدم على أعمال البرّ كلّها، فقال ...: « وما أعمالُ البرِّ كُلُّها، والجهادُ فى سبيلِ اللّه عندَ الأمرِ بالمعرُوفِ والنَّهى عنِ المُنكرِ إلا كنفثةٍ [۲۰۲] فى بحرٍ لُجِّيٍّ ». [... ۲۰۳] ومن السّهل علينا أن نفهم الوجه فى تقدّم هذه الفريضة على غيرها إذا لاحظنا أنّ أعمال البرّ تأتى فى الرّتبة بعد استقامة المجتمع وصلاحه المبدئى- الشّرعى والأخلاقى- وأنّ الجهاد لا يكون ناجعاً إلا- إذا قام به جيش عقائدى، وهذه كلّها تتفرع من الوعى المجتمعى للشريعة والأخلاق، ومن الحد الأدنى للإلتزام المسلكى بهما.

فى بعض كلماته بيّن الإمام جانباً من الأسباب الموجبة لهذا التّشريع، فقال: «فرضَ اللّهُ ... والأمرَ بالمعرُوفِ مصلحةً للعوامِّ، والنَّهى عن المُنكرِ ردعاً للسُّفهاءِ». [۲۰۴].

فعامّة النّاس الّذين قد يقعون فى إثم ترك الواجبات لأنّهم لا يعرفونها على وجهها أو يجهلونها، يمكّنهم الأمر بالمعروف من التعلّم والتفقّه، بالإضافة إلى أولئك الّذين يقعون فى إثم ترك الواجب وهم يعرفون الواجب والحرام حيث يردّهم الأمر بالمعروف إلى جادّة الصّواب والإستقامة، كما يرد إليها السّفهاء الّذين يتجاوزون فى لهوهم وعبثهم حدود اللّه.

وللأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر مراتب متدرجة من الأدنى إلى الأعلى، فهى فريضة مرنة تستجيب للحالات المتنوعة، وللأوضاء المختلفة. فربّ إنسان تنفع فى ردعه الكلمة، وربّ إنسان لا ينفع فى شأنه إلا العنف.

ولكلّ حالة طريقة أمرها ونهيها الّتى يقدّرها الآمر والنّاهى العارف، ويتصرّف بقدرها فلا يتجاوزها إلى ما فوقها حيث لا تدعو الحاجة إليه، ولا ينحطّ بها إلى ما دونها حيث لا يؤثّر ذلك فى ردع السّفيه عن غيّه وحمله على الإستقامة والصّلاح.

وثمّة حالات من الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر لا بدّ فيها من القتال، وهذه حالات تحتاج إلى أن يقود عملية الأمر والنهى فيها الحاكم العادل. وفى هذه الحالات الخطيرة جدّاً لا يجوز لآحاد الناس أو جماعاتهم أن يقوموا بها دون قيادة حاكم شرعى عادل.

وإذا كانت مراتب الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر تتدرج صاعدة من الإنكار بالقلب إلى الإنكار باللّسان إلى الإنكار باليد، وللإنكار باللّسان درجات، وللإنكار باليد درجات...

وإذا كانت الحالات العادية للأمر والنّهى تتفاوت فى خطورتها وأهميتها بما يستدعى هذه المرتبة من الإنكار أو تلك...

فإنّ الحالات الكبرى الّتى لا بدّ فيها من تدخل الحاكم العادل والأمّة كلّها قد تبلغ درجة من الخطورة لا بدّ فيها من الإنكار بالقلب واللّسان وأقصى حالات الإنكار باليد- أعنى القتال.

وهذا هو ما كان يواجهه المجتمع الإسلامى فى عهد الإمام عليه‌السّلام، متمثلاً تارة فى ناكثى البيعة الّذين خرجوا على الشرعيّة واعتدوا على مدينة البصرة، ولم تفلح دعوته لهم بالحسنى فى عودتهم إلى الطاعة واضطروه إلى أن يخوض ضدّهم معركة الجمل فى البصرة. أو المتمردين على الشرعية فى الشام بقيادة معاوية بن أبى‌سفيان الّذى رفض جميع الصيغ السّياسيّة الّتى عرضها عليه الإمام ليعود من خلالها إلى الشرعية. أو المارقين الخوارج على الشّرعيّة والّذين رفضوا كلّ عروض السّلام الّتى قُدِّمت لهم، وأصروا على الفتنة ومارسوا الإرهاب ضدّ الفلاحين والآمنين والأطفال والنّساء...

فى هذه الحالات وأمثالها على المسلم المستقيم أن يبرأ من الإنحراف فى قلبه، وأن يدينه علناً بلسانه، وأن ينخرط فى أىّ حركة يقودها الحاكم العادل لتقويم الإنحراف بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك.

قال عليه‌السلام، فيما يبدو أنه تقسيم لمواقف النّاس الّذين كان يقودهم من المنكر المبدئى الخطير الّذى كان يهدّد المجتمع الإسلامى كلّه فى استقراره، وتقدمه، ووحدة بنيه: «فمِنهُمُ المُنكرُ للمُنكرِ بيدِهِ ولسانهِ وقلبِهِ، فذلك المُستكمِلُ لِخصالِ الخيرِ. ومنهُمُ المُنكِرُ بِلسانهِ وقلبِهِ والتَّاركُ بيدهِ فَذلِكَ مُتمسِّك بخصلتين من خصالِ الخيرِ ومُضيع خصلةً، ومنهُم المُنكِرُ بقلبِهِ والتَّاركُ بيدهِ ولسانهِ فذلِكَ الَّذى ضيَّع أشرفَ الخصْلَتين من الثَّلاثِ وتمسَّك بِواحدةٍ. ومنهُم تارك لإنكارِ المُنكرِ بلسانهِ وقلبِهِ ويدهِ فذلِك ميِّتُ الأحياءِ». [۲۰۵].

ونلاحظ أنّ الإمام سمّى التّارك، فى هذه الحالة الخطيرة، لجميع مراتب الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر «ميّت الأحياء» ونفهم صدى هذا الوصف إذا لاحظنا أنّ إنساناً لا يستشعر الأخطار المحدقة بمجتمعه، ولا يستجيب لها أىّ استجابة، حتى أقل الإستجابات شأناً وأهونها تأثيراً، وأقلها مؤونةً وهى الإنكار بالقلب الّذى يقتضيه مقاطعة المنكر واعتزال أهله- أنّ إنساناً كهذا بمنزلة الجثة الّتى لا تستجيب لأىّ مثير، لأنّها خالية من الحياة الّتى تشعر وتستجيب.

ويقول عبدالرحمان بن أبى‌ليلى الفقيه، وهو ممّن قاتل مع الإمام فى صفّين، أنّ الإمام كان يقول لهم حين لقوا أهل الشّام: «أيُّها المؤمنُون. إنَّهُ من رأى عُدواناً يُعملُ بِهِ، ومُنكراً يُدعى إليه فأنكرهُ بِقلبِهِ فقد سلمَ وبَرئَ، ومن أنكرهُ بِلسانهِ فقد أُجِرَ، وهو أفضلُ من صاحبِهِ. ومن أنكرهُ بالسَّيف لِتكُون كلِمةُ اللّه هى العُليا وكلِمةُ الظّالمين هى السُّفلى فذلك الّذى أصاب سبيل الهُدى وقام على الطَّريقِ، ونوَّر فى قلبِه اليقينُ». [۲۰۶].

ونلاحظ هنا أنّ الإمام وضع للإنكار بالسّيف- وهو أقصى مراتب الإنكار باليد- شرطاً، هو أن تكون الغاية منه إعلاء كلمة اللّه لا العصبيّة العائلية أو العنصريّة، ولا المصلحة الخاصة، والعاطفة الشّخصية. وهذا شرط فى جميع أفعال الإنسان، وفى جميع مراتب الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، إلا أنّ الإمام عليه‌السّلام صرّح به فى هذه المرتبة لخطورة الآثار المترتبة على القيام بها من حيث أنّها قد

تؤدّى إلى الجرح والقتل.

ويقدّر الإمام أنّ كثيراً من الناس يتخاذلون عن ممارسة هذا الواجب الكبير فلا يأمرون بالمعروف تاركه ولا ينهون عن المنكر فاعله بسبب ما يتوهمون من أداء ذلك إلى الإضرار بهم: أن يعرضوا حياتهم للخطر، أو يعرضوا علاقاتهم الإجتماعية للإهتزاز والقلق، أو يعرضوا مصادر عيشهم للإنقطاع ... وما إلى ذلك من شؤون.

وقد لحظ الشارع هذه المخاوف، فجعل من شروط وجوب الأمر والنهى عن المنكر عدم ترتب ضرر معتدٍّ به على الآمر والناهى.

ولكنّ كثيراً من الناس لا يريدون أن يمسّهم أىّ أذى أو كدر. وهذا موقف ذاتى وأنانى شديد الغلوّ لا يمكن القبول به من إنسان يفترض فيه أنه ملتزم بقضايا مجتمعهِ كما هو شأن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر. فهو إنسان يستبدّ به القلق لأىّ انحراف يراه، ويدفعه قلقه وأخلاقه إلى أن يتصدّى للإنحراف بالشّكل المناسب، وهو الّذى قال فيه الامام فى النّص السّابق «المستكمل لخصال الخير».

لقد نبّه الإمام- فى موضعين من نهج‌البلاغة على أنّ التّخاذل عن الأمر والنهى خشية التعرض للأذى ناشئ عن أوهام ينبغى أن يتجاوزها المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه، فلا يجعلها هاجسهُ الّذى يشلّه فيحول بينه وبين الحركة المباركة المثمرة، فقال الإمام فيما خاطب به أهل البصرة فى إحدى خطبه، وقد كانوا بحاجة إلى هذا التّوجيه، لما شهدته مدينتهم، وتورّط فيه كثير منهم من فتنة الجمل: «وإنّ الأمرِ بالمعرُوفِ والنَّهى عنِ المُنكرِ لخُلُقان مِن خُلُق اللّه سُبحانهُ، وإنَّهُما لا يُقرِّبان مِن‌أجلٍ، ولا ينقصانِ مِن رزق». [۲۰۷].

ونوجّه النظر إلى قوله عليه‌السّلام أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر خلقان من خلق اللّه عزّوجلّ، فاللّه هو الآمر بكلّ معروف، والناهى عن كلّ منكر، وإذن، فإنّ المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه الواعى للأخطار المحدقة به، يمتثل- حين يأمر وينهى- للّه تعالى ويتبع سبيله الأقوم.

وقال الإمام فى موقف آخر: «وإنَّ الأمرَ بالمعرُوف والنَّهى عنِ المُنكرِ، لا يُقرِّبان من أجلٍ ولا ينقُصان من رزقٍ». [۲۰۸].

قلنا إنّ إحياء هذه الفريضة، وجعلها إحدى هواجس المجتمع الدّائمة، وإحدى الطّاقات الفكرية الحيّة المحرّكة للمجتمع كان من شواغل الإمام الدّائمة.

وكان يحمله على ذلك عاملان: أحدهما أنّه إمام المسلمين، وأميرالمؤمنين، ومن أعظم واجباته شأناً أن يراقب أمّته، ويعلّمها ما جهلت، ويعمّق وعيها مما علمت، ويجعل الشّريعة حيّة فى ضمير الأمة وفى حياتها.

وثانيهما هو قضيته الشّخصيّة فى معاناته لمشاكل مجتمعه الدّاخلية والخارجية فى قضايا السّياسة والفكر.

فقد كان الإمام يواجه فى مجتمعه حالة شاذة لا يمكن علاجها والتغلب عليها إلا بأن يجعل كلّ فرد بالغ فى المجتمع- والنّخبة من المجتمع بوجه خاص- من قضية الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، فى كلّ موقف تدعو الحاجة إليهما وخاصة فى المواقف الخطيرة، قضية التزام شخصى واع وصارم.

لقد شكا الإمام كثيراً من النّخبة فى مجتمعه، وأدان هذه النّخبة بأنّها نخبة فاسدة فى الغالب لأنّها لم تلتزم بقضية شعبها ووطنها وإنّما تخلّت عن هذه القضية سعياً وراء آمال شخصية وغير أخلاقية...

أكثر من هذا: لقد اتّهم الإمام هذه النخبة مراراً بأنّها خائنة. ومن مظاهر عدم التزامها بقضية شعبها أو خيانته هو تخليها الّذى لا مبرّر له عن ممارسة واجبها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وإذ يئس الإمام من التّأثير الفعّال فى هذه النّخبة فقد توجّه بشكواه رأساً إلى عامة الشّعب محاولاً أن يحركه فى اتجاه الإلتزام العملى بقضيته العادلة، موجهاً وعيه نحو الأخطار المستقبلية، محذراً له من تطلّعات نخبته.

نجد هذا التّوجه نحو عامة الشعب مباشرة ظاهراً فى الخطبة القاصعة الّتى تضمّنت ألواناً من التّحذير، النّابض بالغضب، من السقوط فى حبائل النّخبة.

وكانت قضيـة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر- فيما يبدو- والتراخى أو اللامبالاة الّتى تظهرها النّخبة نحو هذه القضية- إحدى أشدّ القضايا إلحاحاً على ذهن الإمام وأكثرها خطورة فى وعيه.

وكان أسلوب التّنظير بالتاريخ إحدى الوسائل الّتى استعملها الإمام فى تحذيره لشعبه وفى تعليمه الفكرى لهذه الفريضة.

لقد كانت شكواه وتحذيراته المترعة بالمرارة والألم نتيجة لمعاناته اليومية القاسية من مجتمعه بوجه عام ومن نخبة هذا المجتمع بوجه خاص.

ولا بدّ أنّ هؤلاء وأولئك قد سمعوا من الإمام مراراً كثيرة مثل الشّكوى التّالية الّتى قالها فى أثناء كلام له عن صفة من يتصدّى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل: «إلى اللّه أشكُو مِن معشر يعيشُون جُهالاً ويمُوتُون ضُلالاً. ليس فيهم سِلعة أبورُ [۲۰۹] مِن الكتاب إذا تُلى حقَّ تلاوتهِ، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً مِن الكِتاب إذا حُرِّف عن مواضعهِ، ولا عندهُم أنكر من المعرُوف ولا أعرفُ من المُنكرِ». [۲۱۰].

كان النّهج الّذى سار عليه الإمام فى حكمه نهج الإسلام الّذى يستجيب لحاجات عامّة النّاس فى الكرامة، والرّخاء، والحرّيّة.

وكان هذا النّهج يتعارض، بطبيعة الحال، مع مصلحة طبقة الأعيان وزعماء القبائل الّذِين اعتادوا على الإستماع بجملة من الإمتيازات فى العهد السّابق على خلافة أميرالمؤمنين على (ع).

وقد كان لهذه الطّبقة ذات الإمتيازات أعظم الأثر فى الحيلولة بشتّى الأساليب دون تسلّم الإمام للسّلطة فى الفرص الّتى مرّت بعد وفاة رسول‌اللّه (ص)، وبعد وفاة أبى‌بكر، وبعد وفاة عمر، ولكنَّه بعد وفاة عثمان تسلّم السلطة على كراهية منه لها، وعلى كراهية من النّخبة له، فقد قبلت به مرغمة لأن الضغط الذى مارسته الأكثرية الساحقة من المسلمين فى شتّى حواضر الإسلام شلّ قدرة النّخبة المالية وطبقة الأعيان على التأثير فى سير الأحداث، فتكيّفت مع الوضع الجديد الّذى وضع الإمام علياً- بعد انتظار طويل- على رأس السّلطة الفعليّة فى دولة الخلافة.

وقد كشفت الأحداث الّتى ولدت فيما بعد عن أنّ هذا التكيّف كان مرحليّاً، رجاء أن تحتال فى المستقبل، بطريقة ما- لتأمين مصالحها وامتيازاتها.

وحين يئست طبقة الأعيان هذه من إمكان التّأثير على الإمام وتبدّدت أحلامهم فى تغيير نهجه فى الإدارة وسياسة المال وتصنيف الجماعات تغييراً ينسجم مع مصالحهم فيحفظ لها مراكزها القديمة، ويبوّئها مراكز جديدة ويمدّها بالمزيد مِن القوة والسّلطات على القبائل والموالى من سكّان المدن والأرياف ... حين يئست هذه الطّبقة من كلّ هذا وانقطع أملها.. طمع كثير من أفراد هذه الطّبقة بتطلّعاته إلى الشّام ومعاوية بن أبى‌سفيان، فقد رأوا فى نهجه وأسلوبه فى التّعامل مع أمثالهم ما يتّفق مع فهمهم ومصالحهم ... وتخاذل بعض أفرادها عن القيام بواجباتهم العسكرية فى مواجهة النشاط العسكرى المتزايد الّذى قام به الخارجون عن الشّرعية فى الشّام، هذا النّشاط الّذى اتّخذ فى النّهاية طابع الغارات السّريعة وحروب العصابات.

وكان تخاذلاً لا يمكن تبريره بجبنهم فشجاعتهم ليست موضع شك على الإطلاق.

ولا يمكن تبريره بقلّتهم، فقد كانت الأمّة قادرة على أن تزود حكومتها الشرعية بجيوش جرّارة وجنود أقوياء مدربين جعلت منهم طبيعتهم، وثقافتهم، وحروب الفتح الّتى خاضوها مدة سنوات طويلة من خيرة المقاتلين فى العالم.

ولا يمكن تبريره بنقص فى التّسليح وعدة الحرب وعتادها، فقد كانت معامل السّلاح نشطة لتأمين إحتياطى ضخم من السّلاح لمجتمع كان لا يزال محارباً.

ولا يمكن تبريره بسوء الحالة الإقتصاديّة، فقد كان المال العام وفيراً بعد أن أصلحت الإدارة الماليّة فى خلافة الإمام.

لم يكن إذن ثمة سبب للتّخاذل سوى الموقف السّياسى غير المعلن الّذى صممت النّخبة من الأعيان وزعماء القبائل على التّمسك به والتّصرّف فى القضايا العامّة وفقاً له، إلى النّهاية، وذلك بهدف تفريغ حكومة الإمام على من قوة السّلطة، وجعلها عاجزة عن الحركة

بسبب عدم توفّر الوسائل الضّرورية لها، وهذا ما يؤدّى فى النّهاية إلى انتصار التّمرّد على الشّرعية.

كان هذا الموقف السّياسى غير المعلن هو سبب التّخاذل.

وقد كان هذا الموقف غير معلن، بل كان قادة هذه النّخبة يوحون بإخلاصهم وتفانيهم، لأنّ هذه النخبة كانت تخاف، إذا أعلنت موقفها وكشفت عن نواياها وأهدافها البعيدة وأمانيها المخزية، من جمهور الأمّة أن يكتشف لعبتها ضد آماله ومصالحه، فيدينها ويعاقبها.

وقد حفظ لنا الشريف فى نهج‌البلاغة نصوصاً كثيرة يلوم فيها الإمام نخبة مجتمعه لوماً قاسياً مرّاً على تراخيهم وتخاذلهم عن القيام بالتزاماتهم العسكرية فى الدّفاع عن الشرعية، ولا شكّ أنّ الإمام فى آخر عهده كان مضطرّاً للإكثار من هذا اللّوم والتقريع، كقوله فى إحدى خطبه: «ألا- وإنّى قد دعوتُكم إلى قتالِ هؤلاءِ القوم ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وإعلاناً، وقلتُ لكُم: اغزُوهُم قبل أن يغزوكُم، فو اللّه ما غُزى قوم قطُّ فى عُقرِ دارهِم [۲۱۱] إلا ذلُّوا، فتواكلتُم وتخاذلتُم، [۲۱۲] حتّى شُنَّت [۲۱۳] عليكُمُ الغاراتُ، ومُلِكت عليكُمُ الأوطانُ... فيا عجباً! عجباً واللّهُ يُميتُ القلب، ويجلبُ الهمَّ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلِهم، وتفرُّقِكم عن حقِّكم! فقُبحاً لكُم وترحاً [۲۱۴] حين صِرتُم غرضاً يُرمى: يُغارُ عليكم ولا تُغيرُون، وتُغزون ولا تغزُون، ويُعصى اللّه وترضون.»

فإذا أمرتُكم بالسَّيرِ إليهم فى أيّامِ الحرِّ قلتُم: هذه حمارةُ القيظ أمهلنا يُسبخُ عنّا الحرُّ، [۲۱۵] وإذا أمرتُكُم بالسير إليهم فى الشتاء قلتُم: هذه صبارَّةُ القُرِّ [۲۱۶ ...] كُلُّ هذا فِراراً من الحرِّ والقُرِّ، فإذا كُنتُم مِن الحرِّ والقُرِّ تفرُّون، فأنتُم واللّهِ من السيف أفرُّ.

«يا أشباه الرِّجالِ ولا رجال! حلُومُ الأطفالِ، وعُقُولُ ربَّاتِ الحجالِ [۲۱۷] لوددتُ أنّى لم أركُم ولم أعرفكُم معرفةً- واللّه- جرَّت ندماً وأعقبت سدماً.» [۲۱۸].

«قاتلكُمُ اللّهُ! لقد ملأتُم قلبى قيحاً، وشحنتُم صدرى غيظاً، وجرعتُمُونى نُغب التَّهمامِ أنفاساً [۲۱۹] وأفسدتُم علىّ رأيى بالعصيانِ والخذلانِ، حتَّى لقد قالت قُريش: إن ابن أبى‌طالبٍ رجُل شُجاع ولكن لا عِلم لهُ بالحربِ، للهِ أبُوهُم وهل أحد منهُم أشدُّ لها مراساً وأقدمُ فيها مقاماً منّى لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين وهأنذا قد ذرَّفتُ [۲۲۰] على السِّتِّين! ولكن لا رأى لِمن لا يُطاعُ». [۲۲۱].

بهذه المرارة، وبهذا الغضب، وبهذه السّخرية، وبهذا الإحتقار كان الإمام يواجه هذه النخبة الّتى تخاذلت عن القيام بواجبها، أو خانت قضية شعبها.

ويبدو أن هذه الطبقة- أو فريقاً منها- كانت تحاول، ستراً لمواقفها الّتى عمل‌الإمام على فضحها، أن تتظاهر فى بعض الحالات بالغيرة والحميّة الدّينية، فتتخذ مواقف لفظية آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر دون أن تترجم ذلك إلى أفعال وممارسة عملية، شأنها فى ذلك شأن الكثيرين ممّن يسترون خياناتهم وأنانيتهم، وحرصهم على المتاع الدّنيوى بالمواقف الأخلاقية اللّفظية.

ولكنّ الإمام علياً كان يعرف هؤلاء، ومن السّهل معرفتهم فى كلّ زمان، وكان يفضح هذه المواقف المنافية بقسوة، لأنها تضيف إلى جريمة الخيانة السّياسيّة رذيلة النّفاق والتّمويه على بسطاء النّاس، فيقول مبصّراً مجتمعه بفساد العلاقات الناشئ من فساد النّخبة...: « وهل خُلقتُم إلا فى حُثالةٍ [۲۲۲] لا تلتقى إلا بذمِّهِمُ الشَّفتان، استصغاراً لقدرهِم، وذهاباً عن ذكرهِم، فإنّا للّه وإنا إليه راجعون.»

ظهر الفسادُ فلا مُنكر مُغيِّر، ولا زاجر مُزدجِر. أفبهذا تُريدُون أن تجاورُوا اللّه فى دارِ قُدسهِ، وتكُونوا أعزَّ أوليائهِ عندهُ؟ هيهات! لا يخدعُ اللّه عن جنَّتِهِ، ولا تُنالُ مرضاتُهُ إلا بطاعتهِ.

«لعن اللّهُ الآمرين بالمعرُف التّاركين لهُ، والنّاهين عن المُنكر العاملين بهِ». [۲۲۳].

وإذا كانت مصلحة الحكم المستبد الطبقى أو الفئوى تقضى بأن يصمت الشعب ولا يرتفع منه صوت اعتراض أو احتجاج، أو إدانة مهما أصابه من مظالم، ومهما حلّ بحقوقه من انتهاكات، فإنّ مصلحة الحكم الشّعبى الملتزم بالمصالح الحقيقيّة للناس العاديّين البسطاء هى على العكس من ذلك ... إنّ مصلحة هذا الحكم الّذى يستمدّ فاعليته وقوته من مجموع الشعب هى فى أن يتكلّم النّاس فى الشّأن السّياسى مؤيدين أو منتقدين لحماية مصالحهم الحقيقيّة فى مواجهة البنى العليا فى المجتمع الّتى تتبع سياسات مضادّة لمصالح مجموع

الشعب على المدى القريب أو البعيد، والّتى تعمل باستمرار لتكوين حالات اجتماعية، ومشاغل واهتمامات فكريّة تصرف فئات الشعب عن مصالحها الجوهرية [۲۲۴] وتقعد بها عن مساعدة الحكم الشّعبى الّذى يمثل هذه المصالح ويعمل لتحقيقها، هذا إذا لم تفلح هذه البنى العليا فى أن تؤلّب بعض فئات الشّعب- نتيجة للتّضليل- ضد هذا الحكم.

وسكوت الشّعب فى حالة النّشاط المعادى الّذى تقوم به البنى العليا، أو عدم مبالاته، بترك السّاحة خالية أمام هذه القوى لتفسد على الحكم الشّعبى سياساته المستقبليّة دون أن تخشى عقاباً، لأنّ الحكم فى هذه الحالة يقف فى مواجهة تلك القوى وهو أعزل، وهذا يمنعها من التّغلب عليه أو من تجاوزه. وهذا ما كان يحدث فى كثير من الحالات فى عهد الإمام عليه‌السّلام، وكان يثير غضبه على النّخبة لفسادها، ويحمله على كشف عيوبها أمام أعين النّاس.

لقد كان الإمام عليه‌السّلام حريصاً أشدّ الحرص على أن يحرّك الجماهير ويدفع بها دوماً إلى أن تعبّر عن رأيها، وتعلن عن مواقفها.

وتعكس لنا النّصوص إدراك الإمام العميق للأهميّة الكبرى والحاسمة الّتى تبيّنها هذه المسألة فى عمله السّياسى، وذلك فى مظهرين:

الأوّل: كثرة المناسبات الّتى أثار فيها الإمام موضوع الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وتنوّع الأساليب الّتى شرحه بها. وهذا أمر ملفت للنّظر بالنّسبة إلى حكم شرعى ثابت فى القرآن الكريم والسّنّة النبوية ويعتبره الفقهاء من الأحكام القطعية الضّرورية، إنّ هذا الإهتمام المستمر على مسألة الأمر والنّهى يكشف عن أنّ الإمام كان يواجه فى المجتمع حالة غفلة عن الحكم الشّرعى بوجوب الأمر والنهى، وحالة تراخ عن القيام بهذه الفريضة الإسلامية على وجهها، وهذه الغفلة وهذا التّراخى حملاه على أن يذكّر المسلمين بفريضة الأمر والنّهى ما استطاع.

الثّانى: عنف الأسلوب الّذى عبّر به الإمام عن أفكاره وعن معاناته حين كان يوجّه خطاباته إلى المسلمين فى هذا الموقف أو ذاك مقرّعاً لائماً، أو مشجعاً حاثاً لهم على أداء هذه الفريضة ... وهو ما يكشف عن أنّ الإمام يعانى من قلق عميق وغضب مكبوت نتيجة لما يراه فى المجتمع من إهمال. وتراخ.

وقد حثّ الإمام المسلمين على الإلتزام العملى بفريضة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى حياتهم العامّة وعلاقاتهم الإجتماعية والسّياسيّة بأساليب متنوعة،ونظر إليها من زوايا متعدّدة.

ومن جملة الأساليب الّتى اتّبعها فى تعليمه الفكرى والسّياسى بالنّسبة إلى هذه الفريضة أسلوب التّنظير التّاريخى، فمن ذلك قوله فى الخطبة القاصعة: «وإنَّ عِندكُمُ الأمثال مِن بأسِ اللّه وقوارعِه، وأيّامِه ووقائعِه، فلا تستبطئُوا وعيدهُ جهلاً بأخذِه، وتهاوُناً ببطشِه، ويأساً من بأسِه، فإنّ اللّه سُبحانهُ لم يلعنِ القرن الماضى بين أيديكُم، إلا لتركِهمُ الأمر بالمعرُوف والنّهى عن المُنكر، فلعنَ اللّه السُّفهاء لِرُكُوبِ المعاصى، والحُلماء لترك التَّناهى». [۲۲۵].

نلاحظ أنّ الإمام عبّر فى هذا النّص، كما فى نصوص أخرى- عن إنكاره بشأن ما يراه فى مجتمعه من تهاون وتراخ فى امتثال فريضة الأمر والنّهى، بأسلوب شديد الوقع يتجاوز النصيحة الرّقيقة الهادئة إلى الإنذار الشّديد، والتّحذير من أهوال كبرى مقبلة، واستعان على تصوير ذلك بالتذكير بما حلّ فى القرن الماضى من اللّعن نتيجة لإهماله هذه الفريضة أو تراخيه عن القيام بها.

واللّعن هنا ليس عقاباً روحياً وأخروياً فقط، إنّه هنا يأخذ معنى سياسيّاً، إنّ اللّعن هو البعد عن رحمة اللّه ورعايته، وهذا يعنى أنّ الملعون يتعرّض للنّكبات السياسيّة والإجتماعيّة الّتى تؤدى به فى النهاية إلى الإنحطاط والإنهيار.

والظاهر أنّ الإمام يعنى بالقرن الماضى الإسرائيليّين، فإنّ فى كلامه هنا قبساً من الآية الكريمة: «لُعِنَ الذينَ كفرُوا من بنى إسرائيلَ على لِسانِ داوُد وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانُوا يعتدُونَ. كانوا لا يتناهونَ عن مُنكرٍ فعلُوهُ لبئسَ ما كانُوا يفعلُون». [۲۲۶].

فى النّص التالى اتّبع الإمام أسلوب التّنظير بالتاريخ أيضاً فى تعليمه الفكرى لمجتمعه بشأن فريضة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، معيداً إلى أذهان مستمعيه قصة ثمود القرآنية، والنّكبة المرعبة الّتى أبادتهم حين عصوا أمر اللّه تعالى إليهم فى شأن ناقة نبيهم صالح (ع).

وليس من همنا هنا عرض الحادث التاريخي القرآني، وإنّما نبغي الكشف عن استخدام الإمام للتاريخ في تعليمه الفكري.

والإمام في التّنظير الوارد في النّص التّالي يثير مسألة ذات أهمية بالغة في العمل السّياسي، وهي أنّ حركة التاريخ تقودها دائماً جماعة قليلة العدد من الناس تملك القدرة على الحركة فتبادر إلى اتخاذ المواقف، في حين أنّ غيرها من الناس يكون في حالة سكون، فتكوّن بحركتها وقائع جديدة تحمل الناس على قبولها، وتضع السّلطة أمام أمر واقع.

وحين تكون هذه الجماعة المتحركة القليلة العدد ملتزمة بقضايا مجتمعها، عاملة في سبيل مصلحته، فإنّ واجب المجتمع أن يساندها ويقدّم لها العون المعنوي والمادّي في جهادها.

أمّا حين تعمل هذه الجماعة ضد مصالح المجتمع العليا والحقيقة- رغم ما توشّي به عملها من ألوان خادعة- فإنّ على المجتمع أن يتحرك ويقف في وجهها، ويلجم اندفاعها ذوداً عن مصالحه.

أمّا سكوت المجتمع وسكونه وسلبيته تجاه مواقف هذه الجماعة فإنّه جريمة يرتكبها في حق نفسه، لأن الكارثة حين تقع في النهاية نتيجة لأعمال الجماعة المتحركة لا تميّز بين المسبّبين لها وبين السّاكتين عنهم. إنّها حين تقع تصيب بشرورها المجتمع كلّه، بل لعلّها، في قضايا السّياسة والفكر، تصيب السّاكتين عنها أكثر ممّا تصيب المسبّبين لها، والّذين تكمن مصلحتهم في الإنحراف والتزوير.

ومن هنا فإنّ ما اصطلح عليه في لغة السّياسة في هذه الأيام باسم الأكثريّة الصّامتة، هذه الأكثريّة الّتي لا تبدي فيما يجري أمامها وعليها ولا تعيد، وإنما تقبل ما يقوم به الآخرون مختارة أو مرغمة، راضية أو ساخطة ...، هذه الأكثريّة الصّامتة بموقفها هذا تقوم بدور الخاذل للحق أو المتواطئ على الجريمة.

وذلك لأن الصّمت في هذه الحالات ليس علامة على البراءة والطّيبة، وإنّما هو علامة الجبن والغفلة والفرار من المسؤولية.

وهذه السّلبية الّتي هي في مستوى الجريمة لا تعفي من العقاب، والعقاب في هذه الحالة لا تقوم به السّلطة وإنّما تقوم به القوانين الإجتماعية الّتي تصنع الكارثة، يقوم به القدر الّذي لا يميّز بين السّاكن والمتحرك وإنّما يجرف الجميع، يقوم به اللّه تعالى الّذي يؤاخذ الجميع بذنوبهم: المتحركين بذنب المعصية، والساكتين بذنب توفير أجواء الجريمة أمام المجرمين ليرتكبوا جرائمهم.

ولذا، فإنّ الأكثرية الصّامتة، من هذا المنظور، لا تضمّ أبرياء، وإنّما تضمّ متواطئين وجبناء، سبّبوا، بإيثارهم للسّلامة الشخصية العاجلة، كوارث عامّة مستقبليّة، وجبنهم الّذي يكشف عن أنانيتهم الرّخيصة والذلّيلة يكشف عن أنّهم ليسوا جيلاً صالحاً لأن يبنى حياة مزدهرة.

إنّ الكوارث الإجتماعية، كالكوارث الطّبيعيّة، تجرف في طريقها، حين تقع النّبات النّافع والنّبات الضّار، ولا تميّز بينهما في الدّمار.

قال عليه‌السلام ...: « وإنّهُ سيأتي عليكُم من بعدي زمان ليس فيه شيء من الحقِّ، ولا أظهر من الباطلِ، ولا أكثر من الكذبِ على اللّه ورسُوله، وليس عند أهلِ ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تُلي حقَّ تلاوته، ولا أنفق منهُ إذا حُرِّفَ عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكرَ من المعرُوف ولا أعرف من المنكرِ، فقد نبذ الكتاب يومئذٍ حملتُهُ، وتناساهُ حفظتُهُ فالكِتابُ يومئذٍ وأهلُهُ طريدانِ منفيّانِ، وصاحبان مُصطحبان في طريقٍ واحدٍ لا يؤويهُما مؤو ... فالكتابُ وأهلُهُ في ذلك الزمانِ في النّاسِ وليسا فيهم، ومعهُم وليسا معهُم، لأنّ الضَّلالةَ لا تُوافِق الهُدى وإن اجتمعا ». [... ۲۲۷].

وتصور الفقرة الأخيرة من هذا النّص أبلغ تصوير واقع الإنفصال بين الأمّة وبين قيادتها الفكريّة نتيجة لاغترابها الثقافي، وانفصالها- في مجال تكوين المفاهيم والتوجيه- عن أُصولها الفكريّة.

وهذا الإغتراب الثّقافي- الحضاري النّاشئ عن هجر الأصول- وليس عن التّفاعل مع الآخرين- يؤدّي إلى موقف في المنكر والمعروف خطير، فإنّ ثمّة مقياسين للقيم والمثل الأخلاقية. أحدهما المقياس الموضوعي، والآخر المقياس الذّاتي.

المقياس الموضوعي هو الّذي يجعل شريعة المجتمع وعقيدته منبعاً للقيم الأخلاقية ففي مجتمع إسلامي، مثلاً، يكون منبع القيم هو العقيدة والشّريعة الإسلاميتان.

وكذلك الحال فى مجتمع مسيحى مثلاً أو بوذى.

وهذا المقياس يقضى بأن يكون المجتمع ملتزماً بعقيدته وشريعته فى مؤسساته ونظمه وعلاقاته بدرجة تجعله تعبيراً عن تلك العقيدة والشّريعة.

والمقياس الذّاتى هو الّذى يجعل منبع القيم الأخلاقية شخص الإنسان، فالإنسان فى هذه الحالة هو الّذى يخترع أخلاقياته وقيمه الّتى تكيف سلوكه تجاه المجتمع وعلاقاته فى داخل المجتمع، ويستبعد هذا المقياس أى مصدر للقيم خارج الذّات للقيم والأخلاقيات.

قال عليه‌السلام: «أيُّها النّاسُ. إنَّما يَجمَعُ النّاسَ الرِّضَى والسُّخْطُ، وَانَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُل وَاحِد، فَعَمَّهُمُ اللّه بِالعَذابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَى». [۲۲۸].

وقد حذر الإمام بجتمعه فى إحدى استبصاراته نحو المستقبل من وضعية فكرية وثقافية تودّى إالى هجر الأصول الثقافية والفكرية التى تكوّن روح المجتمع الإسلامى وتسمه بطابعه الخاص المميّز له عن سائر التجمعات الثقافية- الحضارية، وتعطيه دوره المميز والخاص فى حركه التاريخ العالمى وبناء الحضارة ... وتؤدى به- نتيجة لاتبثاقه عن أصوله- إلى أن يكون نسخة من ثقافة أُخرى، ووحدة من وحدات حضارة اخرى، وتغدو الاصول الثقافية التى ترجع كلّها الى الكتاب والسنّة مجرّد أشكال يتداولها النّاس دون أن يكون لها دور فى تكوين المفاهيم، وبناء الشخصية، ورسم طريق العمل.

إنّ المسلمين أنفسهم، يومئذٍ سينبذون الكتاب باعتباره مصدراً للمفاهيم الفكريّة،ويتّجهون نحو منابع غريبة عن ثقافتهم وحضارتهم، وعقيدتهم وشريعتهم، وتاريخهم،يستمدّون منها الغذاء العقلى والنفسى، والتوجيه السلوكى.

ونتبّه هنا إلى أنّ الإغتراب الثقافى النّاشئ عن هجر الأُصول- وهو ما حذّر الإمام منه- غير الإنفتاح الثقافى- الحضارى الذى يتولّد من الطموح إلى التّفاعل مع الآخرين واكتشاف صيغهم الحضاريّة والتعرّف على فتوحهم الفكريّة مع الحفاظ على الأصول، والأمانة للذّات ومقوّماتها...

فهذا الإنفتاح أمر مطلوب مرغوب، وقد مارسه المسلمون وكانوا سادة فيه حين أنشأواالحضارة الإسلاميّة العظيمة التى انفتحت على كلّ الإنجازات الخيّرة فى الحضارات الأخرى، فاكتشفوها وكيّفوها وفقاً لقيم الإسلام، ومفاهيم الإسلام، وأخلاقيات الإسلام المستمدة من الكتاب والسّنّة والفقه.

وحينئذٍ يقع التعارض بين عقيدة المجتمع الرّسمية وشريعته، وبين أخلاقيّات وقيم أفراده وفئاته، ففى مجتمع إسلامى، مثلاً، أو مسيحى أو بوذى، لا بّد أن نكتشف- فى حالة شيوع المقياس الذاتى للقيم بين الأفراد- أن التزام المجتمع بعقيدته وشريعته التزام شكلى يرافق الإلحاد العملى.

والأثر الذى يترتب على التزام المقياس الموضوعى للقيم فى المجتمع أو المقياس الذّاتى هام جداً.

أولاً: يؤدّى اعتماد المقياس الموضوعى إلى نمو الفرد دون عُقد وتمزقات داخلية، لأنه يوفّر حالة التّجانس والتّكامل بين محتوى الضّمير والعقل وبين التعبير السّلوكى فى العلاقات مع المجتمع وفى داخله.

أمّا اعتماد المقياس الذّاتى فإنّه يؤدّى إلى خلاف ذلك، لأنّ اتباع المقياس الذّاتى يحدث للفرد تمزقات داخلية وعُقداً فى نفسه، لأنّه يجعله دائماً فى حالة تعارض وتجاذب بين الزام العقيدة والشّريعة وبين رغبات الذّات باعتبارها مصدراً للقيم، ويؤدى ذلك إلى انعكاسات ضارة لا تقتصر على الأفراد، وإنّما تتجاوزهم إلى المجتمع نفسه.

وثانياً: إنّ المقياس الموضوعى بما يوفّره من تجانس فى داخل الفرد بين أخلاقياته من جهة ومعتقده وشريعته من جهة أخرى يؤدى إلى تلاحم واسع النطاق داخل المجتمع، ويكوّن لدى المجتمع نظرة إلى المشكلات، ويؤدّى أيضاً إلى تكوين مواقف واحدة أو متقاربة بين الجماعات تجاه التّحديات الّتى تواجه المجتمع.

أمّا اعتماد المقياس الذّاتى فإنّه يؤدّى إلى العكس من ذلك. إنّه يؤدّى إلى تخلخل البنية الإجتماعية، وتعدّد الفئات ذات المنازع

الفکریّة والسّیاسیّة المختلفة، ویکوّن مناخاً ملائماً لتولّد المشاکل الإجتماعیة وتعاظمها، لأنّ المقیاس الذّاتی لدی الأفراد والجماعات شدید التنوّع والإختلاف.

وهذا التّشرذم یؤدّی: أمّا إلی العجز عن اتخاذ مواقف موحّدة علی الصّعید القومی أو الوطنی نتیجة لتعدّد الإرادات والمیول، وأمّا إلی الإستسلام للدّعایة السّیاسیّة الّتی یخطط لها وینفذها فریق من ذوی الأغراض والغایات الخاصة یخضع عقول الناس لمفاهیمه وقناعاته، ویحملها علی قبول اختیارات قد لا تنسجم مع المصالح الحقیقیة للأمّة، وإنّما تنسجم مع مصالح هذا الفریق الّذی یملک وسائل الدّعایة والإعلان والإعلام، وهذا هو ما یحدث فی العصر الحدیث، ویؤدّی إلی کوارث کبری علی الأصعدة الوطنیة فی بعض الحالات، وعلی الصعید العالمی فی بعض الحالات الأخری، حیث یعرّض سلام العالم کلّه أو سلام قارّة بکاملها لمطامح ومطامع حفنة صغیرة من الناس تکیّف عقول شعوب بکاملها، دافعة بها إلی اتخاذ مواقف سیاسیّة تناقض مصالحها الوطنیة، ومصالح جمیع الشّعوب، وقضیة فلسطین أکبر شاهد علی ما نقول.

لقد نبّه الإمام علیه‌السّلام إلی هذا الخطر، وحذّر منه مجتمعه، فقال: «فیا عجباً، وما لی لا أعجبُ مِن خطإِ هذه الفرقِ علی اختلاف حُججها فی دینها، لا یقتصُّون أثر نبیٍّ، ولا یقتدُون بعملِ وصیٍّ، ولا یؤمنون بغیبٍ، ولا یعفُّون [۲۲۹] عن عیبٍ. یعملُون فی الشُّبُهات ویسیُرون فی الشَّهواتِ. المعروفُ فیهم ما عرفُوا والمُنکر عندهُم ما أنکروا. مفزعُهُم فی المُعضلاتِ إلی أنفُسهم وتعویلُهُم فی المُهمّاتِ علی آرائهم، کأنَّ کُلَّ امرئٍ منهُم إمام نفسهِ، قد أخذَ منها فیما یری بعُریً ثقاتٍ وأسبابٍ مُحکماتٍ». [۲۳۰].

وأخیراً، لقد بلغ من خطورة فریضة الأمر بالمعروف والنّهی عن المنکر عند الإمام علی (ع) أنّه جعلها إحدی وصایاه البارزة الهامّة لابنیهِ الإمامین الحسن والحسین.

وقد تکرّرت هذه الوصیة مرتین. إحداهما لابنه الإمام الحسن فی وصیته الجامعة الّتی کتبها إلیه بحاضرین عند انصرافه من صفّین. والأخری فی وصیته للإمامین الحسن والحسین فی وصیته لهما وهو علی فراش الإستشهاد بعد أن ضربه ابن ملجم المرادی بالسّیف.

قال علیه‌السّلام فی الوصیة الأولی ...: « وأمُر بِالمعرُوفِ تکُن من أهلِهِ، وانکرِ المُنکر بیدک ولِسانِک وباین [۲۳۱] من فعلهُ بجُهدک وجاهد فی اللّه حقَّ جهادِه ولا تأخُذک فی اللّه لومةُ لائم.» [۲۳۲].

وقال علیه‌السّلام فی الوصیة الثّانیة ...: « اُوصیکُما وجمیع ولدی وأهلی ومن بلغهُ کتابی ... وعلیکُم بالتّواصُلِ والتّباذُلِ، وإیّاکُم والتّدابُر والتّقاطُع، لا تترُکُوا الأمر بالمعروفِ والنّهی عن المُنکرِ فیُولی علیکُم شرارُکُم، ثُمَّ تدعُون فلا یُستجابُ لکُم». [۲۳۳].

سلام اللّه علی علیّ فی الخالدین.

التاریخ فی مجال السیاسة

اشاره

تمهید

السّیاسة لدی رجل العقیدة ورجل الدّولة الحاکم القائد- وهو ما کانه أمیرالمؤمنین علی بن أبی‌طالب- أداة للتّغلّب علی سلبیات الماضی والحاضر من أجل التّوصل إلی أوضاع حیاتیة أفضل فی المستقبل لأکبر قدر من النّاس.

والسّیاسة، فی الوقت نفسه، أداة للمحافظة علی إیجابیّات الماضی والحاضر أمام عواصف التغییر والتقلّبات المفاجئة التی قد تحمل للمجتمع السّیاسی فی ثنایاها نذر کارثة.

السّیاسة، إذن، لیست فنّ التغییر فقط، إنّها فنّ الثّبات أیضاً.

إنّ السّیاسی الأمین علی قضیة مجتمعه، یعیش فی أبعاد الزّمان کلّها- ماضیه وحاضره ومستقبله- ویتعامل مع حقائق الماضی، وواقع

الحاضر، وآمال ومخاوف ومطامح المستقبل، يقود، بحذر لا يبلغ الجمود ومغامرة لا تبلغ التّهوّر، مجتمعه نحو آفاق جديدة دون أن يبتر استمراريّته وبعده فى الماضى.

نقول هذا فى مواجهة دعاة التغيير منا فى عصرنا هذا، التغيير الّذى يستهدف استئصال جذورنا لقذفنا فى الفراغ تحت شعار: ريادة المستقبل، جاعلين منا ساحة لتجربة النّظريات والأفكار الّتى توضع فى مراكز الحضارة الحديثة فى أوربّا وأمريكا والإتحاد السّوفياتى.

نقول هذا داعين إلى إعادة النّظرة فى هذا النهج لمصلحة نهج آخر أقلّ غلوّاً، وأكثر واقعية، وأوثق صلة بتكويننا العقيدى والحضارى والثّقافى، وأشدّ مواءمة لمصالحنا فى الحاضر والمستقبل، وأوفق بدورنا الّذى نطمح إلى استعادته لنساهم به فى إنقاذ الإنسان الحديث بتقويم الحضارة الحديثة، وتصحيح مسارها نحو وضعيّة ملائمة لتكوين الإنسان.

لقد كانت سياسة أميرالمؤمنين على (ع)- كما سنرى وجوهاً منها فى الفصول التالية.. محكومة بهاجس واحد كبير ونبيل: تكوين الإنسان المسلم المتكامل القوى السّعيد، والمجتمع المسلم المتكامل القوى السّعيد، الإنسان والمجتمع المؤهلين ليكونا قوة خيّرة فى العالم، يمثلان طموح الإنسانيّة الدّائم المتوهج نحو مثل أعلى.

وقد كانت، لذلك سياسة لا تستمد مقوّماتها من الحفاظ على الذّات وعلى مصالح الحاكم وأُسرته، فلقد كانت أُسرة أميرالمؤمنين على أكثر النّاس حرماناً من خيرات حكمه، وكان هو عليه‌السّلام أكثر حرماناً من أسرته.

وكانت سياسته تستضىء بنور الفكر، وتستهدى تعليم اللّه، وتنفلق من قيم الأخلاق والمناقب الّتى تشرّف الإنسان، ولذا فقد كانت سياسة الإمام إنسانية بكلّ ما لهذه الكلمة من محتوى.

لم تكن أبداً سياسة الأفعال وردود الأفعال، وحسابات الأرباح والخسائر للحاكم وآله وبطانته ... هذه السّياسة التى تحمل روح الطيش والغريزة، وتوجّه بعقليّة مزيج من روح الغاية وروح التّجارة.

وقد كان أميرالمؤمنين على فى سياسته أميناً لعقيدته، أميناً لشريعته، فلا ينحرف عنهما أبداً، ولا يتجاوزهما- كما لا يقصّر عنهما- فى أمر من الأمور أو فى حالة من الحالات.

أميناً لأخلاقيّاته القرآنيّة- النّبويّة، ولذا فقد جعل من العمل السّياسى ممارسة رفيعة للمناقب، أميناً لمجتمعه، فيشركه فى اتخاذ القرارات بعد أن يبصّره بعواقب سوء الإختيار ...: « ولقد أصبحنا فى زمانٍ قد اتخذَ أكثرُ أهلِهِ الغدر كَيساً [۲۳۴] ونسبهُم أهلُ الجهلِ فيهِ إلى حُسنِ الحِيلةِ. ما لهُم! قاتَلهُمُ اللّه! قد يرى الحُوَّلُ القُلَّب [۲۳۵] وجه الحِيلةِ ودُونها مانِع من أمرِ اللّه ونهيِهِ، فيدعُها رأى عينٍ بعد القُدرةِ عليها، وينتهزُ فُرصتها من لا حريجة [۲۳۶] لهُ فى الدِّينِ». [۲۳۷].

وقال فى موقف آخر: «واللّه ما مُعاويةُ بِأدهى مِنّى، ولكِنَّهُ يغدِرُ ويفجُرُ. ولولا كراهِيةُ الغدرِ لكُنتُ مِن أدهى النّاسِ. ولكِن كُلُّ غُدرةٍ فُجّرة، وكُلُّ فُجّرةٍ كُفرة «ولِكُلِّ غادرٍ لِواء يُعرفُ به يوم القيامةِ» [۲۳۸] واللّه ما أُستغفلُ بالمكيدَةِ، ولا أُستغمَزُ [۲۳۹] بالشَّديدةِ». [۲۴۰].

وبعد هذا التمهيد، كيف تعامل أميرالمؤمنين علىّ بن أبى‌طالب مع التّاريخ فى مجال تعليمه السّياسى.

حركة التاريخ فى مظهر التفاعل الإجتماعى الثورى

البشر يتحركون دائماً فى الزّمان والمكان: يبدعون، ويتواصلون بالتّجارة والصداقة تارةً، وبالعداوة والحرب تارةً، وبالفكر دائماً.

ويتعاملون مع الطّبيعة دائماً. يكيّفونها ويتكيّفون معها، ويحبّونها ويهربون منها فى بعض الأحيان.

وهم يواجهون الإخفاق وخيبات الأمل فى حالات، ويسعدون بنشوة النصر فى حالات أخرى. ويشلّهم اليأس عن الحركة فى بعض الحالات، ولكن سرعان ما يؤجّج الأمل فى التّقدم والمستقبل الأفضل فى قلوبهم جذوة الرغبة فى التغيير فيعودون إلى الحركة من جديد.

وهكذا يصنع البشر تاريخهم باستمرار. ينسجونه خيطاً فخيطاً، ويبنونه ذرّةً فذرَّةً من ملايين الآمال الصّغيرة، والمخاوف الصّغيرة،

والأحقاد الصّغيرة، والشّهوات الصّغيرة، الّتى تنكر لهم كلّها وتتراكم فتتكوّن منها عجينة التاريخ.

ولكنها لن تكون تاريخاً ما لم تأخذ قواماً معيناً وما لم تتشكل بهيئة معينة ... ما لم تتضمن فكرة تغيير، وروح تغيير، وعزيمة تغيير، تجعل من آحاد الآمال والمخاوف والأحقاد والشّهوات التى تبلغ الملايين شيئاً واحداً كبيراً تنبض فيه روح واحدة تلفّ بوهجها كلّ المجتمع والجماعة، وتدفع بهم- لا فى طريق الحركات الأحاديّة المبعثرة- فى طريق حركة متدفقة هادرة، تحدوها رؤيا واحدة أو رؤى متقاربة تلتقى على التّغيير. حينئذٍ تنشط حركة التّاريخ الّتى كانت هادئة أو أمينة، وتتعاظم، وتلد الأحداث الكبيرة، وتدخل المجتمع والجماعة فى منعطف من التاريخ جديد.

قد يتمّ هذا التّفاعل فى حال السّلم والإستقرار الإجتماعى فتكون الفترة الزّمنية الّتى يستغرقها التّغيير- بعد فترة الإعداد والإختمار- طويلة نسبيّاً، لأنّ التّغيير التّاريخى يتم فى هذه الحالة وفقاً لمعادلات السّلم والإستقرار الّتى تجعل الإنسان أكثر أناة وتؤدة فى حركته، وأكثر قدرة على الإختيار.

وقد يتمّ هذا التّفاعل فى حال الغليان الإجتماعى والقلق العام. فى هذا الحال تنشأ ظاهرتان: الأولى- ظاهرة رفض وتمرّد فى الجماهير، يغذيها ويؤججها اليأس من العدالة الرّسمية، وينعشها الأمل فى مستقبل أفضل لهذه الجماهير يتوصل إليه دعاة التّغيير.

الثّانية- تقابل الأولى وتتولّد منها، وهى إجراءات القمع التى تلجأ إليها السّلطة الرسميّة من أجل أن تضمن سيادة وثبات نظامها وقيمها.

إنّ هذا القمع يعزز روح اليأس والغضب، ويدفع إلى مزيد من التّمرّد والرّفض، ويرصّ- بدرجة أعلى من الصّلابة والتّماسك- ملايين الآمال والمخاوف والأحقاد والشّهوات، ويؤجج روح الغضب، ويدفع الجماهير، أكثر فأكثر، نحو العنف باتجاه التغيير.

فى هذه الحالة تقصر نسبياً، الفترة الحاسمة الّتى يستغرقها التّغيير- بعد فترة الإعداد والإختمار-.. إنّ الأحداث تتسارع، ويتعاظم حجمها، وتتسع مساحة الفئات الإجتماعية الّتى تشارك فيها، وتتصاعد إلى أن تبلغ الذّروة الّتى ينهار عندها العهد التّاريخى الّذى كان سائداً، ويدخل المجتمع فى منعطف من تاريخه جديد.

إذن البشر لا يتوقفون عن صنع التأريخ، لكنّهم قد يصنعون تاريخهم فى حال السّلم، وقد يصنعونه فى حال الغليان والتّوتّر الإجتماعى، كما قد يصنعونه بالحرب.

وقد لاحظ الإمام على عليه‌السّلام حركة التّاريخ فى مظهرها الثّانى لأنّ الظّروف السّائدة فى مجتمعه كانت تدفع بهذا المجتمع نحو هذا المسار الدّامى فى مواجهة مستقبله المكفهر، الحافل بالأنواء.

لقد تسببت أخطاء الحكم فى عهد الخليفة عثمان بن عفان فى خيبة آمال فئات واسعة من المسلمين وغضبها. كما تسبّبت- إلى جانب ذلك- فى انبعاث كثير من القيم والأخلاق والمطامح الجاهليّة الّتى نَشطت للعمل من خلال ممثليها ورموزها فى قمة السّلطة فى مجالات السّياسة والإقتصاد والإجتماع. وقد أدّى انبعاث هذه القيم الجاهليّة إلى تعارض فى المصالح بين ممثلى هذه القيم وبين أكثرية المسلمين الّذين كانت تغتذى نفوسهم بالآمال الّتى تولدها قيم الإسلام فى العدالة الخالصة والمساواة ... هذا التعارض المأساوى الّذى ما فتئت تغذيه أخطاء الحكم وسياسات الرّموز الجاهلية العائدة، فتعمّقه، وتزيده حدّة، وتدفع به إلى مزيد من الإتساع والإنتشار.

وقد تراكم كلّ ذلك على مدى سنين، واتسع إلى أن شمل حواضر الدّولة كلّها. وأدى فى النّهاية إلى عاقبته الوخيمة وثمرته المرّة: ثورة شارك فيها الأغنياء والفقراء، السّاخطون بلا حقد والحاقدون من علية القوم. وأدّت الثورة إلى مقتل الخليفة عثمان، وإلى دخول المسلمين فى منعطف من تاريخهم جديد طلبوا من على بن أبى‌طالب أن يقودهم فيه، ولكنّه رفض طلبهم، لأنّه أدرك- وهو الراعى للتاريخ وأفاعليه وآلية حركته- أن حجم الحاجات الّتى يفتقر إليها النّاس والآمال الّتى تعمر قلوبهم أكبر بكثير من حجم الإمكانات الّتى توفرها مؤسسات الدّولة، وأن حجم المعوّقات الّتى يمثّلها رموز العهد الماضى وقواه الّتى شلّتها الثورة فاضطرت إلى الإنكماش... حجم هذه المعوّقات كبير وخطير، لأنّها مستشرية فى جميع مراكز السّلطة، وقد قال لهم معلناً رفضه: «دعُونى والتمِسُوا غيرى، فإنَّا مُستقبِلُون أمراً لهُ وجوه وألوان، لا تقُوم لهُ القُلُوبُ، ولا تثبُتُ عليهِ العُقُولُ. [۲۴۱] وإنّ الآفاق قد أغامت، [۲۴۲] والمحجَّة قد تنكَّرت.

[۲۴۳] واعلموا أنی إن أجبتُكم ركِبتُ بِكَم ما أعلمُ، ولم أَصغ إلى قولِ القائلِ وعتبِ العاتبِ، وإن تركتُمُونی فأنا كأحدِكُم، ولعلّی أسمعُكم وأطوعُكم لِمن ولَّيتُمُوهُ أمركُم، وأنا لكُم وزيراً، خير لكُم منّی أميراً». [۲۴۴].

وقد ذكّر الإمام، فيما بعد، بموقفه هذا فی مناسبات كثيرة، منها قوله فی كلام له عند خروج طلحة والزّبير عليه: «فأقبلتُم إلیَّ إقبال العُوذ المطافيلِ على أولادِها، [۲۴۵] تقُولُون: البيعة البيعة!! قبضتُ كفِّی فبسطتُمُوها، ونازعتكُم يدی فجاذبتُمُوها.» [۲۴۶].

ومنها قوله لطلحة والزّبير أيضاً: «واللّه ما كانت لی فی الخِلافةِ رغبة، ولا فی الولايةِ إربة، [۲۴۷] ولكِنَّكُم دعوتُمُونی إليها، وحملتُمُونی عليها ». [... ۲۴۸].

وقال فی موقف آخر ...: « وبسطتُم يدی فكففتُها، ومددتُمُوها فقبضتُها. ثُمَّ تداككتُم علیَّ [۲۴۹] تَداكَّ الإبلِ الهيم [۲۵۰] على حِياضِها يوم وردِها، حتَّى انقطعتِ النَّعلُ، وسقط الرِّداءُ، ووُطئ الضَّعِيفُ، وبلغَ مِن سُرُور النَّاسِ ببيعتهم إيَّای أن ابتهج بها الصَّغيرُ، وهدج إليها الكبيرُ، [۲۵۱] وتحامل نحوها العليلُ، وحسرت [۲۵۲] إليها الكِعابُ». [۲۵۳].

لماذا أبی علیّ بن أبی‌طالب أن يستجيب ؟ ... لعلّه كان يأمل أن يمرّ المجتمع- بعد ما أصاب علاقاته من اهتزاز وتشويه فی العهد الماضی- فی مرحلة انتقال يقوده فيها رجال لا تتألّب عليهم مراكز القوى الجديدة الّتی تمثّل قيم الجاهليّة...

ولكنّ تيّار الرّغبة كان عارماً، كما تعكسه لنا النّصوص الآنفة الذّكر، ولم يكن من الممكن تحويل ولاء الجماهير وثقتها إلى بديل. لقد كان الرّفض يعنی الكارثة، لأنّ القوى الجاهليّة كانت قادرة- إذا استمر الفراغ فی السّلطة- أن تعود من جديد بعد أن تكتّل قواها المبعثرة، وحينئذٍ يحرم المجتمع الإسلامی حتّی من تجربة تكون فی المستقبل نموذجاً وملهماً...

ولا نعدم فی نهج‌البلاغة نصوصاً تضیء هذه المسألة، وتوحی بقوّة أنّ الإمام كان يفكر على هذا النّحو، وذلك كقوله فی كلام له عنونه الشّريف الرّضی ب ... « يبيّن سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحق ...»: « اللّهُمَّ إنَّك تعلمُ أنّهُ لم يكُنِ الّذی كان مِنّا مُنافسةً فی سُلطانٍ، ولا التِماس شیءٍ مِن فُضُول الحُطامِ، ولكن لنردَ المعالمَ من دينك ونُظهر الإصلاح فی بلادك، فيأمنَ المظلُومُون مِن عبادِك، وتُقام المُعطَّلةُ من حُدُودك». [۲۵۴].

وقوله فی كتاب منه إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لمّا ولاه إمارتها ...: « ولكنَّنی آسى [۲۵۵] أن يلی [۲۵۶] أمر هذهِ الأمّةِ سُفهاؤُها وفُجّارُها،فيتّخِذُوا مال اللّه دُولاً وعِبادَهُ خولاً [۲۵۷] والصّالحينَ حرباً، [۲۵۸] والفاسقينَ حزباً ». [... ۲۵۹].

وهكذا استجاب علیّ بن أبی‌طالب للرّغبات الملحّة المتلهفة، فقبل كارهاً- على ما يبدو- أن يتولّی السّلطة ويقود الأمّة. وقد تبلورت وتحددت باستجابته وتولّيه للسّلطة ثلاث قوی سياسيّة- فكريّة، هی:

النّهج الإسلامی الصّافی النّبوی تمثّله السّلطة الشرعيّة (الخلافة) وعلى رأسها أميرالمؤمنين علیّ بن أبی‌طالب (ع).

والهدف الآنی المباشر والملحّ لهذا النهج كان تصحيح الأوضاع السّياسيّة والإداريّة والإقتصاديّة فی المجتمع الإسلامی الّذی يتطلّع بلهفة إلى تغييرات تحقق آماله. كما كان هذا الهدف يستبطن هدفاً آخر هو إعادة الإعتبار النّظری والعملی للمفاهيم والقيم الإسلاميّة.

۲- النهج الجاهلی المموّه بالإسلام: وقد كان هذا النّهج يتمتع بسلطة واسعة وثابتة فی المنطقة السّوريّة. وكانت له جيوب فی الحجاز، والعراق، ومصر، وغيرها من بلاد الإسلام.

وقد بدا منذ اللّحظة الأولى أنّ قائد هذا النّهج هو معاوية بن أبی‌سفيان، والهدف الآنی والنّهائی لهذا النّهج هو تثبيت الأوضاع القديمة، وإجهاض النّهج النّبوی أو قمعه بإثارة المشاكل والفتن فی وجهه.

إنّه الثّورة المضادّة. إنّه قطع الطّريق على حركة التغيير ... وقد عبّر الإمام عن قادة هذا النّهج بأنهم «أرادُوا ردَّ الأمورِ على أدبارِها» وذلك فی كلام له عن أصحاب الجمل: «إنَّ هؤُلاءِ قد تمالأوا [۲۶۰] على سخطةِ [۲۶۱] إمارتی، وسأصبِرُ ما لم أخف على جماعتِكُم، فإنَّهُم إن تمّمُوا على فيالةِ [۲۶۲] هذا الرَّأی انقطع نِظامُ المُسلمِين، وإنَّما طلبُوا هذهِ الدُّنيا حسداً لِمن أفاءها [۲۶۳] اللّه عليهِ، فأرادُوا ردَّ الأُمُورِ على أدبارِها. ولكُم علينا العملُ بكتابِ اللّه، تعالى، وسِيرةِ رسُولِ اللّه (ص)، والقيامُ بِحقِّهِ، والنَّعشُ [۲۶۴] لِسُنَّتِهِ». [۲۶۵].

۳- الموقف المتردد الحائر- إذا صح أن يسمى التّردد موقفاً-

وتمثّل هذا الموقف بعض القيادات الثّانويّة: (سعد بن أبىوقاص، عبداللّه بن عمر.. وآخرون).

هـذا النّهج لم يبلغ من الصـفاء والوعى درجة تحمله على أن ينضوى فى النّهج النبوى وكانت مصالح رجاله من جهة وأثارة من التّقوى فى أنفس بعضـهم من جهـة أخرى، قـد حملتا هؤلاء الرّجال على التزام جانب الحيطـة والحـذر من النهـج الجاهلى فلم ينحازوا إليه فى هذه المرحلة، وإن كان بعضهم قد والى النّهج فى النّهاية.

هؤلاء قال عنهم الإمام (ع): «خذلُوا الحقَّ، ولم ينصُروا الباطِلَ». [۲۶۶].

ولمـا قال له الحارث بن حوط: أتُرانِى أظُنّ أصـحابَ الجملِ كانُوا على ضـلالة؟ قال لهُ الإمامُ: «يا حارِث إنَّك نظرت تحتك ولم تنظُر فوقك فحِرت، [۲۶۷] إنّك لم تعرِفِ الحقَّ فتعرِف من أتاهُ، ولم تعرِفِ الباطِلَ فتعرِفَ من أتاهُ».

فقـال لَه الحـارثُ بنُ حَوط: فـإنّى أعتزلُ مع سـعيدِ بن مالِـك وعبـداللّه بن عُمرَ ... فأجابه الإمامُ قائلًا: «إنَّ سـعيداً وعبـداللهِ بن عُمر لم ينصُروا الحقَّ، ولم يخذُلا الباطِلَ». [۲۶۸].

وكان بعض ممثلى هـذا الموقف يتمتعون باحترام محدود فى قواعدهم القبليّة، وهذا الإحترام لم ينبع من ولاء فكرى بل من ولاء قبلى، كما كانوا يتمتعون باحترام محدود من جماهير المسـلمين نابع من صـحبتهم للنّبىّ (ص) ومن غموض موقفهم من الخيارات المطروحة على السّاحة السّياسيّة.

وقد أدرك الإمام منذ اللّحظة الأولى صـعوبة موقفه، فكشف للأمّة عن أنّ حركة التّاريخ قد عادت ذات نبض جاهلى، فقد عاد التاريخ السابق على النّبوة.. كما صارح الأمة بأنّ المواجهة مع القيم البائدة العائدة تقتضى الحكم بأن يكون قويّاً وصارماً ... كما صارحهم بأنّ الآمال فى تغيير سريع وكامل نحو الأفضل ينبغى أن تتضامن قليلًا ليتاح للسّلطة الشّرعيّة أن تواجه قوى الجاهلية بمرونة.

هـذه الرّؤيـة السّياسـيّة عبّر عنهـا الإمـام فى خطبـة خطبهـا فى أوّل خلافته، فى المدينـة، أو هى- حسب روايـة الجاحظ فى كتابه «البيان والتّبيين» عن أبىعبيـدة معمر بن المثنى- أوّل خطبـة خطبها بالمدينـة، قال فيها حسب روايـة الجاحظ عن أبىعبيدة: «ألا لا يرعينَّ مُرعٍ على نفسهِ [۲۶۹] شُغِلَ منِ الجنَّةُ والنَّارُ أمامهُ. ساعٍ مُجتهِد ينجُو، وطالِب يرجُو، ومُقصِّر فى النَّار »...

اليمينُ والشِّمالُ مضـلَّة، والوُسطى الجادَّةُ [۲۷۰] منهـج عليهِ باقى الكِتابِ والسُّنَّةِ وآثارِ النُّبوةِ. إن اللّه داوى هـذهِ الأُمّـةَ بدوائينِ: السوط والسَّيف، لاـ هوادةَ [۲۷۱] عنـدَ الإمام فيهما. استتِروا فى بُيُوتِكُم [۲۷۲] وأصـلِحُوا ذات بينِكُم، والتَّوبـةُ من ورائكُم. من أبدى صـفحتهُ لِلحقِّ هلكَ [... ۲۷۳] انظُرُوا: فـإن أنكرتُم فـانكرُوا، وإن عرفتُم فآزرِرُوا ... وقلَّما أدبر شـىء فأقبلَ. ولئن رُجِعت إليكُم أمُورُكُم إنّكم لسُعداءُ وإنّى لأخشى أن تكُونُوا فى فترةٍ، وما علينا إلا الإجتهادُ ». [... ۲۷۴].

حذّرهم، أوّلا، من إثارة القلاقل والإضطربات.

ثم أثار فى عقولهم وقلوبهم عقيدة البعث واليوم الآخر.

ثم بيّن لهم أن الإنحراف عن منهج الكتاب والسّنة إلى اليمين أو إلى الشمال يؤدّى بصاحبه إلى الضّلال والتّيه، ولذا فإنّ نبض الجاهلية العائد ضلال.

ثم كشف لهم عن أنّ المرحلة تقتضـى الحكم أن يكون صارماً (السّوط والسّـيف)، ولذا،فإنّ على النّاس ألا يخوضوا فى أىّ شأن يزيد الوضع سوءاً بإثارة العصبيّات القبليّة والنّزعات العشائريّة، داعياً إيّاهم إلى أن يكفّوا ويتوبوا عمّا سلف منهم من إفساد.

ثمّ أعطاهم حق الرّقابة، وطالبهم بحقه فى تأييدهم ومؤازرتهم.

ثم أبـدى تشاؤمه من المسـتقبل وشـكّه فى عودة النهج النّبوى إلى سابق قوّته (قلَّما أدبرَ شـىء فأقبل)، ولكنه، مع ذلك، لم يفقد الأمل فى تحسن الأوضاع، (لئن رُجعت إليكُم أُمُورُكم إنَّكم لسُعداء).

ثمّ حـذرهم من أنّ على الآمال المشـرقة فى التغيير نحو الأحسن ... نحو النّهـج النّبوى الصافى، أن تضامن نفسـها، وأن يعود أصـحابها

إلى شيء من الواقعيّة في تطلعاتهم ...: « وإنّي لأخشى أن تكَونُوا في فترةٍ».

قال ابن أبي‌الحديد في شرح هذه الفترة: «الفترة هي الأزمنة الّتي بين الأنبياء إذا انقطعت الرّسل فيها، كالفترة بين عيسى عليه‌السّلام ومحمّد صلّى اللّه عليه وآله، لأنّه لم يكن بينهما نبي، بخلاف المدّة الّتي كانت بين موسى وعيسى عليهماالسّلام لأنّه بعث فيها أنبياء كثيرون. فيقول عليه‌السّلام: إني لأخشى ألا أتمكن من الحكم بكتاب اللّه تعالى فيكم، فتكونواكالأمم الّذين في أزمنة الفترة لا يرجعون إلى نبي يشافههم بالشّرائع والأحكام. وكأنّه عليه‌السّلام كان يعلم أنّ الأمر سيضطرب عليه.

«ثمّ قال: (وَما علينا إلا الإجتهادُ) يقول: أنا أعمل ما يجب عليّ من الإجتهاد في القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وأمراء الفساد عن المسلمين، فإن تم ما اُريده فذاك، وإلا كنت قد أعذرت». [۲۷۵].

إنّ الإمام عليه‌السّلام قبل الحكم، إذن، بمزيج من التّشاؤم والأمل، ولكن سرعان ما تسرّب الذّبول إلى شعلة الأمل، فإنّ القوى المترددة سرعان ما أخذت تنحاز رويداً رويداً نحو المعسكر المناهض للنّهج النّبوي، إن لم يكن في العلن ففي السّر ... هذا من جهة، ومن جهة أخرى راحت الجماهير الغاضبة، المترعة قلوبها بآمال التّغيير تضغط في سبيل التّغيير دون أن تقدّر ظروف المرحلة. وكان اتباع سياسة متوازنة ضرورة حيويّة لئلا ينفجر المجتمع من الدّاخل بانحياز قوى موالية للنّهج النّبوي، ولكنها غير واعية وغير ناضجة، نحو معسكر الثّورة المضادّة.

وهكذا، فبعد الصّدمة الّتي شلّت قوى الثّورة المضادّة، وبعد فترة الإنتظار الّتي مرّت بها الفئات الأخرى من الأمّة، تفجّر الموقف من جديد، وعاد الغليان إلى المجتمع، وعادت حالة الإختلاط والإضطراب المحمومة.

وظهرت للإمام عليّ في هذه المرحلة الّتي بلغت فيها أزمة الحكم وأزمة الفكر الذّروة- ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تاريخ المستقبل للأمّة الإسلاميّة حافلاً بالأهوال والمآسي، وبكلّ ما فيه من ظلام ودماء، وتمزقات وانهيارات، تتخللها هنا وهناك، في بعض الأحيان، لمعات نور وحالات سلام عارضة، وآمال مضيئة ملهمة، وخيبات أمل قاسية.

لقد رأى، رأى بحدس يضيئه نور نبوّي، وعقل مستوعب لحركة التاريخ وآليتها الّتي تكاد أن تكون رياضيّة- رأى الفتنة آتية بكلّ ظلامها، وحيلها، وتلبيسها الحق بالباطل.

ورأى بعدها انتصار حركة الرّدة بقيمها الجاهليّة، بلبسها للإسلام (لبس الفرو مقلوباً).

ورأى بعد ذلك معاناة الأمة: فسمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الّذين تسحقهم أنيابها الوحشية، ورأى بقلبه الكبير نزيف الدّماء من ضحاياها، وأحسّ بأعمق أعماق كرامته الإنسانية ذلّ الإنسان المسلم في مجتمع الرّدة، وبكى بحرارة ومرارة لكلّ ما سيصيب الناس بعده.

ورأى بعد ذلك نار الثّورة تحرق كلّ شيء، وتهدم كلّ شيء، تستلهم حقّ الناس ومرارتهم ... ولكنها ثورة تقع في أخطاء الفتنة في أحيان، وفي مهاوي الرّدة في أحيان، وقلّما تهتدي الطّريق الوسطى...

ورأى أخيراً، في البعيد البعيد ... بعد طول عذاب وعناء، نور الأمل الآتي في النّهاية ... نور الخلاص.

الفتنة

فتنة: تعبير قرآني يدلّ، حين يسند إلى اللّه تعالى ويصدر عنه، تارة على الإختبار والإمتحان الرّبّاني بالنّعمة، ومن هذا ما ورد في قوله تعالى: «واعلَمُوا أنَّما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنة وأنَّ اللّه عِندهُ أجر عظيم» [۲۷۶] أو يدلّ في موارد أخرى على الإختبار والإمتحان الرّبّاني بالمصاعب والشدائد، ومن هذا ما ورد في قوله تعالى: «أحسِبَ النَّاسُ أن يُتركُوا أن يقُولُوا آمنَّا وهُم لا يُفتنُون. ولقد فتنَّا الّذِين مِن قبلِهم فليعلمَنَّ اللّه الذِينَ صدقُوا وليعلمَنَّ الكاذِبين» [۲۷۷] وهذه الفتن ذات وظيفة تربوية تعزز صلابة المؤمنين، وترفع درجة وعيهم، وتميز عنهم الدّخلاء والمنافقين.

هذا التعبير القرآنى ذو المضمون التربوى الإيجابى، غدا عند الإمام علىّ مصطلحاً سياسيّاً- تاريخيّاً ذا مدلولات متنوعة يتّصل بالحركة التّاريخيّة للمجتمعات فى الحاضر وفى المستقبل.

وهو ذو مدلول سلبى بالنّسبة إلى حركة التّقدّم النّبويّة.

إنّ الفتنة عند الإمام- باعتبارها ظاهرة سياسيّة- معوّق لحركة التّقدّم، ونكسة فى‌سير حركة النبوّة، وهى، والحال هذه، ليست من صنع اللّه تعالى، وإنّما هى من صنع البشر.

قسّم الإمام الفتنة إلى قسمين: أحدهما: الفتنة بالمعنى القرآنى التّربوى، واعتبر أنّ الفتنة بهذا المعنى ذات دور إيجابى، بشرط أن تكون استجابة الإنسان لها بروح إيمانى ملتزم، ووعى أخلاقى مسؤول، ولذا فلا معنى للإستعاذة باللّه من الفتنة بهذا المعنى فإنّ ذلك سخف، لأنّها تلازم طبيعة الحياة ووجود الإنسان، فلا توجد حياة مكتملة دون أن توجد معها فتنة بهذا المعنى.

وثانيهما: الفتنة باعتبارها ظاهرة سياسيّة، وهذه هى الفتنة التى يحذر منها ويستعاذ منها، وهى الّتى أعطاها الإمام فى تعليمه الفكرى مدلولاتها السّياسية-التّاريخية. وسمّاها (مضلات الفتن).

وقد شرح الإمام ذلك بقوله: «لا يقُولَنَّ أحدُكُم: اللّهُم إنِّى أعُوذُ بِك من الفتنَةِ، لأنَّهُ ليس أحَد إلا وهُو مُشتمِل على فِتنةٍ، ولكِن من استعاذ فليستعِذ من مُضلاتِ الفِتنِ، فإن اللّه سُبحانهُ يقُولُ: (واعلمُوا أنما أموالُكُم وأولادُكُم فِتنة)ومعنى ذلِك أنَّهُ سُبحانَهُ يختبِرُ عِبادَهُ بالأَموالِ والأولادِ لِيَتبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرزقِهِ والرَّاضِىَ بقِسمِهِ، وإن كان سُبحانهُ أعلمَ بِهِم مِن أنفُسِهِم، ولكِن لِتظهرَ الأفعالُ التِى بِها يُستَحَقُّ الثَّوابُ والعِقابُ، لأنَّ بعضهُم يُحِبُّ الذُّكُورَ ويكرَهُ الإناثَ، وبعضهُم يُحِبُّ تثمِير المالِ ويكرهُ انثِلامَ الحالِ». [۲۷۸].

وليس من أهداف هذه الدّراسة البحث عن الفتنة باعتبارها مصطلحاً تربويّاً، وإنّما الهدف منها هو البحث عن الفتنة باعتبارها مصطلحاً سياسيّاً- تاريخياً، فلنرَ فيما يأتى تقسيم الإمام لها باعتبارها ظاهرة سياسيّة، وتحليله لآليّة حركتها: كيف تبدأوتنمو وتنتشر، وتوجيهه فى شأن الموقف الّذى ينبغى اتخاذه حين تقع. ولنرَ دور علىّ فى مواجهة الفتنة الّتى بدأت طلائعها فى عهده، وأخيراً رؤيته لفتنة بنى أميّة بعده.

يبدو من تحليل النصوص الّتى اشتمل عليها نهج‌البلاغة بشأن الفتنة والمقارنة بينها أنّ ثمّة ثلاثة أنواع من الفتن:

۱- الفتنة الشّاملة.

۲- الفتنة العارضة.

۳- الفتنة الغالبة.

وهذه التّسميات وضعناها نحن، ولم ترد فى كلمات الإمام علىّ، على ضوء ما لاحظناه عن اتساع المساحة الفكريّة الّتى تطبعها الفتنة بطابعها، وتؤثّر بالتّالى على الوضعيّة السّياسيّة والعلاقات الإجتماعيّة والإنسانيّة داخل المجتمع.

أ- الفتنة الشّاملة:

تكون الفتنة شاملة حين تكون نظاماً فكريّاً يسود مجتمعاً من المجتمعات ذات الحضارة أو البدويّة- الرّعويّة، فالحضارة التى تقوم الحياة فيها على قيم الضّلال فى الفكر والأخلاق والضّياع، وتنبنى مؤسساتها السّياسيّة والإجتماعية على الإعتبارات الّتى تنشأ من هذه القيم، وتحكم المجتمع السّياسى فيها علاقات فاسدة ... هذه الحضارة تكون فتنة شاملة تصل إلى كلّ إنسان، وتنشر ظلالها خارج حدودها. إنّها الجاهلية قديمها وحديثها فى ذلك سواء.

وكذا الحال فيما إذا كان نظام فكرى كهذا يكوّن روح وعقل مجتمع بدوى- رعوى، لم يبلغ مرحلة الحضارة ذات الإنجازات فى مجال التّعامل مع الطّبيعة والمؤسّسات التّنظيميّة.

وقد صور الإمام عليه‌السّلام هذه الفتنة الشّاملة فى حديثه عن حال العالم، والعرب بوجه خاص- قبل بعثة رسول‌اللّه (ص) قال...: « وَأشهدُ أنَّ مُحمّداً عبدُهُ ورَسُولُهُ، أرسلَهُ بالدِّينِ المشهُورِ، والعلَمِ المَأثُورِ، والكِتابِ المسطُورِ ... والنّاسُ فى فتنٍ انجذَمَ [۲۷۹] فِيها حبلُ

الـدِّين، وتزعزعَت سوارِى اليقين [۲۸۰] واختَلَف النَّجرُ [۲۸۱] وتشتَّتَ الأمرُ، وضاقَ المخرجُ، وعمِى المصدرُ، فالهُدى خامِل، والعمى شامِل. عُصِىَ الرَّحمانُ، ونُصِرَ الشَّيطانُ، وخُذِلَ الإيمانُ فانهارت دعائمُهُ وتَنكَّرت معالِمُهُ، ودرسَت سُبُلُهُ [۲۸۲] وعفَت شُرُكُهُ، [۲۸۳] أطاعُوا الشَّيطانَ فسلكُوا مسالِكَهُ ووردُوا مناهِلَهُ، [۲۸۴] بِهِم سارَت أعلامُهُ وقامَ لِواؤُهُ، فى فِتَنٍ داستهُم بِأخفافِها ووطِئتهُم بِأظلافِها [۲۸۵] وقامَت على سنابِكِها، [۲۸۶] فهُم فيها تائهُونَ حائرُون جاهِلُون مفتُونُونَ، فى خيرِ دارٍ وشّرِّ جِيرانٍ. نومُهُم سُهُود، وكُحلُهُم دُمُوع، بِأرضٍ عالِمها مُلجَم، وجاهِلُها مُكرَم». [۲۸۷].

فى هذا النّصّ فصّل الإمام علىّ نظرته إلى نموذج من نماذج الفتنة باعتبارها ظاهرة سياسيّة لمجتمع ما.

والسّمات الّتى تميّز الفتنة الشّاملة فيما يفيده هذا النّصّ هى:

۱- مجتمع لا يحكمه نظام أخلاقى، وخالٍ من الحياة الرّوحيّة السّليمة. وهذا لا ينفى أن يتمتع المجتمع المذكور بنظام سياسى.

وهـذه السّمة يـدلّ عليهـا قول الإمـام «انجـذم فيهـا حبـل الـدّين» فـالمجتمع منقطع الصّلة بـالوحى، ومن ثمّ فهو لا يتمتع بنظام روحى وأخلاقى.

۲- مجتمع تسيطر على أفراده وفئـاته روح الشّـك. ويتبع فيه- فى مجال القيم- المقياس الـذّاتى، لأنّه لا يتمتع بمقياس موضوعى نتيجة لخلوّه من النّظام الأخلاقى والحياة الرّوحيّة.

وهذه السّمة الثّانية يدلّ عليها قول الإمام فى النّصّ الآنف «تزعزعت فيها سوارى اليقين».

۳- مجتمع منقسم على نفسه إلى شيع وأحزاب، تمزقه الصّراعات والنّزاعات وتجعله خالياً من روح التّضامن والتّكافل. ومن ثم فلا توجّه حركته آمال متحدة وهدف أخلاقى كبير، وإنّما توجّهه الرّغبات الفرديّة والفئويّة بسبب عدم وجود نظام أخلاقى من جهة، وانتشار روح الشّك واتباع المقياس الذّاتى فى القيم من جهة أخرى.

وهذه السّمة يدلّ عليها قول الإمام «واختلف النّجر، وتشتّت الأمر، وضاق المخرج وعَمى المصدر »....

هـذه هى السّمات الّتى تميّز الفتنـة الشّاملـة، وتطبع المجتمعات المفتونـة بطابعها. وما جاء من أوصاف للمجتمع فى الفقرات التاليـة من النّصّ الآنف هى نتائج لهـذه السّمات الثّلاث الكبرى: فقـدان النّظام الأخلاقى والحياة الروحيّة/ شيوع روح الشّك واتباع المقياس الذّاتى فى القيم/ الإنقسامات الطبقيّة والفئويّة والعائليّة، وعدم وجود هدف عظيم ونبيل يوجّه حركة المجتمع التاريخيّة.

هذه هى الفتنة الشّاملة.

وتسميتنا لهذه الفتنة ب (الشّاملة) ناشئ من ملاحظة أنّها مستوعبة لكلّ المجتمع بحيث لا يخلو منها أىّ مستوى من مستوياته وأى مظهر من مظاهر الحياة فيه، فهى روحه وعقله: روحه الملهمة، وعقله الموجّه.

ب- الفتنة العارضة:

عثرة تعترض سير المجتمع أثناء حركته التّقدّميّة فتشيع الحيرة والإلتباس فى بعض المواقف، وتعرّض بعض الأشخاص القياديّين وبعض فئات المجتمع لاختبارات حرجة، وتحفّز بعض القيم القديمة للتّعبير عن نفسها، ولكن قوّة انـدفاع المجتمع فى حركته التّقدّميّة، وقوّة المبادئ الّتى تحكم سيره فى قلوب وعقول أفراده- تحول بين الفتنة وبين أن تنتشر وتتعمق وتضرب بجذورها فى ثنايا المجتمع، فسرعان ما ينكشف وجه الحقّ فيها، وتذبل حركتها، ويخفت صوت الدّاعين إليها بين‌الناس، بل يغدون موضعاً للنقد والتّجريح، وتجف الرّوافد الرّجعيّة الّتى تمدّها بالحياة والحركة، ويتعافى المجتمع من نكسته، ويخرج من التّجربة أكثر وعياً ويقظةً.

وقد مرّت على المسلمين فى عهد رسول‌اللّه (ص) بعض الفتن العارضة الّتى تجاوزوها، بتوجيه رسول‌اللّه (ص)، بنجاح، وخرجوا منها دون أن تؤثّر على حركة المجتمع الإسلامى المندفعة إلى الأمام.

ولعلّ أشدّ هذه الفتن العارضة الّتى واجهت المجتمع الإسلامى فى عهد النّبى (ص)خطورة كانت فتنة الإفك، فى سنة ست للهجرة، فى أعقاب غزو رسول‌اللّه (ص) والمسلمين لبنى المصطلق من خزاعة.

وقبل الإفک ما حدث أثناء العودة من الغزوة المذکورة، حین أدّی تزاحم علی الماء فی بعض منازل الطّریق بین أجیر لعمر بن الخطاب من بنی غفار اسمه (جهجاه)، وبین أحد حلفاء الخزرج واسمه (سنان بن وبر الجهنی)، واقتتلا فصرخ حلیف الخزرج: «یا معشر الأنصار» وصرخ أجیر عمر بن الخطاب «یا معشر المهاجرین». ونشط المنافقون، وعلی رأسهم (عبداللّه بن أبی‌سلول)، لاستغلال التّوتّر الّذی ولّده هذا النّزاع البسیط بین المهاجرین والأنصار، وهدّد ابن أبی‌سلول بأنهم إذا عادوا الی المدینة (لیُخرِجنَّ الأعزُّ مِنها الأذلَّ)، وکادت الفتنة أن تجرف کثیرین...

ولکن حکمة رسول‌اللّه (ص) قضت علی الفتنة فی مهدها.

وأنزل اللّه فی شأن هذه الفتنة الصّغیرة العارضة سورة المنافقین (رقم۶۳ فی المصحف) فضح فیها نوایا المنافقین وأسالیبهم، وجعل منها درساً تربویّاً إیمانیّاً وسیاسیّاً للمسلمین عمّق وعیهم، وزاد یقظتهم، وعزّز صلابتهم أمام أسالیب النّفاق.

أمّا فتنة الإفک فکانت أشد خطورة وأوسع انتشاراً.

لقد کانت مرتعاً خصباً للمنافقین یوهنون من خلالها مقام رسول‌اللّه (ص)، ویشوّهون سمعته، ویلقون ظلالاً من الرّیبة علی طهارة بیته، فی مجتمع یقوم علی قیم صارمة فیما یتعلق بالطّهارة الجنسیّة، بما یؤدّی إلیه الهمس الخفی فی شأن کهذا فی مجتمع کهذا من سخریات وظنون والاشاعات تضعف التّأثیر النّفسی لتوجیهات رسول‌اللّه (ص).

وما هو أشد خطورة فی دسّ المنافقین واستغلالهم للإمکانات الّتی یتیحها الإفک، هو أنّ الفتنة أدّت إلی تصدّع تلاحم المسلمین أنفسهم، حیث استغل زعماء قبیلة الأوس تورّط بعض أفراد قبیلة الخزرج فی إشاعة الحدیث عن الإفک،للتّعبیر عن أحقاد قبلیة جاهلیّة تحت ستار الغیرة علی رسول‌اللّه (ص)، والتّمسک بأهداب الدّین.

فقال رئیس الأوس (أسید بن حضیر) مخاطباً رسول‌اللّه (ص) حین وجه عتاباً رقیقاً للّذین روّجوا الإشاعة الکاذبة، دون أن یسمّی أحداً: «یا رسول‌اللّه: إن یکونوا من الأوس نکفکهم، وإن یکونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرک، فو اللّه إنّهم لأهل أن تضرب أعناقهم».

فقال سعد بن عبادة زعیم الخزرج رادّاً علیه: «کذبت لعمر اللّه، لا تضرب أعناقهم. أما واللّه ما قلت هذه المقالة إلا أنّک عرفت أنّهم من الخزرج، ولو کانوا من قومک ما قلت هذا »....

فقال أسید بن حضیر: «کذبت لعمر اللّه، ولکنّک منافق تجادل عن المنافقین »....

وتساور النّاس [۲۸۸] حتی کاد یکون بین هذین الحیین من الأوس والخزرج شرّ. [۲۸۹].

وهکذا وجدت القیم الجاهلیة القدیمة متنفساً تعبّر به عن نفسها من خلال هذه الفتنة متستّرة بشعارات إسلامیّة.

ولکن حکمة رسول‌اللّه (ص)، ووعی المجتمع، ورسوخ المبادئ والقیم الإسلامیّة فی نفوس النّخبة حصرت الفتنة فی نطاق ضیّق، وحالت دون تأثیر فی إحداث تفاعلات سیّئة بالنّسبة إلی حرکة التّقدم النّبویّة. وجاء الوحی بعد ذلک فقضی علی الفتنة، حیث أنزل اللّه تعالی فی هذا الشّأن سورة النّور (السّورة رقم۲۴ فی المصحف) وجعل منها درساً تربویّاً، ومناسبة لسنّ تشریعات تتعلق بالعلاقات بین الجنسین داخل المجتمع الإسلامی، فی نطاق الزّوجیة- من حیث العلاقات الزّوجیّة وغیرها- وخارج الحیاة الزّوجیّة.

هذان نموذجان للفتنة العارضة فی المجتمع الإسلامی فی عهد رسول‌اللّه (ص) وقد واجه المجتمع الإسلامی بعد وفاة الرّسول (ص) فتنة عارضة ذات طابع سیاسی محض هی فتنة السّقیفة.

وقد بدأت هذه الفتنة حین تجاوز بعض کبار الصحابة من المهاجرین والأنصار وصیة رسول‌اللّه (ص) بإسناد الخلافة بعده إلی الإمام علی بن أبی‌طالب، لأنّه کان الشّخصیّة الإسلامیة الوحیدة الّتی تجمّعت فیها المواهب والمؤهلات الّتی جعلتها قادرة علی قیادة الأمّة الإسلامیّة بعد وفاة رسول‌اللّه (ص).

وقد حسم النّزاع علی منصب الخلافة بین المهاجرین والأنصار، فی سقیفة بنی ساعدة، [۲۹۰] بمعزل عن الإمام علی بن أبی‌طالب،

لمصلحة قبيلة قريش، بمبايعة الخليفة الأوّل (أبي‌بكر) على أثر مناورات سياسيّة استخدم فيها منطق قبلي، وكادت تؤدّي إلى انشقاق خطير داخل المجتمع الإسلامي الوليد. [۲۹۱].

وقد كان العامل الأكبر والأبعد أثراً في التّغلّب على فتنة السّقيفة وآثارها الخطيرة هو موقف علي بن أبي‌طالب.

فقد كان الإمام علي بمؤهلاته المتفوقة بشكل مطلق على نخبة الصحابة، وبمواهبه النادرة الفريدة، وبالنّصّ عليه من رسول‌اللّه (ص) خليفة من بعده ... كان لذلك كلّه رجل الشرعية الإسلاميّة الأصيل.

وكان هذا الوضع الحقوقي المؤاتي بالنّسبة إليه يخوّله حق المعارضة، ونقض القرار والإنجاز الّذي اتخذ خارج الشّرعية في اجتماع السّقيفة، سعياً وراء حقه في تسلّم السّلطة.

ولكن هذا الوضع الحقوقي النّظري بالنّسبة إليه، كان يواجه وضعاً اجتماعياً وسياسيّاً واقعيّاً.

فمن ناحية كان المجتمع الاسلامي الوليد لا يزال مجتمعاً هشّاً من حيث التّلاحم الدّاخلي النّاشئ عن العقيدة الواحدة، لأنّ القيم الجاهليّة كانت لا تزال سائدة في الحياة العامّة للقبائل الّتي دخلت في الإسلام في عام الوفود قبل وفاة النّبي (ص) بسنة وأشهر- أو أقل من سنة بالنّسبة إلى إسلام بعض هذه القبائل- وكانت هذه القيم الجاهليّة في أحسن الحالات مستكنّة تحت قشرة رقيقة من الإسلام، وكان لا بدّ من مضيّ وقت طويل قبل أن تذبل هذه القيم الجاهلية وتفقد حرارتها وفاعليّتها.

وفي حالة كهذه كان أيّ عمل سياسي يتّسم بطابع العنف سيؤدّي في الراجح إلى تصدع خطير في بنية المجتمع الإسلامي وتماسكه، وقد يؤدّي إلى ردّة واسعة النّطاق في أوساط حديثي العهد بالإسلام.

ومن ناحية أخرى كان فريق من القبائل قد ارتدّ فعلاً عن الإسلام، واتّبع بعض أدعياء النّبوة، وغدا يشكّل تهديداً حقيقيّاً للإسلام حين انتشرت ظاهرة التّنبّؤ واتّجه قادتها إلى تحالف يوحّد قواهم، فسيطروا على اليمن تقريباً في الجنوب، وعلى مساحات واسعة من الحجاز ونجد في الشّمال.

وقد اتّجه الإمام عليّ إلى المعارضة والإحتجاج أوّل الأمر. ورفض الإعتراف بالنّتيجة الّتي أسفر عنها اجتماع السّقيفة، واعتصم في منزله، وبدا بوضوح أنّ موقفه سيثير تفاعلات خطيرة في وجه اختيار السّقيفة داخل المدينة وخارجها ... ولكنّ الإمام عليّاً سرعان ما واجه الواقع السّياسي والإجتماعي للمجتمع الإسلامي الوليد، والأخطار الّتي ربّما تعرض لها الإسلام نفسه نتيجة لهذا الموقف.

ولو لم يكن عليّ بن أبي‌طالب رجل العقيدة الأوّل، ورجل الرّسالة الأوّل، الأكثر وعياً والأعظم شعوراً بالمسؤوليّة، لما ألقى بالاً إلى الواقع السّياسي والإجتماعي للإسلام، ولمضى في معارضته إلى نهايتها، مستغلاً الواقع السّياسي والإجتماعي في سبيل نجاح مسعاه للوصول إلى السّلطة.

ولكنّه كان بالفعل رجل العقيدة الأوّل، ورجل الرّسالة الأوّل، وأعظم المسلمين إطلاقاً شعوراً بالمسؤوليّة تجاه الإسلام، وأعظمهم حرصاً على ازدهاره وانتشاره وتعمقه في العقول والقلوب.

ومن المؤكّد أنّ الحكم عنده لم يكن مطلباً شخصياً، بل وسيلة إلى بلوغ غاية تتجاوز الأشخاص والأجيال والمصالح الخاصّة لتعمّ وتشمل ما بقي من عمر الدّنيا، وما تضمره القرون المقبلة من أجيال في كلّ الأوطان وفي كلّ الأمم.

إنّ عليّاً، بعد رسول‌اللّه (ص)- كان أب الإسلام. وقد تصرّف تصرّف الأب الحريص، فتحمّل بصبر جميل نبيل جراحه الشّخصية وحرمانه في سبيل قضيّة حياته الكبرى، قضيّة الإسلام.

ولا شكّ في أنّ جميع المسلمين كانوا يعرفون هذه الحقائق في شخصيّة وضمير الإمام عليّ، ويبدو أنّ منافسيه السّياسيّين قاموا بمغامرتهم النّاجحة [۲۹۲] معتمدين على جملة معطيات من جملتها ثقتهم بأنّ الإمام سيقدّم مصلحة الإسلام العليا على مصالحه الخاصّة.

لقد أشار الإمام في كتاب له بعث به إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لمّا ولّاه إمارتها، إلى العامل السّياسي الّذي حال دون مضيه في

المعارضة، فقال ...: « فأمسكتُ يدِى [۲۹۳] حتَّى رأيتُ راجِعةَ النّاسِ [۲۹۴] قد رجعت عنِ الإسلامِ، يدعُونَ إلى محقِ دِينِ مُحمَّدٍ (ص)، فخشِيتُ إن لم أنصُرِ الإسلام وأهلهُ أن أرى فِيه ثلماً [۲۹۵] أو هدماً تكُونُ المُصِيبةُ بِهِ علىَّ أعظَمَ مِن فوتِ ولايتِكُمُ التى إنَّما هىَ متاعُ أيَّامٍ قلائلَ يزُول مِنهَا ما كانَ كمَا يزُولُ السَّرابُ، أو كما يتقشَّعُ السَّحابُ فنهضتُ فى تِلك الأحداثِ حتَّى زاح [۲۹۶] الباطِلُ وزَهقَ، [۲۹۷] واطمأنَّ الدِّينُ وتنهنه». [۲۹۸] [۲۹۹].

وقد خيّب موقفه المبدئى الرّسالى آمال كثيرين ممّن كان إسلامهم موضع شكّ أو كانوا مسلمين مخلصين ولكنهم ينظرون إلى مسألة الحكم من زاوية المصالح القبليّة والعائليّة نتيجة لافتقارهم إلى النّضج والوعى.

وقد حاول بعض هؤلاء أن يحملوه على تغيير موقفه المبدئى الرّسالى، ولكنه رفض محاولاتهم، مصرّحاً بأنّ الموقف موقف فتنة، داعياً، إلى النّظر فى الموقف وفقاً لمقياس عقيدى إسلامى مبدئى، والإبتعاد عن المنظور الجاهلى القبلى الّذى بدت سماته فى تلك المحاولات.

وقد صرّح بذلك فى مواقف كثيرة، منها قوله مخاطباً الناس حين دعاه أبوسفيان بن حرب والعبّاس بن عبد المطلب إلى أن يبايعا له بالخلافة: «أيُّها النّاسُ، شُقُّوا أمواجَ الفِتنِ بِسُفُنِ النَّجاةِ، وعرِّجُوا عن طرِيقِ المُنافرةِ [۳۰۰] وضعُوا تِيجانَ المُفاخرةِ. أفلحَ من نهض بِجناحٍ، أو استسلم فأراح. هذا ماء آجِن، [۳۰۱] ولُقمَةٌ يغصُّ بِها آكِلُها. ومُجتنِى الثَّمرةِ لِغيرِ إيناعِها [۳۰۲] كالزَّارِعِ بِغيرِ أرضِهِ». [۳۰۳].

والسّمات الّتى تميّز الفتنة العارضة، فيما نستفيده من جملة ما ورد عن الإمام علىّ فى هذا الشّأن، ومن الدّراسة التّاريخيّة ...، أربع:

۱- تتولّد أزمة سياسيّة، قد تكون بسبب أحداث صغيرة، تكون غالباً غير مخطّط لها بل عرضيّة، ولكن سرعان ما تدخلها بعض القوى الإجتماعية ذات الأهداف السّريّة المخالفة لنظام المجتمع فى نطاق خططها للإستفادة منها ومن تلك الأزمة السّياسيّة، فى سبيل الوصول إلى أهدافها.

وقد تتولّد الأزمة السّياسيّة بسبب أحداث ذات شأن كبير ومخطّط لها- كما حدث فى السّقيفة- ولكن الجماعات الّتى تصنع الحدث لا تستثمره لأهداف مخالفة لنظام المجتمع العام والسّائد، بل تكون عازمة على الإنسجام مع نظام المجتمع، ساعية إلى تعزيزه وفقاً لفهمها الخاص، عاملة على أن يكون ذلك من خلال سلطتها هى.

۲- فى الحالتين الآنفتين تحرّك الفتنة العارضة بعض القيم القديمة الّتى قضى عليها النّظام الجديد، إمّا بسبب ضعف رقابة النظام لانشغال أجهزته بالمشكلات السّياسيّة الآنية، أو بسبب التسامح مع بعض القوى السّياسيّة غير الواعية لأجل كسب ولائها فى الصّراع السّياسى الدّائر. ولكن هذه القيم القديمة، فى جميع الحالات، لا تعود سافرة صريحة، إنّما تعود مموّهة بشعارات جديدة.

۳- (فى الغالب) تتولّد الأحداث الّتى تكوّن مناخ الفتنة من مشكلات يثيرها أشخاص عاديون أو ذوو قيمة ثانويّة فى السلم الإجتماعى، كما أنها تقع على أشخاص من هذا القبيل كما هو الحال فى فتنة النّزاع على الماء بين الغفارى والجهنى، ولكن علاقات الدّم والصّداقة والمصالح والمطامح سرعان ما (تسيّس) الأحداث وتستغلها. وقد يحدث أن تتولّد الأحداث من مشكلات يثيرها أشخاص ذوو شأن كبير فى المجتمع أو تصيب هذه الأحداث أشخاصاً من هذا النّوع، كما هو الحال فى حادثة الإفك وفى أحداث السّقيفة.

۴- تواجه القيادة الحقيقيّة الشّرعيّة هذه الفتنة بسياسة تتّسم بالهدوء، وروح المسؤولية العالية، وتتجنب اتّخاذ أيّة إجراءات أو مواقف انفعالية وانتقامية، لما يؤدّى إليه ذلك من عواقب خطيرة تزيد الموقف تعقيداً والفتنة استحكاماً، وتتيح للقوى الخفيّة المعادية للنّظام (المنافقون، مثلاً فى المجتمع الإسلامى) أن تستغل الوضع الطّارئ لتحقيق أهدافها (لاحظ السّمة رقم)۱.

وبدلاً من مواجهة أحداث الفتنة العارضة بالعنف والإنفعال، تحرص القيادة على مواجهتها بأسلوب يعطى الأولويّة فى الحل لمصلحة القضايا المبدئيّة والعامّة، لا للجانب الشّخصى والعائلى.

هذه هى، فيما نرى، أبرز سمات الفتنة العارضة.

ج- الفتنة الغالبة

هذا النوع الثّالث من أنواع الفتنة، هو، كما يدلّ عليه الوصف الّذى اخترناه له، دون الفتنة الشّاملة، وفوق الفتنة العارضة.

وقد تنشأ الفتنة الغالبة من تدهور سياسى عقيدى- تشريعى كبير يحلّ بالمجتمع أثناء حركته الإنبعاثيّة، أو بعد بلوغه الذّروة.

كما قد تنشأ من فتنة عارضة تهمل القيادة جانب الحكمة فى مواجهتها، أو تغفل عنه، فتتعاظم عثرة المجتمع، وتتغذّى الحالة الإنحرافيّة بالتّناقضات المستكنّة فى أعماق التّركيب الإجتماعى، كما أنّها تتغذى بالقيم القديمة الّتى أجبرها النّظام الجديد على أن تنسحب من دائرة العمليات الإجتماعيّة إلى الظّلام.

وتفشل النّخبة فى علاج العثرة بسب عجز هذه النّخبة، أو بسبب تناحر أجنحتها وانحياز بعض الأجنحة إلى خط الإنحراف.

وعامل الزّمن فى مصلحة الإنحراف، فكلّما مضى على الإنحراف يوم دون أن يوضع له حد ودون أن يقوّم، يزداد رسوخاً وتمكّناً، ويستوعب مساحة جديدة من المجتمع،ويكوّن لدى مزيد من النّاس قناعات فى صالحه بينما تزداد النّخبة عجزاً، وعزلةً، وتفقد مزيداً من مواقعها.

وقبل مضىّ زمن طويل على الإنحراف الّذى أنشب مخالبه فى كيان المجتمع، وفشلت النّخبة فى القضاء عليه- يشيع هذا الإنحراف، ويطبع كثيراً من أوجه الحياة، ويغدو عرفاً أو قانوناً أو سنّة متبعة، تحميه وتصونه قناعات تتأصل فى الثّقافة، وتغدو جزءاً من تكوين المجتمع الثّقافى.

قلنا: إنّ هذا يحدث قبل مضىّ زمن طويل على حدوث الإنحراف، لأن الإنحراف عادة يكون إلى جانب اليسر والسهولة والحياة الهيّنة وهذا ما يغرى بالإتباع لأنه أوفق بهوى النفوس، وأبعد عن التّبعة والتّضحية.

ولكن الإنحراف (الفتنة) لا يبلغ درجة الشّمول واستيعاب كلّ مؤسسات المجتمع، ولا يستطيع أن يغيّر بنيته الثّقافية من جميع وجوهها، ولا يقدر على أن يستوعب فى مفاهيمه وقيمه الجديدة المبتدعة أو القديمة المحياة- كلّ الفئات الإجتماعيّة، ومن ثمّ فهو لا يستطيع أن يقضى نهائياً على حركة المجتمع التّقدميّة. إنّه يعوّقها ولكنّه لا يعطّلها، يشوّهها ولا يمسخها، إنّه لا يبلغ درجة الفتنة الشّاملة، وإنّما يكون فتنة غالبة.

تبقى مع الإنحراف الغالب روح الطّهارة والأصالة شائعة فى المجتمع بوجه عام،تغذى حركته التّقدميّة فى أكثر من وجه من وجوه حياته ونشاطاته، وإن كانت هذه الرّوح تتعرّض دائماً للنّكسات بالنّسبة إلى عامّة المجتمع، ولكنّها تبقى على وهجها الكامل وفاعليّتها الكاملة فى جماعات قد تكون محدودة وصغيرة، منبثّة فى ثنايا المجتمع سلمت من الإنحراف فلم ينل منها شيئاً، وبقيت ثابتة على الصّراط المستقيم.

هذه الجماعات الأصيلة الطّاهرة هى طليعة الكفاح ضدّ الفتنة الغالبة فى داخل المجتمع.. هى الّتى تحول بين الفتنة وبين أن تستوعب كلّ المجتمع وتغدو شاملة، وهى الّتى بكفاحها الدّائب الصّبور تحول بين الفتنة وبين التمكّن والإستقرار، وتجعلها فى حالة حرب مستمرة.

ومن هنا فإنّ المجتمع فى حالة الفتنة الشّاملة يتمتع باستقرار وثبات نتيجة لتناغم المؤسسات مع القيم مع القناعات الشّعبيّة مع الثّقافة العامّة، فهذه كلّها تتكامل وتتساند، وتتوفّر نتيجة لذلک حالة من التّوازن توفّر بدورها استقراراً وثباتاً.

أمّا فى الفتنة الغالبة فإنّ الأمر على خلاف ذلک، لأنّه يوجد تنافر قليل أو كثير بين المؤسسات والقيم والقناعات والثّقافة، وهذا يؤدّى إلى أن يعانى المجتمع باستمرار من القلق والفوران والتمزّق، نتيجة لوجود القوى المناهضة للفتنة، هذه القوى الّتى تضطرّ حركتها الأصيلة المناهضة نظام الفتنة إلى أن يتحرّک ضدّها.

والفتنة الغالبة، فى عالم الإسلام، هى الفتنة الّتى استفحلت فى آخر عهد الخليفة عثمان بن عفان، وقاد الإمام على بن أبى‌طالب حركة التّصدّى لها طيلة السّنىّ الأخيرة من حياته ... واستمرت بعد استشهاده، وزادت ضراوة وعنفاً حين فترت الهمم وتقاعست العزائم عن التّصدّى الفعّال لها، فانتصرت وسادت- قبل عهد الثّورات- حركة الرّدّة.

ومن هنا فقد كثر كلام الإمام على عن هذه الفتنة من جميع وجوهها: نعرض أسباب وبدايات حدوثها، وآليّة حركتها، والموقف منها.

أ- كيف تبدأ الفتنة؟

قال عليه‌السلام: «إنّما بدءُ وُقُوعِ الفِتَن أهواء تُتَّبَعُ، وأحكام تُبتدَعُ، يُخالَفُ فيهَا كِتابُ اللّه، ويتولَّى عليها رِجال رِجالاً على غير دينِ اللّه. فلو أنَّ الباطِلَ خلصَ مِن مزاجِ الحقِّ لم يخفَ على المُرتادِين [۳۰۴] ولو أنَّ الحقَّ خلصَ مِن لبسِ الباطِلِ انقطعت عنهُ ألسُنُ المُعانـدينَ [۳۰۵] ولكِن يُؤخذُ مِن هذا ضِغث [۳۰۶] وَمِنْ هذا ضِغْث فيُمزجانِ فهُنالك يَستَولى الشَّيطانُ على أوليائِهِ. وينجُو (الَّذِينَ سبقت لهُم مِنا الحُسنى)» [۳۰۷] [۳۰۸].

هـذا النّصّ يكشف عن عاملين يكوّنان الفتنـة الغالبـة: أحـدهما: تغليب المقياس الذّاتى فى القيم على المقياس الموضوعى «أهواء تتبع» فبـدلاً من أن يكون المرجع فى القيم النّظام العقيـدى والتّشـريعى للمجتمع، يتجاوز رواد الفتنـة هذا النّظام فيرجعون إلى النّوازع الذّاتيّة والعاطفيّة والمصـلحية فتكون هى المقياس بالمعتمـد وهو المرجع الأخير فى القيم والسّلوك، وعلى ضوء ما تمليه تتخـذ المواقف من الأحداث والأشخاص.

ثانيهمـا: سـقوط القـانون وانتهاك حرمته على الصّعيد العملى ...: « وأحكام تبتـدع يخالف فيها كتاب اللّه»، وتغلّب العامل الشخصـى بالإحتيـال على الشّرعية القانونيّة الّتى يحتفـظ لهـا المفتونون بالإحترام النّظرى، ويتظـاهرون بتطبيقهـا، بينمـا هى على الصّعيد العملى تنتهك كلّما تمكن الأقوياء من انتهاكها.

هذان العاملان: سـقوط المقياس الموضوعى فى القيم على صـعيد الأخلاق والعلاقات الإجتماعية والسّياسيّة، وسقوط الشّرعية القانونيّة على صعيد المؤسسات العامّة والعلاقات والوضعيّة السّياسيّة والإقتصاديّة والإجتماعيّة ... هذان العاملان هما جوهر الفتنة الغالبة.

ويحـدث حينئـذٍ أن تتكوّن القناعات الموالية للفتنـة الغالبـة لدى فئات اجتماعيّة جديدة ...: « ويتولّى عليها رجال رجالاً على غير دين اللّه» يتعزّز بها موقع الإنحراف فى المجتمع، ويعمّق رسوخه فى القلوب والعقول، ويتسع مداه فيشمل مساحات جديدة من الحياة.

ولكنّ الفتنـة- كمـا ذكرنـا آنفـاً- لا تبلغ درجـة الشّـمول، بل يبقى للحقّ فى المجتمع سـلطان، ويبقى للشّـرعيّة فى المجتمع أعوان، هم «الّذِينَ سبقت لهُم مِنّا الحُسنى» وهم الّذين يقودون حركة الكفاح ضدّ الباطل والفتنة من أجل الحقّ الخالص الّذى لا يلتبس بالباطل.

ب- كيف تتحرّك الفتنة وتنمو؟

ويصف الإمام فى نصّ آخر كيف تبـدأ الفتنة، ويصوّر آليّة حركتها وانتشارها فى المجتمع، وذلك فى سياق وصـفه للفتنة الغالبة الّتى كـانت نـذرها تطـلّ على المجتمع الإسـلامى فى عهـده ...: « ثُمَّ إنَّكُم معشَرَ العربِ أغراضُ بلايـا قـدِ اقـتربَت، فـاتَّقُوا سـكراتِ النِّعمَةِ واحـذرُوا بوائقَ النقمةِ، [۳۰۹] وتثبَّتُوا فى قتـام العِشوةِ [۳۱۰] واعوجاجِ الفِتنـةِ عنـدَ طُلُوع جنينها، وظُهُورِ كمينها، وانتِصابِ قُطبِها ومدارِ رَحاهـا. تبـدأُ فى مـدارجَ خفيَّةٍ، وتؤُولُ إلى فظاعـةٍ جليَّةٍ. شِبَـابُها كشِبَـابِ الغُلام، [۳۱۱] وآثارُهـا كآثـارِ السَّلام [۳۱۲] يتوارثُهـا الظَّلمَةُ بِالعُهُودِ، أوَّلُهُم قائـد لآخِرِهِم، وآخِرُهُم مُقتـدٍ بِأوَّلِهِم. يتنافَسُون فى دُنيا دنِيَّةٍ، ويتكالبُون على جِيفةٍ مُريحَةٍ. [۳۱۳] وعن قلِيلٍ يتبرَّأُ التَّابعُ مِن المتبُوع، والقائدُ من المقُودِ، فيتزايلُونَ بِالبَغضاءِ [۳۱۴] ويتلاعنُونَ عِندَ اللِّقاءِ». [۳۱۵].

فى هذا النّصّ صورّ الإمام آليّة حركة الفتنة، ونموّها وانتشارها فى المجتمع، فأبرز الملامح التّالية:

۱- إنّ شـيوع روح التّرف فى المجتمع، واسـتغراق النّخبـة فى التّرف يؤدّيان بالمجتمع إلى أن يفقـد روحه النّضاليّة الرّساليّة، ويحرص على حياته الهيّنة النّاعمة، وعلى توفير الوسائل الملائمة لبلوغ مستوى من الحياة أكثر نعومة ولیناً.

كما أنّ النّخبة فى هذه الحالة تصاب بالتّرهّل والعجز والجبن.

وشيوع هذه الرّوح، روح التّرف، فى مجتمع لا يزال فى مرحلة تكوين نفسه، ومحاط بالقوى المضادّة الخائفة، ويحتوى تركيبه الدّاخلى على نقاط ضـعف ناشـئة من كونه يضم جماعات لم تتمثّل بعد بدرجة مرضـيّة وعميقة رسالته الّتى يعتنقها ويبشـر بها - ... شيوع هذه الرّوح فى مجتمع كهذا- وهو ما كانه المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين- يجعله مهيّأً لنموّ روح الفتنة فيه وانتشارها.

لقد حذّر الإمام من هذا بقوله: (احذروا سكرات النّعمة)....

۲- تقع فى الحياة العامّة أحداث، أو يواجه المجتمع حالات معينة، تسبّب هذه أو تلك التباساً فى طريقة التّعامل مع بعض المفاهيم الرّساليّة ومفاهيم المعتقد على ضوء الواقع الّذى حصل (مثلاً: التّغيّرات الّتى نشأت نتيجة لتوسّع حركة الفتح فى إيران والمستعمرات البيزنطيّة ... والإحتكاك بالحضارتين الإيرانيّة، والرّومانية- الشّرقيّة..- أو الحيرة الّتى نشأت نتيجة لمقتل الخليفة عثمان بن عفان...) فى هذه الحالات قد تتخذ النّخبة أو القيادة السّياسيّة للمجتمع قرارات مرتجلة، وتخضع لآليّة الفعل ورد الفعل، بعيداً عن التروّى مثلاً: كالّذى حدث عند مطالبة الإمام علىّ بعد البيعة فوراً بأن يقبض على المتهمين بقتل عثمان ويعاقبهم، فقد قال له قوم من الصّحابة: لو عاقبت قوماً ممن أجلب [۳۱۶] على عثمان؟ فقد أجابهم الإمام جواب رجل الدّولة المسؤول النّاظر إلى عواقب الأمور، البعيد عن الإنفعال: «يَا إخوَتاهُ! إنِّى لستُ أجهلُ ما تعلمُونَ، ولكِن كيف لى بِقُوةٍ والقومُ المُجلبُون على حدِّ شوكتِهِم [۳۱۷] يملِكُوننا ولا نملِكُهُم! وها هُم هؤُلاء قد ثارت معهُم عبدانُكُم، والتفَّت إليهم أعرابُكُم [۳۱۸] وهُم خِلالَكم [۳۱۹] يسُومُونكُم ما شاؤوا [۳۲۰] وهل ترون موضِعاً لِقُدرةٍ على شىءٍ تُريدُونهُ! إنّ هذا الأمر أمرُ جاهليَّةٍ، وإنَّ لهؤُلاء القوم مادَّةً. [۳۲۱] إنَّ النَّاس من هذا الأمرِ إذا حُرِّك على أُمُورٍ: فِرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترونَ، وفِرقة لا ترى هذا ولا ذاك. فاصبِرُوا حتَّى يهدأ النَّاسُ، وتقع القُلُوبُ مواقِعها [۳۲۲] وتُؤخذَ الحُقُوقُ مسمحَةً. [۳۲۳].

«فاهدأُوا عنّى، وانظُرُوا ماذا يأتيكُم بِهِ أمرى، ولا تفعلُوا فعلَةً تُضعضِعُ قُوةً، وتُسقِطُ مُنَّةً، [۳۲۴] وتُورِثُ وهناً وذِلّةً. وسأُمسِكُ الأمر ما استمسك، وإذا لم أجِد بُدَّا فآخِرُ الدَّواءِ الكىُّ». [۳۲۵].

وهكذا نرى الإمام يطلب إلى هؤلاء المتعجّلين أن يلزموا جانب التّروّى، وأن يتركوا له اتّخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب، وألا يخضعوا لمنطق الفعل وردّ الفعل لأنّ هذا يؤدّى إلى التباس فى المفاهيم، وتخبّط فى المواقف،وأخطاء فى القرارات تجعل المناخ العام أكثر ملاءمة لروح الفتنة. وقد أشار الإمام إلى ذلك بقوله: «وتثبتوا فى قتام العشوة »....

۳- حين يتهيّأ المناخ الملائم نتيجة للعاملين الآنفى الذّكر تبدأ الفتنة بظواهر انحرافية بسيطة وهيّنة، يقابلها المجتمع بوجه عام، ونخبته السّياسيّة والفكريّة بوجه خاص، بالتّسامح واللامبالاة، وهذا ما يوفّر لهذه الظّواهر الإنحرافية مناخ الأمان وفرص الإتساع والنّمو. وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله: «تبدأ فى مدارجَ خفيّة، وتؤول إلى فظاعة جليّة».

۴- وعلى خلاف وضع الفتنة حين تبدأ خفيّة حيّة، تلوذ وراء المبرّرات وتغطى نفسها بشعارات خادعة، فإنّها حين تنمو وتتسع «وتؤول إلى فظاعة جليّة» يكون لها عنفوان وتسلّط وبطش، وتبدأ بطبع آثارها العميقة فى بنية المجتمع، وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله: «شِبابها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السّلام».

۵- بعد انتشار الفتنة، واتساع المساحات الّتى تستوعبها من فئات المجتمع، تكوّن قناعات تجعلها أشدّ رسوخاً فى الذّهنيّة العامّة، وتغدو ثقافة شائعة ترتكز إليها السّلطة الّتى تقود حركة الفتنة، وتوجّه المجتمع وفقاً لقوانينها، وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله: «يتوارثها الظلمة بالعهود، أوّلهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأوّلهم »....

۶- ولكن الوضع السّياسى لقادة الفتنة- بعد انتشارها، وتأصّلها فى بنية المجتمع- لا يبقى موحداً ومتلاحماً، وإنّما تبرز التّناقضات والسّمات الشّخصية لكلّ فئة، والمطامع والمخاوف الخاصّة بكلّ جماعة. وحينئذٍ تنقسم قيادة الفتنة إلى فئات متخاصمة متناحرة، وتجرّ المجتمع وراءها إلى التّخاصم والتّناحر والحروب الأهليّة، وهذا ما عبّر عنه الإمام بقوله ...: « وعن قليل يتبرّأ التّابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللّقاء».

وهذا نص يصرّح فيه الإمام لأصحابه بما ينتظرهم من الفتنة وويلاتها من بعده، محملاً إيّاهم مسؤوليّة نشوء الفتنة وانتشارها وما يترتّب على ذلك من شرور، لأنّهم كانوا سلبيّين أمام مظاهر تسرّب روح الفتنة إلى مجتمعهم السّياسى وبنيتهم الثّقافيّة، وهذا ما وفّر للفتنة أجواء النّموّ والإنتشار، وكانوا متخاذلين، مهملين لواجبهم، لم يتحمّلوا مسؤوليّتهم فى نصرة قضيتهم، وحماية نظامهم الشّرعى العادل:

«أيُّها النَّاسُ، لو لم تتخاذلُوا عن نصرِ الحقِّ، ولم تهِنُوا عن توهينِ الباطِلِ، لم يطمع فيكَم من ليس مِثلكَم، ولم يقوَ مَن قوىَ عليكَم. لكِنَّكُم تهتُم متاه بنى إسرائيلَ، ولعمرى ليُضعَّفنَّ لكُمُ التِّيهُ مِن بعدى أضعافاً، بِما خلَّفتُمُ الحقَّ وراء ظُهُورِكُم، وقطعتُمُ الأدنى ووصلتُمُ الأبعدَ » [... ۳۲۶].

ج- ما موقف المسلم من الفتنة حين تبدأ؟

ما موقف المسلم من الفتنة حين يذّر قرنها؟

فى الفتنة- كما رأينا- يختلط الحّق بالباطل، ويلتبس الصّواب بالخطأ، فلا يتميّز أحدهما من الآخر.

وفى هذه الحالة يكون الموقف الأسلم والأوفق بالشرع هو الإبتعاد عن الفتنة والإمتناع عن المشاركة مع هذا الطرف أو ذاك، إذ لا يأمن المشارك من أن يقع فى الباطل وهو يرى أنّه ينصر الحق، أو يحارب الحق وهو يرى أنّه يحارب الباطل.

وهذا هو الموقف الّذى نصح الإمام بالتزامه حين تقع الفتنة، ويلتبس فيها الحقّ بالباطل، فقد قال: «كُن فى الفِتنَةِ كابنِ اللَّبُونِ. لا ظهر فيُركبَ، ولا ضرع فيُحلبَ». [۳۲۷].

ولكن هذا الموقف يكون صواباً حين لا يكون الإمام العادل موجوداً، ولا يتاح للمسلم أن يتبيّن الحقّ من الباطل فى الأحداث والمواقف الّتى تجرى أمامه، أمّا حين يكون الإمام العادل موجوداً، ويتّخذ من الفتنة موقفاً، فإنّ على المسلم أن ينسجم فى مواقفه مع مواقف الإمام العادل، وليس له أن يبقى على السّلبيّة متذرّعاً بأنّه يخشى الوقوع فى الباطل، وإنّما يكون موقفه هذا، فى هذه الحالة، جبناً وخذلاناً للحقّ، بل إنّه يكون، من بعض الوجوه، خيانة ومساهمة فى الفتنة، لأنّه بسلبيّته غير المبرّرة قد يضلّل آخرين يجدون فى سلبيّته تبريراً لمواقفهم.

وقد واجه الإمام أثناء فترة حكمه العاصفة مثل هذه المواقف الجبانة السلبيّة الخائنة من قبل بعض القيادات فى مجتمعه تجاه الفتنة الّتى أثارتها قوى الثّورة المضادّة، فقال مرّة يخاطب النّاس: «أيُّها النَّاسُ، ألقُوا هذِهِ الأزِمَّةَ [۳۲۸] الَّتِى تحمِلُ ظُهُورُها الأثقالَ مِن أيدِيكُم، ولا تصدَّعُوا [۳۲۹] على سُلطانِكُم، فتذُمُّوا غِبَّ فِعالِكُم [۳۳۰] ولا تقتحِمُوا ما استقبلتُم مِن فور نارِ الفِتنةِ، [۳۳۱] وأميطُوا عن سننِهَا [۳۳۲] وخلُّوا قصد السّبيلِ لها، [۳۳۳] فقد لعمرى يهلِكُ فى لهبها المُؤمِنُ، ويسلمُ فيها غيرُ المُسلِمِ.»

«إنَّما مَثَلِى بينكُم كمثلِ السِّراجِ فى الظُّلمةِ، يستضِيءُ بِهِ مَنْ ولجهَا ». [... ۳۳۴].

فالإمام هنا ينهى جمهوره عن المشاركة فى الفتنة ولكنّه لا يقرّهم على الموقف السّلبى منها، وإنّما يأمرهم بالتّصدّى لها.

إنّ المشاركة فيها تعنى التآمر معها، والسّلبيّة أمامها تعنى عدم التّصدّى لها، وكلاهما خطأ. الموقف السّليم هو مواجهتها مع الإمام الحاكم العادل، لأنّ الحقّ- بوجوده- بيّن ظاهر، فهو الهادى، وهو الدّليل الّذى لا يضلّل، وهو «السّراج فى الظّلمة»، ظلمة الفتنة، وكلّ ظلمة.

وقد حدث أنّ بعض المسلمين فى بدايات خلافة أميرالمؤمنين علىّ التبس عليهم الأمر فى الفتنة الّتى أثارها خروج طلحة والزّبير، وعصيان معاوية نتيجة لموقف أبى‌موسى الأشعرى الّذى قال للنّاس فى الكوفة حين دعوا إلى قمع عصيان طلحة والزّبير: إنّ الموقف موقف فتنة، وأنّ الموقف السّليم منها هو الإمتناع عن المشاركة فيها.

وقد أوضح الإمام إذ ذاك أنّ الموقف من الفتنة الّتى يلتبس فيها الحقّ بالباطل هو هذا، ولكنّ الأمر يختلف حين يتّضح جانب الحقّ بوجود الإمام العادل أو بأيّة وسيلة أخرى، فإنّ السّلبيّة فى هذه الحالة تكون خيانة.

ومن هنا فقد سمّى الإمام خروج طلحة والزّبير فتنة، ودعا الناس إلى مواجهتها وقمعها، لأنّ وجه الحقّ فيها بيّن، فقد كتب إلى أهل الكوفة عند مسيره إلى البصرة ...: « واعلمُوا أنَّ دارَ الهِجرة [۳۳۵] قد قلعت بِأهلِها وقلعوا بِها، [۳۳۶] وجاشت جيش المِرجلِ، [۳۳۷] وقامتِ الفِتنةُ على القُطبِ، [۳۳۸] فأسرِعُوا إلى أميرِكُم، وبادِرُوا جِهادَ عدُوِّكُم». [۳۳۹].

د- موقف الإمام علىّ من فتنة عصره

ما دور الإمام علىّ، وما موقفه من الفتنة الّتى عصفت بالمجتمع الإسلامى فى عهده؟.

نظرة إلى التاريخ السّياسى والفكرى للإسلام تكشف بوضوح عن أنّ الإمام علياً كان المنقذ الأكبر للإسلام من التّشوّه والمسخ بالفتنة الّتى عصفت رياحها المجنونة بالمسلمين منذ النّصف الثانى من خلافة عثمان.

ولو لا توجيه علىّ الفكرى، ومواقفه السّياسيّة، ومواجهته العسكريّة للفتنة فى شتّى مظاهرها الفكريّة والسّياسيّة والعسكريّة لَتشوّه الإسلام، وانمسخ، وتقلّص. ولكنّ الإمام علياً، بموقفه الواضح الصّريح الرّافض لأيّة مساومة، كان المنقذ الّذى كشف الفتنة ودعاتها، ووضع المسلمين جميعاً أمام الخيار الكبير: مع الفتنة أو ضدّها؟.

ولا يهمّ بعد ذلك أنّ الفتنة حازت إلى جانبها جمهوراً كبيراً من النّاس، المهم أنّها افتضحت، وبافتضاحها سلم الإسلام من التّشوّه ومن خطر التّزوير، وكان على الّذين انحرفوا أن يجدوا لأنفسهم مبرّرات.

وقد كان توقع نشوء الفتنة، والخوف منها ومن أفاعليها وعواقبها، هاجساً عامّاً عند المسلمين. يكشف عن ذلك السّؤال عنها، وعن الموقف الصّواب منها، وكثرة حديث الإمام عن أخطارها وملابساتها.

وقد كان الإمام علىّ بروحانيّته العالية السّامية، وإسلاميّته الصّلبة الصّافية، وروحه الرّساليّة الّتى تفوّق بها على جميع معاصريه، وحكمته وشجاعته، وسيرة حياته الناصعة الّتى ابتدأت بالإسلام ... كان هو الرّجل الوحيد المرصود لمواجهة الفتنة، وإنقاذ الإسلام منها.

لقد أعلمه رسول‌اللّه (ص) بذلك، وأدرك هو دوره من خلال رصده لحركة المجتمع التّاريخيّة.

وهذا نصّ عظيم الأهمّيّة يكشف لنا عن الدّور المرصود للإمام علىّ فى مواجهة الفتنة، يتضمن الرّؤية النّبويّة لمستقبل الحركة التّاريخيّة من جهة، والرّؤية النّبويّة لدور الإمام علىّ فى هذه الحركة.

وقد أورد الشّريف الرّضى هذا النّصّ، كما أورده ابن أبى‌الحديد فى شرحه)۱۰۷: ۱۰۵-۹) برواية الشّريف وبرواية أخرى أكثر بسطاً. ويبدو أنّ الرّواية الأخرى تقريريّة حدّث بها الإمام، ورواية الشّريف خطابيّة، جاءت جواباً منه على سؤال، فقد قام إليه رجل- وهو يخطب- فقال: يا أميرالمؤمنين: أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول‌اللّه (ص) عنها؟ فقال عليه‌السّلام: «إنَّهُ لَما أنزلَ اللّه سُبحانهُ قولَهُ (الم. أحَسِب النَّاسُ أن يُتركُوا أن يقُولوا آمنّا وهم لا يُفتنُون) [۳۴۰] علِمتُ أنَّ الفِتنة لا تنزِلُ بِنا ورسُولُ‌اللّه (ص) بين أظهُرِنا. فقُلتُ: يا رسُول‌اللّهِ ما هذهِ الفِتنةُ الَّتِى أخبرَك اللّه تعالى بِها؟ فقال: (يا علِيُّ، إنّ أُمَّتى سيُفتنُون من بعدِى)، فقُلتُ: يا رسُولَ‌اللّه، أوَ لَيسَ قد قلتَ لى يوم أُحُدٍ حيثُ استُشهِدَ من استُشهِدَ من المُسلمِين، وحيزَت [۳۴۱] غنِّى الشَّهادةُ، فشقَّ ذلك علىَّ، فقُلتَ لى: (أبشِر، فإنَّ الشَّهادةَ مِن ورائِكَ) فقال لِى: (إنَّ ذلِكَ لكذلِك، فكيف صبرُك إذن؟) فقُلتُ: يا رسُول‌اللّه: ليس هذا مِن مواطِنِ الصَّبرِ، ولكِن مِن مواطِنِ البُشرى والشُّكرِ. وقال: (يا علىُّ، إنَّ القومَ سيُفتنُون بِأموالِهِم، ويمُنُّون بدينِهِم على ربِّهِم، ويتمنَّون رحمتهُ، ويأمنُون سطوتهُ، ويستحِلُّون حرامهُ بِالشُّبُهاتِ الكاذِبةِ، والأهواءِ السَّاهيةِ، فيستحِلُّون الخمرَ بالنَّبيذِ، والسُّحتَ بالهديَّةِ، والرِّبا بالبيعِ) قُلتُ: يا رسُول‌اللّه: فبأىِّ المنازِلِ أُنزِلُهُم عندَ ذلِك؟ أبمنزلَةِ رِدَّةٍ أم بمنزلَةِ فِتنةٍ؟ فقالَ: (بِمنزِلَةِ فِتنةٍ)». [۳۴۲].

وإذن، فقد كان الإمام مرصوداً لمواجهة الفتنة وفضحها.

لقد كان منقذ الإسلام بعد رسول‌اللّه (ص) من التّزييف والتّحريف، فحقّق بمواجهته للفتنة صيغة الإسلام الصّافى، فى المعتقد والفكر والتّشريع والعمل، وغدت الفتنة أزمة فى داخل الإسلام، ولم تفلح فى أن تكون هى الإسلام.

وقد عبّر الإمام فى أكثر من مقام عن دوره العظيم الفريد فى التاريخ، من حيث كونه القيادى الوحيد الّذى استطاع أن يواجه الفتنة ويفضحها، فقال ممّا قال ...: « فإنّى فقأتُ عين الفِتنةِ، [۳۴۳] ولم يكُن ليجترئ عليها أحد غيرى، بعدَ أن ماج غيهبُها [۳۴۴] واشتدَّ كلبُها». [۳۴۵].

لقد حدثت داخل الإسلام فتن كثيرة، ولكن أعظم هذه الفتن خطورة وأشدّها تخريباً فتنة بنى أميّة الّتى عصفت رياحها السّوداء الشّريرة المجتمع الإسلامى منذ النّصف الثّانى من عهد عثمان، وتعاظمت خطورتها بعد مقتله. واستغرقت مواجهتها الفكريّة والسّياسيّة

والعسكريّة معظم جهود أميرالمؤمنين عليّ فى السّنين الأخيرة من حياته.

وقد كان الإمام يغتنم كل فرصة سانحة ليحدّث مجتمعه عن هذه الفتنة، ويبيّن له أخطارها الآنية والمستقبليّة من أجل إيجاد المناعة النّفسية منها، والوعى العقلى لأخطارها، والعزم العملى على مواجهتها وقمعها، والتّصميم على رفضها حتّى بعد انتصارها.

قال عليه‌السّلام، «إنَّ الفِتنَ إذا أقبلت شبَّهت، [۳۴۶] وإذا أدبرت نبَّهت، يُنكرن مُقبِلاتٍ، ويُعرفن مُدبِراتٍ، يحُمنَ حوم الرِّياحِ، يُصِبْن بلداً، ويُخطِئن بلداً. ألا- وإن أخوف الفِتنِ عندى عليكُم فِتنةُ بنى أُميَّة، فإنَّها فتنة عمياءُ مُظلِمة، عمَّت خُطَّتُها [۳۴۷] وخصَّت بليَّتُها، وأصاب البلاءُ من أبصرَ فيها، وأخطأ البلاءُ من عمِى عنها». [۳۴۸].

فَهى فتنة عمّت بليتها لأنّ روّادها الحكام أنفسهم، ومن ثمّ فشرورها السّياسيّة والفكريّة تشمل المجتمع كلّه.

وهى فتنة خصّت بليتها لأنّ أعنف ضرباتها ستوجّه إلى الصّفوة المؤمنة الواعية الّتى بقيت سليمة من داء الفتنة، ووضعت نفسها فى مواقع كفاح الفتنة الغالبة.

والمسؤوليّة فى هذه الفتنة ملقاة على المبصرين فيها، الّذين يعرفونها ويعرفون وجه الحقّ ويجبنون عن مواجهتها، أو يتواطؤون، ضد الحق، معها.

أمّا من عمى عنها، وجهل أبعادها وأخطارها فهو معذور بجهله.

انتصار حركة الردة

لا نعنى بالرّدّة هنا الرّدّة الدّينيّة عن الإسلام، فقد سبق أن رأينا التّوجيه النّبوى لعليّ حين سأل رسول‌اللّه (ص): فبأىّ المنازل أُنزلهم عند ذلك؟ أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ فقال (ص) بمنزلة (فتنة).

وإنّما نعنى الرّدّة السّياسيّة والفكريّة. فإنّ الفتنة حين انتصرت سياسيّاً بعد استشهاد أميرالمؤمنين عليّ راحت تمكّن لنفسها بفرض قيمها الفكريّة والإجتماعية فى الثّقافة العامّة، وتطبع العلاقات فى داخل المجتمع بطابعها.

لقد كان الإمام يرى ببصيرته النّافذة أنّ الفتنة ستنتصر، وكانت هذه الرّؤية إحدى مسبّبات ألمه العميق.

وكان يرى أنّ الفتنة لا تقاوم إلا بالكفاح، أمّا السّكوت عنها ومهادنتها فيتيحان الفرصة أمامها لكى تنتصر.

وكان يؤرقه أنّ مجتمعه، لأسباب شتّى، آثر أن يواجه الفتنة بالسّكوت عنها، أو- بعبارة أخرى- آثر ألا يواجه الفتنة الآتية.

وكان يقارن بين أصحابه وبين أصحاب رسول‌اللّه (ص)، فيريهم أنّ التّوجيه الثّقافى واحد، وأنّ القيادة واحدة، ولكنّه يرى أنّ درجة الإخلاص متفاوتة ...: « واللّه ما اسمعكُمُ الرَّسُولُ شيئاً إلا وها أنا ذا مُسمِعُكُمُوهُ، وما أسماعُكُم اليوم بِدُونِ أسماعِكُم بالأمسِ، ولا شُقَّت لهُمُ الأبصارُ، ولا جُعِلت لهُمُ الأفئدةُ فى ذلك الزَّمانِ، إلا وقد أُعطيتُم مِثلَها فى هذا الزَّمانِ. واللّه ما بُصِّرتُم بعدهُم شيئاً جهلُوهُ، ولا أُصفِيتُم بهِ وحُرِمُوهُ، [۳۴۹] ولقد نزلت بِكُم البليَّةُ جائلاً خِطامُها، [۳۵۰] رِخواً بطانُها [۳۵۱] فلا يغُرَّنَّكُم ما أصبح فيه أهلُ الغُرُورِ، فإنَّما هو ظِل ممدُود إلى أجلٍ معدُودٍ». [۳۵۲].

وقد تكرّر منه المقارنة بين حال أصحابه وحال أصحاب رسول‌اللّه (ص) فى عدة مواقف. وكان يرى فى طريقة مواجهة أصحابه للفتنة الآتية نذر انتصار هذه الفتنة من بعده، وقد كشف عن رؤيته هذه لمجتمعه فى عدة مواقف، منها قوله ...: « أما والذى نفسى بيدِه، ليظهرنَّ هؤُلاءِ القومُ عليكُم، ليس لأنَّهُم أولى بِالحقِّ، ولكِن لإسراعِهِم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكُم عن حقِّى. ولقد أصبحتِ الأُممُ تخاف ظُلم رُعاتِها، وأصبحتُ أخافُ ظُلم رعيَّتى، استنفرتُكُم للجِهادِ فلم تنفِروا، وأسمعتُكُم فلم تسمعُوا، ودعوتُكُم سِرّاً وجهراً فلم تستجيبُوا، ونصحتُ لكُم فلم تقبلُوا». [۳۵۳].

ويكشف هذا النّصّ- كغيره من النّصوص المماثلة له- عن أنّ انتصار الفتنة لم يكن فى تقدير الإمام عليه‌السّلام وتحليله ناشئاً من قدر غيبى، وإنّما نشأ من توفّر الأسباب الموضوعيّة على أرض الواقع السّياسى والإجتماعى الّذى كانت عوامله تتفاعل فى المجتمع السّياسى

المواجه للفتنة.

لقد فقد هذا المجتمع فاعليته، وتخلّى عن روح الكفاح فى مواجهة الفتنة، وانفصل عملياً عن قيادته فسقط فى السّلبيّة، وآثر الحياة السّهلة الخالية من تبعات الرّسالة والجهاد.

ومن ذلك قوله عليه‌السّلام ...: « ثُمَّ يأتى بعد ذلِك طالِعُ الفِتنةِ الرَّجُوفِ، [۳۵۴] والقاصِمةِ الزَّحُوفِ، [۳۵۵] فتزيغُ قُلُوب بعد استِقامةٍ، وتضِلُّ رِجال بعد سلامةٍ، وتختلِفُ الأهواءِ عند هجُومِها، ونلتبسُ الآراءُ عِند نُجُومِها [۳۵۶] من أشرف لها قصمتهُ [۳۵۷] ومن سعى فيها حطمتهُ، يتكادمُون فيها تكادُم الحُمُرِ فى العانةِ [۳۵۸] قد اضطرب فيها معقُودُ الحبلِ، وعمى وجهُ الأمرِ. تغيضُ فيها الحِكمةُ، [۳۵۹] وتنطِقُ فيها الظَّلمةُ، وتدُقُّ أهل البدو بمسحلِها [۳۶۰] وترُضُّهُم بِكلكلِها [... ۳۶۱] فلا تكُونُوا أنصاب الفِتنِ [۳۶۲] وأعلامَ البِدعِ، والزمُوا ما عُقد عليه حبلُ الجماعةِ، وبُنيت عليه أركانُ الطَّاعةِ». [۳۶۳].

فى هذا النّصّ بيّن الإمام بعض سمات انتصار الفتنة:

۱- إستيلاء الفتنة على مساحات جديدة فى المجتمع: «تضلّ رجال بعد سلامة» وتتعمّق الأفكار المنحرفة «تزيغ قلوب بعد استقامة».

۲- تلفّ المجتمع حيرة شديدة نتيجة للإنتصار غير المتوقع الّذى فرض مفاهيم جديدة لم تكن مألوفة.

۳- تحطّم الفتنة- فى أوج انتصارها- كلّ من يتصدى لها مواجهة.

وفى نصّ آخر بيّن الإمام وجوهاً أخرى لانتصار الفتنة ...: « فعِند ذلكَ أخذ الباطِلُ مآخِذَهُ، وركب الجهلُ مراكِبهُ، وعظُمتِ الطَّاغيةُ، وقلَّتِالدَّاعيةُ، وصال الدّهرُ صيالَ السَّبُع العقُورِ، [۳۶۴] وهدر فنيقُ الباطل بعد كُظوم [۳۶۵] وتواخى النَّاسُ على الفُجُورِ، وتهاجرُوا على الدِّين، وتحابُّوا على الكذِبِ، وتباغضُوا على الصِّدقِ، فإذا كان ذلك كان الولدُ غيظاً [۳۶۶] والمطرُ قيظاً [۳۶۷] وتفيضُ اللِّئامُ فيضاً وتغيضُ الكِرامُ غيضاً. [۳۶۸] وكان أهلُ ذلك الزَّمانِ ذئاباً، وسلاطينُهُ سِباعاً، وأوساطُهُ أكَّالاً، وفُقراؤهُ، أمواتاً، وغار الصِّدقُ، وفاض الكَذِبُ، واستُعمِلتِ المودَّةُ باللِّسانِ، وتشاجر النَّاسُ بالقُلُوبِ، وصار الفُسُوقُ نسباً، والعفافُ عجباً، ولُبِس الإسلامُ لبسَ الفرو مقلُوباً». [۳۶۹].

فى هذا النّصّ فصّل الإمام ملامح الفتنة عند ما تنتصر، وتغلب على المجتمع،فتتسلّط على مؤسّساته، وتعمّق جذورها فيه، وتبسط مفاهيمها وقيمها عليه.

ويمكن تلخيص هذه الملامح فى النّقاط التّالية

۱- تأصّل روح الطّغيان فى الحكم، ونزعة التّجبر والإستبداد فى الحاكمين، وانحسار الرّوح الرّساليّة فى مؤسسات الحكم.

۲- فساد العلاقات الإنسانيّة داخل المجتمع، وتدنّى المستوى الأخلاقى، وشيوع أخلاق المنفعة بين الناس. وما أروع قوله فى تصوير جانب من هذه الظّاهرة (واستعملتِ المودّة باللّسان، وتشاجر النّاس بالقلوب).

۳- إنحطاط مؤسّسة الأُسرة، وشيوع الإباحة الجنسيّة.

ويلخص ذلك كلّه قوله عليه‌السّلام: (ولُبِس الإسلامُ لُبس الفرو مقلوباً) وهذا كقوله فى نصّ آخر: «أيُّها النّاسُ، سيأتى عليكُم زمان يُكفأُ فيه الإسلامُ كما يُكفأُ الإناءُ بما فيه». [۳۷۰].

المعاناة

۴- المعاناة تنتصر الفتنة، فتأتى بحكم غير عادل، لا يرى فى الأمة إلا موضوعاً لتسلّطه ومصدراً للمال.

وهى غير أخلاقية، لأنّ قادتها يتبعون فى سياسة الناس منطق الغريزة، لا منطق القانون والعدالة. ومن هنا وهناك فلا بدّ أن يكون لها ضحايا كثيرة.

ومن ضحاياها خصومها السّياسيون الذين حاربوها فى الماضى، وغلبوا على أمرهم فى النّهاية.

ومن ضحاياها خلفاؤها الّذين ساندوها فى أيّام ضعفها، واستغنت عنهم فى أيّام قوّتها.

ومن ضحاياها الغافلون عن شرورها وأخطارها، الّذين كانوا محايدين فى المعركة الدّائرة بينها وبين أهل الحقّ، ثم دهشوا عند انتصارها، فاحتجوا أو أظهروا معارضتهم لها. وأكبر ضحاياها الأمّة كلّها حين تحولها الفتنة المنتصرة إلى موضوع للتّسلط، ومصدر لصنع الثّروات، وتوفير أسباب التّرف واللّهو لنخبتها، وجهازها القمعى، وحلفائها.

وهكذا تبدأ معاناة الأمّة من الفتنة، من ظلمها وتسلطها، من عدوانها الّذى ينتشر كالوباء فيصيب كلّ فئة من المجتمع المغلوب على أمره بشتّى ألوانه: العدوان الأخلاقى، والعدوان السّياسى، والعدوان الإقتصادى.

وقد صوّر الإمام علىّ وجوهاً من معاناة الأمّة وعذاباتها بعد انتصار الفتنة فى لوحات معبّرة تكاد تنطق بالحركة الحيّة.

من ذلك قوله عليه‌السّلام ...: « وايمُ اللّه لتجِدُنَّ بنى اُميَّةَ لَكُم اربَابَ سوءٍ بَعدِى،كالنَّاب الضَّروس [۳۷۱] تعذِمُ بفيهَا، [۳۷۲] وتخبطُ بيدِها، وَتزبِنُ برِجلهَا [۳۷۳] وتمنع درَّها». [۳۷۴].

«لا ـ يزالونَ بِكُم حَتى لا ـ يَترُكُوا مِنكُم إلا ـ نافعاً لَهُم، أو غيرَ ضائر بِهم. ولا يَزال بَلاؤُهم عَنكُم حتَّى لا يكُون انتِصارُ أَحَدِكُم مِنهُم إلا كَانتِصارِ العَبدِ من رَبِّه والصّاحبِ من مُستَصحِبِه. تَرِدُ عَلَيكُم فتنتهم شَوهاء [۳۷۵] مخشيَّةً، وقطعاً جاهليَّة، لَيسَ فيها مَنَارُ هُدى وَلا عَلَم يُرى». [۳۷۶].

وهكذا يعانى النّاس من الفتنة بعد انتصارها ألواناً من الشّرّ

۱- حكم الطّغيان الّذى يقضى على كلّ معارضة له بالرّأى والمذهب، وهو لا يقضى عليه بهوادة ولين، وإنّما بالعنف والقسوة.

۲- والإذلال الّذى يمحق كرامة الإنسان ويشوّه روحه، فيحوّله إلى عبد لا يجرؤ على رفع صوته والتّعبير عن رأيه، وإنّما يخضع بالطّاعة العمياء الصّمّاء الّتى لا خيار فيها ولا تنبثق من قناعة وإنّما يفرضها الخوف من العذاب.

ومن ذلك قوله عليه‌السلام: «واللّه لا يزالُون حتَّى لا يدعُوا لِله مُحرَّماً إلا استَحلّوهُ، ولا عقداً إلا حلُّوهُ، وحتَّى لا يبقى بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ [۳۷۷] إلا ـ دخلهُ ظُلمُهُم ونبا بِهِ سُوءُ رعيهِم، [۳۷۸] وحتَّى يقُوم الباكيانِ، يبكيانِ: باكٍ يبكِى لدِينِهِ وباكٍ يبكى لدُنياهُ، وحتَّى تكُون نُصرةُ أحدِكُم مِن أحدِهم كنُصرةِ العبدِمِن سيِّدِه، إذا شهِد أطاعهُ وإذا غاب اغتابهُ، وحتَّى يكُون أعظمكُم فيها عناءً أحسنُكُم بِاللّه ظنّاً، فإن أتاكُم اللّه بعافيةٍ فاقبلُوا، وإن ابتُليتُم فاصبِرُوا، فإنَّ العاقبةَ للمُتَّقين». [۳۷۹].

فى هذا النّصّ يكشف الإمام عن وجوه أخرى من المعاناة والعذاب

۱- سقوط حرمة القانون عند الطّغمة الحاكمة الّتى يفترض فيها، وهى تحكم باسم الدّين، أن تحافظ عليه من حيث التّطبيق.

۲- انتشار الظّلم، وعدم اقتصاره على الحواضر والمدن، بل يشمل جميع مستويات الأمّة فيعانى منه سكّان المدن وبدو الصحراء.

۳- الإذلال، وهدر كرامة الإنسان الّذى يتحوّل، لطول ما يعانى من الإذلال، إلى ما يشبه أخلاق الرّقيق.

إنّ هذا الواقع يجعل المعاناة شاملة فى قضايا الدّين وقضايا الدّنيا، ويكون أشدّ النّاس بلاء ومعاناة أكثرهم وعياً، وأصلبهم عوداً فى مواجهة إغراء الفتنة وإرهابها.

ولكن الإمام يوصى هذه الفئة المستنيرة الّتى لم تستهلكها الفتنة بالصّبر، لأنّ الفتنة فى هذه المرحلة لا تقاوم، وكل جهد يبذل فى مقاومتها جهد ضائع مهدور يزيد الشّرعيّة ضعفاً ووحدة وعزلة دون أن يؤثّر على الفتنة، وهى فى أوج انتصارها شيئاً.

ومن ذلك قوله عليه‌السّلام: «رايةُ ضلالٍ قد قامت على قُطبِها [۳۸۰] وتفرَّقت بِشُعبِها [۳۸۱] تكيلُكُم بِصاعِها، [۳۸۲] وتخبطُكُم بباعِها، [۳۸۳] قائدُها خارج مِن الملَّةِ، قائم على الضِّلَّةِ، فلا يبقى يومئذٍ مِنكُم إلا ثُفالةِ كثُفالةِ القدرِ [۳۸۴] أو نُفاضةِ كنُفاضةِ العِكم [۳۸۵] تعرُككُم عرك الأديم، [۳۸۶] وتدُوسُكُم دوسَ الحصِيدِ [۳۸۷] وتستخلِصُ المؤمِنَ من بينِكُمُ استخلاصَ الطَّيرِ الحبَّةَ البطينةَ [۳۸۸] من بينِ هزيلِ الحبِّ». [۳۸۹].

فى هذا النّصّ يتابع الإمام الكشف عن وجوه المعاناة: سيادة حكم الطّغيان بسبب أنّ الشريعة مهملة من حيث التّطبيق لأنّ الرّاية راية

ضلال، ولـذا فإنّ هـذا الحكم يتصرّف بوحى الغريزة لا على ضوء القانون، ونتيجـة ذلك أنّ الحكم يـدوس الأمّة ويسـحقها، ويذهب بكـلّ صـلابة وعنفوان فيهـا ليحوّلها إلى كيان مطواع لا إرادة له ولا اختيار، كالجلـد الّـذى سـحق وعرك حتى لان ففقـد كلّ صـلابة، وكالحصيد الّذى ديس حتّى تفتت.

ولكنّ الفتنـة، مع ذلك، لا تفلـح فى القضاء على كلّ شـىء، فرغم الظّلم المادّى والمعنوى، والتّشويه الثّقافى تبقى نخبـة النخبة محافظة على ذاتها، إنّها تكون قليلة العدد حقّاً، ولكنّها أصيلة، صافية، منيعة على الطّغيان، والتّشويه والإغراء والإرهاب.

ومن ذلك قوله عليه‌السّلام: «تغِيضُ فيها الحِكمة، [۳۹۰] وتنطِقُ فيها الظَّلمةُ، وتدُق أهل البدو بمسحلِها [۳۹۱] وترُضُّهُم بكلكلِها [۳۹۲] يضـيعُ فى غبارِها الوُحدانُ، [۳۹۳] ويهلِـكُ فى طريقِهـا الرُّكبانُ، ترِدُ بِمُرِّ القضاءِ، وتحلُبُ عبيط الـدِّماءِ [۳۹۴] وتثلِمُ منار الـدِّينِ [۳۹۵] وتنقُضُ عقـد اليقين. يهرُبُ منها الأكياسُ [۳۹۶] ويُدبِّرُها الأرجاسُ [۳۹۷] مرعـاد مبراق كاشِـفة عن ساقٍ، تقطعُ فيها الأرحامُ، ويُفارقُ عليها الإسلامُ، بريُّها سقيم، وظاعِنُها مُقِيم ... بين قتيلٍ مطلُولٍ، [۳۹۸] وخائفٍ مُستجيرٍ، يختلُون بعقدِ الأيمانِ ». [... ۳۹۹] [۴۰۰].

يـبرز الإمـام فى هـذا الفصـل- كمـا فى النّصّ الثّـانى مـن هـذا الفصـل- شـمول الظلـم لأهـل البـدو، وهـذا يعنى- بملاحظـة التّركيب الإجتماعى، والوضع الثّقافى للمجتمع الإسـلامى فى ذلك الحين- أقصـى درجات الشّـمول للظّلم والطّغيان، فأهل البدو- بسـبب طريقة حيـاتهم- بعيـدون عن متنـاول السّـلطة وأجهزتهـا ومن ثمّ فهم يتمتعون بفرص أكثر من أهل المـدن للنجاة من كثير من شـرور الطّغيان السّياسى. ولكن هذه الفتنة المنتصرة يبلغ من قوّتها وعنفها أنّ هؤلاء البدو- أهل الوبر- لا يسلمون منها، بل تسومهم سوء العذاب.

كما أبرز الإمام فى هذا النّصّ الوجوه الأخرى للمعاناة: الإذلال، وسياسة القمع، وتجاوز الشّريعة والقانون، وانحطاط العلاقات الإنسانية.

وقال عليه‌السّـلام ...: « فعِند ذلِك لا يبقى بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ إلا وأدخلهُ الظَّلمةُ ترحةً، [۴۰۱] وأولجُوا فيهِ نقمةً، فيومئذٍ لا يبقى لهم فى السَّماء عاذِر، ولا فى الأرض ناصِر. أصفيتُم بالأمر غير أهله [۴۰۲] وأوردتُمُوهُ غير موردِهِ، وسينتقِمُ اللّه مِمَّن ظلمَ، مأكلاً بمأكلٍ، ومشرباً بمشـربٍ، مـن مطـاعِمِ العلقمِ، ومشـارِبِ الصَّبِرِ والمقرِ، [۴۰۳] ولِبـاسِ شِـعارِ الخوف ودثـارِ السَّيفِ، [۴۰۴] وإنَّمـا هُم مطايـا الخطِيئاتِ وزوامِلُ الآثام». [۴۰۵] [۴۰۶].

فى هـذا النّصّ بيّن الإمام أيضاً طابع الشّـمول لهـذه الفتنة. وذكّر جمهور النّاس فى كلّ عصـر بالسّـبب الموضوعى الّذى ولّدها، ومكن لها، وهو تجاوز الشّـرعيّة فى الحاكم والنظام، والإنسـياق وراء المصالـح الخاصّـة، والأنانيّات الفرديّة والقبليـة، وعدم تحمّل مسؤوليّات الصّراع ضدّ الباطل وأهله.

ومن ذلـك قوله عليه‌السّـلام مخاطباً الخوارج، مخبراً لهم بمـا سـيكون عليه حـالهم فى نظـام الفتنـة الآـتى حيث لاـ يجـدون الإنصاف والعدل، والتّفهّم لأوضاعهم وآمالهم الّتى يجدونها فى نظام العدل الّذى يقوده الإمام.

«أما إنَّكُم ستلقُون بعدى ذُلاً شامِلاً، وسيفاً قاطِعاً، وأثرةً [۴۰۷] يتَّخذُها الظَّالِمُون فيكُم سُنَّةً». [۴۰۸].

تنتصـر الفتنـة، وتسود مفاهيمهـا، وتفرض على المجتمع قيمها، وتمضـى على ذلك السّـنون، والفتنـة تزداد قوّة ومناعـة وتسـلّطاً، ويمتدّ سلطانها لينفـذ فى كلّ زاويـة وعلى كلّ صـعيد فى المجتمع، ويسود الإعتقاد بأنّ كلّ شـىء قد انتهى، وبأنّ التّاريخ قد اسـتقر على هذه الصّيغة إلى النّهاية، وتنشأ على هذا الإعتقاد أجيال بعد أجيال.

ولكنّ هـذا الإعتقاد خاطئ، فحركة التاريخ لا تتوقف عند صـيغة بعينها، بل هى دائبة التّقلب والتّغيّر، وسـيكون لانتصار الفتنة واسـتقرار سلطانها نهاية قد لا تنتهى بها الفتنة، ولكنّها تواجه مقاومة جديدة.

تنشأ هـذه المقاومة من حقّ اسـتعاد بعضاً من حيويّته فهو لا يطيق السّـكوت، فيعبّر عن نفسه بالثّورة، لا لينتصـر، فقد يكون انتصار الحق بعيـد المنال فى هذه المرحلة من التّاريخ، ولكن ليكسـر من غلواء الفتنة، ويعطّل جانباً من عملها التّخريبى فى عقيدة الأمّة وشخصـيتها، وذلك حين يسلب الفتنة الشّعور بالإستقرار والأمان، فيحملها على اتخاذ موقف الدّفاع عن نفسها والتّخلّى عن بعض مناهجها التّخريبيّة، ويحملها على أن ترتدّ ولو قليلاً إلى الصّواب.

أو تنشأ هـذه المقاومـة من أزمات داخل الفتنـة نفسـها، تولّـد فتناً تزعـج أهل السّـلطان القـديم، وتأتى إلى سدّة السّـلطان بقوم آخرين، ويكون بين أولئك وهؤلاء فرج لأهل الإيمان، ونهضة لأهل الحقّ فى غفلة أهل السّلطان.

قال عليه‌السّـلام: «حتّى يظُنَّ الظَّانُّ أنَّ الـدُّنيا معقُولـة على بنى أُميَّةَ، [۴۰۹] تمنحُهُم درَّها، [۴۱۰] وتُورُدُهُم صـفوَها، ولا يُرفعُ عن هذه الأُمّةِ سوطُها ولا سيفُها، وكذب الظَّانُّ لذلِك، بل هى محّجة [۴۱۱] من لذِيذ العيشِ يتطعَّمُونها بُرهةً، ثُمَّ يلفظُونها جُملةً». [۴۱۲].

وقال عليه‌السّلام فى نص آخر يخاطب بنى أميّة: «فما احلولت لكُمُ الدُّنيا فى لذَّتها، ولا تمكَّنتُم من رضاعِ أخلافِها [۴۱۳] إلا مِن بعدِ ما صادفتُمُوهـا جائلاً خِطامُها، [۴۱۴] قلِقاً وضـينُها، [۴۱۵] قـد صار حرامُها عِنـد أقوامٍ بمنزلـةِ السِّدرِ المخضُودِ، [۴۱۶] وحلالُها بعيـداً غير موجُودٍ، وصادفتُمُوها واللّه، ظلاًّ ممدُوداً إلى أجلٍ معدُودٍ.

«فالأرضُ لكُم شاغِرة، [۴۱۷] وأيديكم فيها مبسُوطة وأيدى القادةِ عنكُم مكفُوفة، وسُيُوفُكُم عليهِم مُسلَّطة، وسُيُوفُهُم عنكُم مقبُوضة. ألا ـ وإنَّ لِكُـلِّ دمٍ ثـائراً، ولِكُلِّ حقٍّ طالباً. وإنَّ الثَّائر فى دمائنا كالحاكِمِ فى حقِّ نفسهِ، وهُو اللّه الـذى لا يُعجزُهُ من طلبَ، ولا يفُوتُهُ من هربَ. فأُقسُمُ باللهِ يا بنى أُميَّةَ: عمَّا قليلٍ لتعرفُنَّها فى أيدى غيرِكُم، وفى دارِ عدُوِّكُم ». [... ۴۱۸].

وقـال عليه‌السّـلام: «.. فـأُقسِمُ ثُمَّ أُقسِمُ لتنخمنَّهـا أُميَّةُ من بعـدِى كما تُلفظُ النُّخامـةُ، [۴۱۹] ثُمَّ لا ـ تـذُوقُها ولا ـ تطعمُ بِطعمِها أبـداً ما كرَّ الجديدان». [۴۲۰] [۴۲۱].

وهكذا يرى الإمام ببصيـرته الّتى تضـىء آفاق المسـتقبل الملفّح فى ظلمات الزّمان إلا فى حركة التاريخ الهادرة، والقوى السّياسيّة الّتى يحبل بها المجتمع فى الحاضـر وسـيلدها فى الآتى من الأيّام، لتحرم الفتنـة من لـذّات انتصارها، وتتراجع إلى مواقع الـدّفاع عن نفسـها، وتبدل القوى الحاكمة بقوى جديدة، عادلة أو ظالمة.

الثورة

الفتنة تنمو، ويتسع سـلطانها، ويزيد شـيئاً فشـيئاً عدد السّاخطين عليها: من أبنائها الذين نبذتهم بعد أن اسـتغنت عنه، ومن الصّفوة الذين قامت فى أساسـها ضـدهم، ومن أولئك الـذين لم يكن يعنيهم الإمر فى شـىء، ولكنَّهم اكتشـفوا- بعـد انتصار الفتنة التى لم يحاربوها أوّل الإمر- أنهم قد غدوا من ضـحاياها ... هؤلاء جميعاً الّذين تجملهم كلمة أميرالمؤمنين فى تصويره لمعاناة الناس من الفتنة بقوله: « ...وحتَّى يقومَ الباكِيان يَبكِيان: بَاك يَبكى لِدِينه، وبَاك يَبكِى لِدُنياهُ». [۴۲۲].

ويرى هؤلاء جميعاً أن النظام، نظام الفتنة، ظالم. وكل فريق يرى ظلم هـذا النظام من منظوره الخاص: بعضـهم يرى ظلم النظام من منظوره النفعى الخاص، أو الفئوى، أو القبلى، دون أن يبالى بانتهاك الثورة لحقوق أشـخاص آخرين أو فئات أخرى، ودون أن يبالى بتجاوز النظام للشريعة وتعطيل دور الأمة الرّسالى فى العالم، وتحويلها إلى فئات محتربة متخاصمة فقدت وحدتها الداخلية.

وبعضهم الآخر يرى ظلم النّظام من منظور رسالى وشرعى يتجاوز مصالحه الشّخصية ومصالح فئته وقبيلته.

كلّ الفئات السّاخطة على النّظام ترى ظلم هذا النّظام ... هذا الظّلم الّذى هوحصيلة التّعارض بين القانون كما يراه كلّ فريق من منظوره الخاص وبين سياسة الدّولة.

وتتـأهب كـلّ فئـة- بوسائلها الخاصّـة- للعمل من أجل تصـحيح الوضع القائم برفع التعارض بين الواقع السّياسـى للدّولـة وبين القانون، بإرغام الدّولة على أن تعود فى سياستها إلى القانون، أو بتغيير الفئة الحاكمة نفسها.

والوسيلة إلى إنجاز عملية التّصحيح هذه هى الثّورة.

إذن، عملية الإحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة وممارساته قد تكون ثورة عادلة، وقد تكون أزمة فى داخل الفتنة نفسـها. نعنى: فتنة جديدة تولّد من فشل الفتنة الحاكمة فى إرضاء قوى سياسيّة فى المجتمع تحمل نفس المفاهيم الّتى تحملها الفتنة الحاكمة. [۴۲۳].

إن الإحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة له فائدة إيجابية كبرى وهامّة سواء أكان القائمون بالإحتجاج عادلين أو مفتونين.

هذه الفائدة هى إدخال الإضطرابات والقلق على هذا النّظام وحرمانه من فرص الإستقرار والشّعور بالأمن الّتى تتيح له المضى فى تزوير الشّريعة وإفساد القيم. وتتيح لقوى الخير والحقّ الصّامدة فى الأمّة أن تتنفّس قليلاً، وتمارس دورها فى توعية الأمّة بحرّيّة نسبيّة لم تكن لتتاح لها لو أنّ نظام الفتنة نعم بالسّلام والإستقرار.

وقد كان موقف الإمام إيجابياً من حركات الإحتجاج على نظام الفتنة الّذى سيقوم من بعده، لأنه إذا لم يكن من المتاح- نظراً لما تقضى به حركة التاريخ- انتصار الشّرعية الكاملة فى المدى المنظور، فان من الخير ألا تتاح لنظام الفتنة فرصة للتمكن والإستقرار، ومن الخير أن يبقى نظام الفتنة فى أجواء الخوف والحذر، وحالة الدفاع.ومن هنا كان توجيهه بشأن الخوارج الّذين تمظهرت فيهم الفتنة بمظهر الرّفض المطلق للأنظمة القائمة، ومن ثمّ فهم مؤهلون لأن يشكلوا قوّة مزعجة لنظام الفتنة المنتصر.

لقد نهى الإمام عن قتال الخوارج من بعده، مع إنّه، هو، قاتلهم فى خلافته،- لأنّهم- حين قاتلهم وقتلهم فى النّهروان بعد أن رفضوا كلّ عروض السلام، وبعد أن رفضوا التّخلّى عن مواقفهم- كانوا يمثّلون قوّة هادمة لنظام عادل، أمّا فى نطام الفتنة فإنّهم يمثّلون قوّة شالّة وشاغلة لهذا النّظام الجائر المنحرف عن أن يمارس طغيانه المادّى والسّياسى، وينفذ خطط التّحريف العقيدى والشّرعى. قال عليه‌السلام: «لا تُقاتِلُوا الخوارج بعدى، فليسَ من طلبَ الحقَّ فأخطأهُ كمن طلب الباطِل فأصابهُ». [۴۲۴].

وقد كان عليه‌السّلام يرى الثّورة آتية.

إنّه لا يصف هذه الثّورة بأنّها عادلة مستقيمة، أو ظالمة مفتونة، وإنّما يرى أنّ نظام الفتنة المنتصر لا يتمتّع طويلاً بانتصاره واستقراره، بل ستسلب منه لذّة النّصر وحرّيّة الحركة الّتى يتيحها النّصر والإستقرار السّياسى والإجتماعى، ثورات دامية تتوالى فتقضى فى النّهاية على فتنة بنى أميّة، وتزيل ملكهم.

قال، وهو يحدّث جمهوره عن الفتنة وانتصارها، والمعاناة من ويلاتها وشرورها ...: « ثمُّ يُفرِّجُها اللّه عنكُم كتفرِيج الأديم، [۴۲۵] بِمن يسُومُهُم خسفاً، [۴۲۶] ويسُوقهُم عُنفاً، ويسقِيهِم بكأس مُصبَّرة، [۴۲۷] لا يُعطيهِم إلا السَّيف، ولا يحلِسُهُم إلا الخوف [۴۲۸] فعِند ذلك تودُّ قُريش- بالدُّنيا وما فيها- لو يرونى مقاماً واحِداً، ولو قدر جزر جزُورٍ، لأقبل منهُم ما أطلُب اليوم بعضهُ فلا يُعطُونيه». [۴۲۹].

والإمام يرى أنّ من الهموم الكبرى لنظام الفتنة المنتصر تشتيت القوى السّياسيّة والعقيديّة المناهضة له، سواء أكانت هذه القوة أو تلك قد حافظت على نقائها الإسلامى أو تلوّثت بغبار الفتنة بشكل أو بآخر.

ولكنّه يرى أيضاً أنّ محاولات نظام الفتنة لتشتيت القوى المضادّة له لن تستمر فى النّجاح، فانّ حركة التاريخ تعمل على تجميع هذه القوى من جديد وفقاً لصيغ سياسيّة جديدة، ويكون ذلك إيذاناً بنهاية الإستقرار لنظام الفتنة الأموى.

قال عليه‌السلام ...: « وايمُ اللّه لو فرَّقُوكُم تحتَ كُلِّ كوكبٍ، لجمعكُمُ اللّه لِشرِّ يوم لهُم». [۴۳۰].

وقال عليه‌السلام: «افترقُوا بعد أُلفتِهِم، وتشتَّتُوا عن أصلِهِم، فمنهُم آخِذ بِغُصْنٍ أينما مال مال معهُ على أنَّ اللّه تعالى سيجمعُهُم لِشرِّ يوم لبنى أُميَّةَ، كما تجتمعُ قزَعُ الخريفِ، [۴۳۱] يُؤلِّفُ اللّه بينهُم، ثُمَّ يجمعُهُم رُكاماً كرُكامِ السَّحابِ، [۴۳۲] ثُمَّ يفتحُ لهُم أبواباً يسيلُون من مُستشارِهِم كسيلِ الجنَّتينِ، حيثُ لم تسلم عليهِ قارة، ولم تثبُت عليهِ أكمة، [۴۳۳] ولم يرُدَّ سننهُ رصُّ طودٍ ولا حدابُ أرض، [۴۳۴] يُزعزعُهُم اللّه فى بُطُونِ أوديتهِ [۴۳۵] ثُمَّ يسلُكُهُم ينابيعَ فى الأرضِ، يأخُذُ بِهِم من قومٍ حُقُوقَ قومٍ، ويُمكِّنُ لقومٍ فى ديارِ قومٍ وايمُ اللّه ليذُوبنَّ ما فى أيديهم بعد العُلُوِّ والتمكينِ كما تذُوبُ الأليةُ على النَّارِ». [۴۳۶].

ومن أروع رؤاه لحركة التاريخ فى المستقبل رؤيته لحركة الخوارج التّمرّديّة، وكيف أنّها ستنمو وتتشعب على رغم ما يبدو فى الحاضر من مظاهر اندثارها وانقطاع أصلها، وذلك أنّه لمّا قتل الخوارج قيل له: يا أميرالمؤمنين: هلك القوم بأجمعهم، فقال: «كلّا واللّه. إنَّهُم نُطف فى أصلابِ الرِّجالِ وقراراتِ النِّساءِ [۴۳۷] كُلَّما نجم منهُم قرن قطِع [۴۳۸] حتَّى يكُون آخِرُهُم لُصُوصاً سلَّابين». [۴۳۹].

وهكذا تأتى الثّورة فى أعقاب انتصار الفتنة فتحول بينه وبين الإستقرار، وتحول بين أدواته وبين أن تمكن لمفاهيمها فى الأمّة، وتتيح بذلك فرصاً لقوى الخير الباقية أن تنعم بشىء من الأمان، وأن تقدر على شىء من الحركة يتيح لها إبقاء النّور الصّافى متألقاً فى

ظلمات الفتنة، فی عقول وقلوب کثیرةٍ، بانتظار الأمل الکبیر، والنّصر النّهائی الکبیر.

الامل

الإنسان یعیش فی الحاضر مشدوداً بین وترین: الماضی والمستقبل، فهو لا ینی یحمل الماضی فی وعیهِ، وفی ذاکرته، وفی ترکیب جسده، مثقلاً بأحزانه وأفراحه، ومخاوفه وآماله، مندفعاً بها نحو المستقبل، یضیء عینیه نور الأمل الّذی یغمر قلبه بالحیاة الأفضل. ولکنّه أمل معذب بالحیرة، والقلق، والمخاوف من خیبات الأمل.

وهذه الحقیقة بارزة فی تکوین وحیاة الإنسان الفرد بوضوح، وهی لا تقلّ وضوحاً فی حیاة الأمم والشّعوب والجماعات.

وقد وقف الإسلام فی تعلیمه التّربوی الإیمانی للأفراد فی وجه المیل إلی الإغراق فی الأمل، لأنه حین یشتدّ ویغلب علی مزاج الإنسان یجعله غیر واقعی، ویحبسه فی داخل ذاته، وینمی فیه الشّعور ب «الأنا» علی نحو لا یعود الآخرون موضوعاً لاهتمامه وعنایته أو یجعله قلیل الإهتمام بهم، وهذا أمر مرفوض فی دین یجعل الإهتمام الشّخصی بالآخرین أحد المقوّمات الأساسیّة للشّخصیّة الإنسانیة السّلیمة، ولأنّ الاغراق فی الأمل یحول بین الإنسان وبین کثیر من فرص کثیرة للتّکامل الرّوحی والأخلاقی.

والنّصوص القرآنیّة فی هذا الشّأن کثیرة، کذلک النّصوص النّبویّة الواردة فی السّنّة. وقد حفلت مواعظ الإمام علیّ فی نهج‌البلاغة بالتّحذیر من الإسترسال مع الآمال. [۴۴۰].

وهذا لا یعنی- بطبیعة الحال- أنّ تأمیل الإنسان فی مستقبله- باعتدال وواقعیة-ممارسة غیر أخلاقیة فی الإسلام، کیف وقد حذّر اللّه تعالی فی القرآن الکریم من الیأس ونهی عنه فی آیات تذکر برحمة اللّه ورَوح اللّه، ومن ذلک تعلیم یعقوب سلام اللّه علیه لبنیه حین أمرهم بالبحث عن یوسف واخیه، وذلک کما ورد فی قوله تعالی: «یا بنِیَّ اذهبُوا فتحسَّسُوا مِن یُوسُف وأخیهِ ولا تیأسُوا مِن روحِ اللّه. إنَّهُ لا ییأسُ مِن روحِ اللّه إلا القومُ الکافِرُون». [۴۴۱].

فإنّ یعقوب طبق مبدأ مشروعیّة الأمل العام المطلق علی حالة فردیة هی حالته وحالة بنیه.

وإذن، فالأمل، فی نطاق الواقع، حقیقة کیانیّة فی الإنسان، قد یکون فقدانها ظاهرة مرضیّة نفسیّة ولیس علامة عافیة.

هذا علی الصّعید الفردی.

وأمّا علی الصّعید الجماعی فی الأمم والشّعوب والجماعات فان الأمل عامل هامّ جداً وأساسی فی تنشیط حرکة التّاریخ وتسریعها، وجعلها تتغلب بیسر علی ما یعترضها من صعوبات ومعوّقات.

والأمل الموضوعی القائم علی اعتبارات عملیة تنبع من الجهد الإنسانی، واعتبارات عقیدیّة وروحیّة ... هذا الأمل یشغل حیزاً هامّاً وأساسیّاً فی تربیة اللّه تعالی للبشریّة السّائرة فی حیاتها علی خط الإیمان السّلیم.

وقد اشتمل القرآن الکریم علی آیات محکمات تتضمن وعد اللّه تعالی بالنّصر والعزّة لأهل الإیمان وقادتهم من الأنبیاء والتّابعین لهم بإحسان.

قال اللّه تعالی: «إنَّا لننصُرُ رُسُلنا والَّذینَ آمنُوا فی الحیاةِ الدُّنیا ویوم یقُومُ الأشهادُ». [۴۴۲].

وقال تعالی: «ولقد کتبنا فی الزَّبُور من بعدِ الذِّکرِ أنَّ الأرض یرِثُها عبادیَ الصَّالِحُون». [۴۴۳].

وقال تعالی: «إنّ الأرض للّه یُورِثُها من یشاءُ مِن عبادِهِ والعاقِبةُ للمُتَّقینَ». [۴۴۴].

وقد وجّه اللّه تعالی فی القرآن الکریم رسوله محمداً (ص) والمسلمین إلی أنّ الأمل بالنّصر والحیاة الأفضل یجب أن یبقی حیّاً نابضاً دافعاً إلی العمل حتّی فی أحلک ساعات الخذلان والهزیمة وانعدام النّاصر ... لقد کانت الآمال بالنّصر تتحقّق فی النّهایة علی أروع صورها حین یخالج الیأس قلوب أهل الإیمان، وحین یصل الرّسل الکرام إلی حافة الیأس: «ومَا أرسلنَا مِن قبلِک إلا رِجالاً نُوحی إلیهِم مِن أهلِ القُری أفلم یسیرُوا فی الأرضِ فینظُرُوا کیف کان عاقِبةُ الذینَ من قبلِهم. ولدارُ الآخِرةِ خیر للذَّینَ اتقوا، أفلا تعقِلُونَ. حتَّی إذا

استیئس الرُّسُلُ، وظنُّوا أنَّهُم قـد کُـذِبُوا جاءهُم نصـرُنا، فنُجِّی من نشاءُ، ولا یُردُّ بأسُـنا عنِ القومِ المُجرمینَ. لقـد کان فی قصصِهِم عِبرة لأُولی الألبابِ، ما کان حدِیثاً یُفتری، ولکِن تصدِیق الذی بین یدیه. وتفصیلَ کُلِّ شیءٍ، وهُدیً ورحمةً لِقومٍ یؤمِنُونَ». [۴۴۵].

إن الأمل الجماعی بمستقبل أکثر إشـراقاً وأقلّ عـذاباً، أو مسـتقبل مترع بالفرح خال من المنغصات ... إنّ هذا الأمل یسـتند إلی «وعد إلهی»، فهو، إذن، لیس مغامرهٔ فی المستقبل، وإنما هو سیر نحو المستقبل علی بصیرهٔ.

وهو أمـل یرفض الواقع التّجریبی الحافـل بالمعوّقـات نحو مسـتقبل مثـالی مشـروط «بالعمل» المخلص فی سبیل اللّه، وفی سبیل اللّه بناء الحیـاهٔ، وعمـارهٔ الأرض، وإصـلاح المجتمع. کما أنّ هـذا المسـتقبل مشـروط «بالصّبر» علی الأذی فی جنب اللّه،و «الصـدق» فی تناول الحیاهٔ والتعامل معها ومع المجتمع و «الرّضا» بقضاء اللّه تعالی.

والسّنّهٔ حافلهٔ بالنّصوص الّتی تغرس فی قلب الإنسان روح الأمل، وتملأ وعیه ببشائر المستقبل الأفضل، استناداً إلی وعد اللّه تعالی.

والتّأمّل العمیق الواعی فی نصوص الکتاب الکریم والسّنّهٔ الشّریفهٔ الّتی تفصح عن العلاقـهٔ بین اللّه والإنسان، وتکشف عن طبیعهٔ هذه العلاقـهٔ ... کـذلک التّأمّل فی الفقه المبنی علی هـذین الأصـلین ... إنّ هـذا التأمّل یکشف عن أنّ العلاقـهٔ بین اللّه والناس مبنیّهٔ علی ثلاث حقائق ربّانیّهٔ یقوم علیها وجود المجتمع البشری، ودیمومته، ونموّه وتقدّمه:

۱- الحقیقهٔ الأولی هی الإنعام المطلق غیر المشـروط بشیء علی صعید الشّروط المادّیّهٔ للحیاهٔ بما یکفل لها الدّیمومهٔ والنموّ التّصاعدی نحو الأفضـل، فقـد خلق اللّه الإنسـان، وزوّده بـالمواهب العقلیّهٔ والنّفسیّهٔ والرّوحیّهٔ، الّتی تتیـح له أن یتعامـل مع الطّبیعـهٔ المسـخّرهٔ له، وتمکنه من اکتشاف خیراتها وکنوزها، ومعرفهٔ قوانینها وتوجیه هذه الإکتشافات والمعارف لخدمهٔ نفسه ونوعه.

۲- الحقیقـهٔ الثّانیـهٔ هی الرّحمهٔ الّتی «کتبها اللّه علی نفسِهِ» [۴۴۶] والّتی «وسـعت کلّ شیء»، [۴۴۷] وإقالهٔ العثرات- علی صـعید الأمم والجماعات والمجتمعات، والأفراد -، والتّجاوز عن الخطایا والسّیئات، ومنح الفرص المتجدّدهٔ لتصـحیح السّلوک، وتقویم الإعوجاج، والتّوبهٔ والإنابهٔ إلی اللّه تعالی والعمل بقوانینه وشرائعه.

وهذه الحقیقهٔ نابعهٔ من معادلهٔ تقابل بین حقیقتین کونیّتین:

أ- خیریهٔ اللّه الشّاملهٔ المطلقهٔ.

ب- الحقیقهٔ الموضوعیّهٔ الثّابتهٔ فی الفکر الإسلامی، وهی أنّ الإنسان خُلِق ضعیفاً. [۴۴۸].

وما یخالف هذه الحقیقهٔ من الآلام والکوارث فهو علی قسمین:

الاوّل- ناشـئ عن عمل الطّبیعهٔ وقوانینها، وهی قوانین تعمل، فی غرضها الأقصی، لخیر الجنس البشری بصورهٔ شاملهٔ وغیر مقیّدهٔ بزمان أو رقعهٔ جغرافیّهٔ، وهذا ما یجعلها قوانین عادلهٔ وإن أصابت بالآلام بعضاً من البشر فی زمان بعینه أو مکان بعینه.

وهـذا بالنّسبهٔ إلی الکوارث الطّبیعیـهٔ الّتی تحصل بغیر تـدخل من الإنسان أو تقصـیر منه. أمّا ما یحدث فی الطّبیعهٔ نتیجهٔ لعمل الإنسان نفسه أو سـلبیّته، أو عدم التزام بالقوانین (فی عصـرنا الحاضـر: تلویث البیئهٔ، مثلاً، أو روح الإستغلال والعدوان فی المجتمعات الصّناعیّهٔ ضدّ العالم الثّالث، مثلاً ...) هذا النّوع من الکوارث یدخل فی القسم الثّانی التّالی.

الثّانی- ناشئ عن سوء اختیار الإنسان، واستعجاله الخیر قبل توفّر شروطه ونضجها، ومن عدوان بعضه علی بعض.

۳- الحقیقـهٔ الثّالثهٔ هی البشـارهٔ من اللّه تعـالی بـأن أمور الحیـاهٔ والمجتمع تصـیر إلی أفضل وأحسن ممّا علیه فی الحاضـر. ولکن هـذه البشـارهٔ لا تتحقّق بطریقـهٔ إعجازیّـهٔ محضـهٔ. إنّ تحقیق البشارهٔ یتمّ وفاء بالوعـد الإلهی، ومن ثمّ ففیها عنصـر غیبی غیر تجریبی، ولکن تحقیقها مشـروط بالعمل البشـری: «إنَّ هـذا القُرآن یهدی لِلّتِی هی أقومُ ویُبشِّرُ المُؤمِنین الّذین یعملُون الصَّالِحاتِ أنَّ لهُم أجراً کبیراً». [۴۴۹].

«والَّذِین اجتنبُوا الطَّاغُوت أن یعبـدُوها وأنـابُوا إلی اللّه لهُمُ البُشـری، فبشِّر عِبـادِ الَّذین یسـتمِعُون القولَ فیتَّبِعُون أحسـنهُ، أُولئـک الَّذین هداهُمُ اللّه،وأولئکَ هُم أُولُو الألبابِ». [۴۵۰].

...« وبشِّرِ المُؤمِنينَ بأنَّ لهُم من اللّه فضلاً كبيراً». [۴۵۱].

من هذا المنطلق الثّابت فى الفكر الإسلامى، ومن البشائر المحدّدة فى الكتاب الكريم والسّنة النّبويّة بفرج شامل آت فى «النهاية» يملأ عدلاً بعد ما ملئت ظُلماً وجوراً ... من هذا المنطلق، ومن هذه البشائر كان أميرالمؤمنين علىّ بن أبى‌طالب عليه‌السّلام يرى نور الأمل فى المستقبل، وكان يبشّر بأنّ فرجاً آتياًلا ريب فيه: إنّ حركة التاريخ تقضى به، وإنّ وعد اللّه يقضى به، واللّه لا يخلف الميعاد.

وقد كانت رؤية الإمام لحركة التاريخ فى المستقبل لا- تقتصر على رؤية النّكبات والكوارث- كما توحى بذلك كثرة النّصوص الحاكية عن ذلك فى نهج‌البلاغة- وإنّما تشمل البشائر أيضاً، وقد تقدّم فى الحديث عن (المعاناة) وعن (الثورة) بعض النّصوص الدّالّة على ذلك.

وكانت رؤية الإمام دقيقة، محدّدة، مضيئة، واضحة المعالم، فى نطاق الخطوط الكبرى والتّيارت الأساسيّة لحركة التاريخ، وإن لم تشتمل على التّفاصيل، من ذلك هذا الشاهد على رؤيته لحركة الثّورة العادلة الّتى لا تنطفئ مهما تكالبت عليها الرّياح الهوج، فقد قال له بعض أصحابه، لما أظفره اللّه بأصحاب الجمل: «وددت أنّ أخى فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك اللّه به على أعدائك» فقال له الإمام (ع): «أهوى أخِيك معنا؟ [۴۵۲] فقال: نعم. قال: فقد شهِدنا فى عسكِرنا هذا أقوام فى أصلاب الرِّجال وأرحامِ النِّساء سيرعفُ بهِمُ الزَّمانُ [۴۵۳] ويقوى بهمُ الإيمانُ». [۴۵۴].

هذا الأمل الكبير الآتى الّذى يبشّر به الإمام عليه‌السّلام يتمثّل فى قيام ثورة عالميّة تصحّح وضع عالم الإسلام، ومن ثمّ وضع العالم كلّه، يقودها رجل من أهل البيت هو الإمام المهدى. وقد وردت فى نهج‌البلاغة نصوص قليلة نسبيّاً تحدّد بعض ملامح هذا الأمل، فمن ذلك قوله عليه‌السّلام ...: « حتَّى يُطلِع اللّه لكُم من يجمعُكُم، ويضُمُّ نشرَكُم» [۴۵۵] [۴۵۶].

والعقيدة بالمهدى عقيدة إسلاميّة ثابتة أجمع عليها المسلمون بأسرهم، ودلّ عليها القرآن الكريم فى جملة آيات، والسّنّة الشّريفة فى مئات الأحاديث المتواترة عن رسول‌اللّه (ص) وأئمة أهل البيت. قال ابن أبى‌الحديد فى التّعليق على النّصّ الآنف: «ثم يطلع اللّه لهم من يجمعهم ويضمهم، يعنى من أهل البيت عليه‌السّلام. وهذا إشارة إلى المهدىّ الّذى يظهر فى آخر الوقت. وعند أصحابنا إنّه غير موجود الآن وسيوجد، وعند الإمامية إنّه موجود الآن». [۴۵۷].

وقال ابن أبى‌الحديد فى التّعليق على نصّ آخر مماثل للنّصّ الآنف: «فإن قيل: ومن هذا الرّجل الموعود الّذى قال عليه‌السّلام عنه (بأبى ابن خيرة الإماء)؟ قيل: أمّا الإمامية فيزعمون أنّه إمامهم الثّانى عشر، وأنه ابن أمة اسمها نرجس، وأمّا أصحابنا فيزعمون أنّه فاطمى يولد فى مستقبل الزّمان لأم ولد [۴۵۸] وليس بموجود الآن». [۴۵۹].

ومن النّصوص الّتى اشتمل عليها نهج‌البلاغة فى هذا الشأن قول الإمام: «ألا وفى غدٍ- وسيأتى غد بما لا تعرِفُون- يأْخُذُ الوالى من غيرِها عُمَّالها على مساوئ أعمالِها، وتُخرِجُ لهُ الأرضُ أفاليذ كبدِها، [۴۶۰] وتُلقى إليه سِلَماً مقاليدها، فيُريكُم كيف عدلُ السِّيرةِ، ويُحيِى ميِّتَ الكِتابِ والسُّنَّةِ». [۴۶۱].

هذا الأمل المضىء فى الظلمات ليس أملاً قريباً إذا نظرنا إليه بمنظار آمال الأفراد- كل واحد بخصوصه-، فقد يمضى الموت بالأفراد دون أن تكتحل عيونهم بفجر هذا الأمل ... إنّه بالنّسبة إليهم- كأفراد- بعيد ... بعيد. كذلك هو أمل بعيد بالنّسبة إلى كلّ مجتمع بمفرده وخصوصه، فقد تمضى القرون على مجتمع دون أن يحقّق فى نظامه، ومؤسّساته هذا الأمل العظيم ... ولكنّ هذا الأمل على مستوى النّوع البشرى كلّه أمل قريب، لأنّ الأحداث الّتى تغيّر مسار الجنس البشرى كلّه لا- تقاس بأعمار الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات ولا بالحركة التاريخيّة فى هذا النّطاق أو ذاك أو ذيّاك، وإنّما تقاس بما تناسب مع حجم النّوع الإنسانى كلّه، ومع حركة التّاريخ العالمى كلّها ... إنّ ألف سنة، مثلاً، فى عمر فرد زمن كبير طويل ... كذلك الحال بالنّسبة إلى عمر حركة تاريخيّة فى مجتمع من المجتمعات، ولكن ألف سنة فى عمر البشرية كلّها زمن قصير بالنّسبة إلى فترات التّحوّل التّاريخيّة الكبرى الّتى أدخلت تغييراً أساسيّاً على المسار التّاريخى للجنس البشرى كلّه، فنقلته من مستوى معين إلى مستوى أعلى منه مرتبة ونوعيّة. إنّ فترات التّحوّل

التّاريخيّة الكبرى- كما نعلم- تستغرق ألوف السّنين، أو- بالأحرى- عشرات الألوف من السّنين ... إنّها حركة التّاريخ الكبرى. [۴۶۲].

وفى انتظار أن تنجز حركة التّاريخ الكبرى عملها فى نقل الإنسانيّة إلى مستوى أعلى لم تفلح فى بلوغه من قبل.. فى انتظار ذلك تستمر حركة التاريخ فى دوائرها الصّغرى فى العمل على تغيير حال البشر: أفراداً، وجماعات، ومجتمعات، ومجموعات إقليميّة.

إنّ حركة التّاريخ فى دوائرها الصّغرى تغيّر الإنسان نحو الأفضل على الصّعيد المادّى كما يثبت ذلك الواقع التّجريبى، ولكنّها لا تغيّره نحو الأفضل دائماً على الصّعيد المعنوى والأخلاقى، بل قد تعود به إلى الوراء كما يثبت الواقع التّجريبى أيضاً، وبالنّسبة إلى كثير من مظاهر حضارة عصرنا بشكل خاص.

والمسؤول عن التّخلف المعنوى للبشر ليس القدر، إنّه إرادة البشر أنفسهم، فإنَّ العالم الأخلاقى لدى الفرد والمجتمع ليس عالماً معطى وجاهزاً يأخذه الناس كما يستعملون الوصفات الطّبيّة أو المعادلات الرّياضيّة، إنما يتم بناؤه بالمعاناة اليوميّة للناس مع شهواتهم ورغائبهم الشّريرة، ومجاهدتهم لأنفسهم من أجل التغلب عليها. إنّ العالم الأخلاقى ليس سهل البناء كالعالم المادى التّجريبى، لأنّه تجاوز الإنسان لنفسه باستمرار نحو إنسانيّة أغنى وأعلى، ومن هنا فإنّ العالم الأخلاقى يبنى التّعامل مع المستحيل، وكأنّه ممكن، إنّه فى التكوين دائماً، لأنّ الإنسان كلّما بلغ ذروة جديدة فى تكامله المعنوى لاحت لعينيه ذروة أسمى وأعلى.

وإذن، فالبشر، بانتظار أن يتحقّق هذا الأمل العظيم، لا يجوز أن يجمدوا وإنّما عليهم أن يتحركوا فى أطر دوائر التاريخ الصّغرى نحو بلوغ ذرى إنسانيّة جديدة أعلى مما بلغوه فى كفاحهم الدّائب نحو مزيد من الكمال والنّور.

وإذن، فالمسلمون، باعتبار أنّ هذا الأمل العظيم سيتحقّق بإذن اللّه فى نطاقهم بما هم جماعة بشريّة عقيديّة ومن خلال الإسلام نفسه بما هو دينهم ...، المسلمون ينتظرون هذا الأمل العظيم قبل غيرهم من الجماعات العقيديّة فى المجتمع البشرى.

وقد ارتكز فى أذهان الكثيرين ممّن عالجوا موضوع المهدىّ والمهدويّة أنّ هذا المعتقد ... هذا الأمل العظيم الثّابت بمقتضى وعد اللّه فى الكتاب والسّنّة، والثّابت بمقتضى حركة التاريخ الكبرى ... أنّ هذا المعتقد عامل سلبى فى حركة التّقدّم والنّموّ يعوّقها، ويبعث على السكون، ويقعد بالناس عن الحركة والسّعى نحو التّكامل المادى والمعنوى فى انتظار أمل آتٍ ينقذ البشر بالمعجزة، ينقذ البشر بغير جهد البشر.

وربّما تكون بعض المظاهر فى تاريخ عالم الإسلام تعزز هذا الإتهام ولكنّ الحقيقة هى أنّ هذا اللون من الإنتظار السّلبى المريض دخل على ذهنيّة الإنسان نتيجة لانتكاس حضارى تسلّل إليه من بعض الثّقافات الأجنبيّة عن الإنسان، فشلّ قدرته على العمل، لأنّه شلّ إرادته وفعاليته وحولّه إلى حياة التّأمّل والقناعة والإستسلام.

أمّا الحقيقة فهى على خلاف ذلك، إنّ الإنتظار- نتيجة لهذا المعتقد- هو انتظار إيجابى فعّال، هو تهيّؤ واستعداد، هو كدح دائم ومستمر يجب أن يطبع حركة تاريخ الإنسان المسلم نحو توفير أفضل الشّروط الّتى تهيّئ لهذا الأمل العظيم أحسن ظروف النّجاح والتّحقّق.

لقد رأينا أنّ حركة التّاريخ فى دوائرها الصّغرى لا تتوقّف، ونوع هذه الحركة- تقدّميّة صاعدة أو رجعيّة هابطة (على صعيد المعنويّات والأخلاق)- يتوقف على إرادة البشر أنفسهم، فهم الّذين يبنون عالمهم الأخلاقى الأمثل وهو لا يبنى إلا بالعمل الإيجابى الّذى يحرّكه الطموح نحو إنسانيّة أفضل.

سلام اللّه على محمّد وآله الطاهرين، وصحبه الّذين اتبعوه بإحسان إلى يوم الدّين. وسلام اللّه على أشهر المؤمنين الإمام علىّ أميرالمؤمنين.

والحمد للّه ربّ العالمين.

پاورقی

[۱] سورة القَصص (رقم۲۸ مکّیة) الآیة: ۷۷.

[۲] سورة الاعراف (رقم۷ مکیة) الآیات: ۳۳-۳۱.

[۳] قال المسعودی فی تقریره عن النشاط الیومی لمعاویة بن أبی‌سفیان ... « ویستمرّ إلی ثلث اللّیل فی أخبار العرب وأیامها والعجم وملوکها وسیاستها لرعیتها، وسیر ملوک الأمم وحروبها ومکایدها. وسیاستها لرعیتها وغیر ذلک من أخبار الأمم السالفة ... ثم یقوم فیقعد فیحضر الدفاتر فیها سیر الملوک وأخبارها، والحروب والمکاید. فیقرأ ذلک علیه غلمان له مرتّبون وقد وکلوا بحفظها وقراءتها، فتمرّ بسمعه کل لیلة جمل من الأخبار والسیر والآثار وأنواع السّیاسات - ... مروج (... بتحقیق محمّد محیی الدین عبد الحمید)- مطبعة السّعادة- الطّبعة الثّانیة ۱۳۶۷) هجری-۱۹۴۸ م) الجزء الثّالث- ص ۴۰.

[۴] قال ابن أبی‌الحدید فی شرح نهج‌البلاغة: -۵۲/۱۶ أمّا قوله «کتبها إلیه بحاضرین» فالّذی کنّا نقرؤه قدیماً، «کتبها إلیه بالحاضرّینِ» علی صیغة التّثنیة، یعنی حاضر حلب وحاضر قنسرین، وهی الأرباض والضواحی المحیطة بهذه البلاد، ثم بعد ذلک علی جماعة من الشیوخ بغیر لام، ولم یفسّروه، ومنهم من یذکره بصیغة الجمع لا بصیغة التّثنیة، ومنهم من یقول: خناصرین یظنونه تثنیة خناصرة أو جمعها. وقد طلبتُ هذه الکلمة فی الکتب المصنفة سیّما فی البلاد والأرضین فلم أجدها، لعلی أظفر بها فیما بعد فألحقها فی هذا الموضع. قال الشیخ محمد عبده فی شرحه: حاضرین: اسم بلدة بنواحی صفّین.

[۵] من مقدَمة الشّریف الرّضی لنهج‌البلاغة.

[۶] من مقدَمة الشّریف الرّضی لنهج‌البلاغة.

[۷] ابن سعد: الطبقات الکبری ج۲ قسم۲ ص ۱۰۱ والمتقی الهندی: کنز العمال-۳۹۶/۶ وقال: أخرجه ابن سعد وابن عساکر، وقالوا (لِسَاناً طَلِقاً سَؤولاً) وأبونعیم: حُلیة الأولیاء ۶۷: ۱.

[۸] أبونعیم: حلیة الأولیاء: ۶۵: ۱.

[۹] أسد الغابة ۲۲: ۴ والإستیعاب: ۴۶۲: ۲.

[۱۰] کنز العمال ۱۵۳: ۶ وفتح القدیر: ۴۶۵: ۴.

[۱۱] تاریخ بغداد: ۱۵۸: ۴.

[۱۲] کنز العمال: ۳۹۲: ۶.

[۱۳] اندمجتُ: انطویتُ، کنایة عن معرفته بأمور خاصة جداً.

[۱۴] الأرْشِیة: جمع رشاء، الحبل. والطّوی جمع طویة وهی البئر.

[۱۵] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم: ۵.

[۱۶] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم: ۱۶.

[۱۷] طُوی: حُجب عِلمُه عَنکُمْ.

[۱۸] الصِّعُدات: جمع صَعید. یُریدُ: لَذهبتْ عنکم الدّعةُ والإستقرارُ فی منازِلکم وخرجتُم مِنها قلقینَ علی مَصیرِکم.

[۱۹] نهج‌البلاغة- رقم الخطبة: ۱۱۶.

[۲۰] نهج‌البلاغة- رقم الخطبة: ۱۲۸.

[۲۱] محمّد مهدی شمس الدّین: دراسات فی نهج‌البلاغة (الطّبعة الثّالثة) بیروت ص۲۴۷.

[۲۲] الحبرة: بالفتح- النّعمة.

[۲۳] حائلة: متغیرة.

[۲۴] نافدة: فانیة.

[۲۵] غوّالة: مهلكة.

[۲۶] الهشيم: النبت اليابس.

[۲۷] سورة الكهف (رقم۱۸ مكيّة) الآية: ۴۵.

[۲۸] البطن كناية عن إقبال الدّنيا، والظّهر كناية عن الإدبار.

[۲۹] الطلّ: المطر الخفيف. والدّيمة: مطر يدوم فى سكون لا يرافقه رعد وبرق.

[۳۰] هتنت: إنصبّت.

[۳۱] أوبى: صار كثير الوباء.

[۳۲] الغضارة: النّعمة، والرّغَب: الرغبة، والمرغوب فيه.

[۳۳] القوادِم: جمع قادِمة، ريش فى مقدم جناح الطائر.

[۳۴] يُوبِقهُ: يُهلكهُ.

[۳۵] أبّهة: عظمة.

[۳۶] النّخوة: الإفتخار.

[۳۷] دُوَّل- بضم الدال- المنحول.

[۳۸] الريق: الكدر.

[۳۹] أجاج: شديد الملوحة.

[۴۰] الصّبر: عصارة الشّجر المرّ.

[۴۱] سمام: جمع سم، وهو مثلث السين.

[۴۲] الرّمام: جمع رمّة- بالضم، القطعة البالية من الحبل، ومنه (ذُو الرّمّة).

[۴۳] موفورها..: من كان عنده وفر (كثرة) من الدنيا معرض للمصائب والنّكبات.

[۴۴] محروب: المحروب من سلب مالُه.

[۴۵] ظهر قاطع: وسيلة تقطع براكبها الطريق بأمان وتبلغه غايته.

[۴۶] لم تدفع عنهم الدّنيا بلاء الموت.

[۴۷] أرهقتهم: أتعبتهم. والقوادِح: جمع قادح، مرض يصيب الأسنان والشجر. أراد به هنا المصائب والنكبات.

[۴۸] الوهق: حبل تصطاد به الفريسة، والقوارع: المحن. أراد أنهم أسرى مشاكلهم المادية والإجتماعية.

[۴۹] ضعضعتهم: جعلتهم قلقين، وحرمتهم الإستقرار وطنب العيش.

[۵۰] عفرتهم: العفر التراب، مرغت آنافهم بالتّراب، كناية عن إذلالِهم.

[۵۱] المنسم: خف البعير، كناية عن إذلالهم.

[۵۲] دان: خضع.

[۵۳] أخلد: إطمأنَ.

[۵۴] سورة فُصّلت (رقم۴۱ مكّية) الآية: ۱۵.

[۵۵] لا يُدعَونَ رُكباناً لأنّهم مقهُورون ولم يُحملوا مختارين. ولا يُدعون ضيفاناً لأنّهم يُقيمون فى قبورهم.

[۵۶] الاجداث: القبور.

[۵۷] الصفيح: الوجه من كل شيء له مساحة، والمراد هنا الارض.

[۵۸] أجنان: جمع جنن- بالفتح- القبر.

[۵۹] نهج‌البلاغة- رقم الخطبة: ۱۱۱.

[۶۰] «أهل البصائر» تعبير إسلامى يعود إلى صدر الإسلام، يعنى به المومنون الواعون الّذين يتخذون مواقفهم السّياسّية وغيرها نتيجة لقناعات مستوحاة من المبدأ الإسلامى، ولا تتصل بالإعتبارات النفعية.

ومن المؤكد أنَّ هذا التعبير غدا فى وقت مبكر جداً مصطلحاً ثقافياً إسلامياً يعنى: الفئة المؤمنة الواعية للإسلام على الوجه الصحيح، والملتزمة بالإسلام فى حياتها بشكل دقيق، بحيث أنّها تتخذ مواقف مبدئية من المشاكل الاجتماعية والسّياسّية الّتى تواجهها فى الحياة والمجتمع، فلا تصغى إلى الإعتبارات الشخصية والقبليّة كما أنها لا تقف على الحياد أمام هذه المشكلات، وإنّما تعبّر عن التزامها النظرى بالممارسة اليومية للنضال ضد الإنحرافات.

راجع بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع فى كتابنا «أنصار الحسين: الرّجال والدلالات» - الطّبعة الأولى- دار الفكر- سنة/۱۹۷۵ فصل «النخبة» ص ۱۷۰-۱۶۵.

[۶۱] «أيام اللّه» مصطلح ثقافى إسلامى، يغلب استعمالُه للدّلالة على الكوارث الكبرى الّتى أصابت الشعوب والجماعات نتيجة لانحرافها فى العقيدة والشريعة والأخلاق، وقد يستعمل للدّلالة على الإنتصارات الكبرى التى أحرزها المؤمنون فغيّرت مجرى التاريخ أو مجرى تاريخ جماعة مؤمنة أو شعب مؤمن.

[۶۲] العصران: هما الغداة والعشى.

[۶۳] نهج‌البلاغة- باب الكتب/ الكتاب رقم۶۷.

[۶۴] «.. فَخلَفَ مِن بعدِهِم خلف ورِثُوا الكِتابَ يَأخُذُونَ عرَضَ هذا الأدنى ويقُولُون سيُغفَرُ لَنا »....

[۶۵] محمد بن يعقوب الكلينى: الكافى ج۱ ص ۳۴.

[۶۶] نهج‌البلاغة، باب الحكم، رقم ۵۴ و۱۱۳.

[۶۷] نهج‌البلاغة، باب الحكم، رقم ۵.

[۶۸] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم۷۷.

[۶۹] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم ۳.

[۷۰] نشير هنا إلى أنّ بعض دُور النشر الكبرى فى بعض البلاد العربية، ومنها ما هو تابع لمؤسسات ثقافية رسميّة، نشر كتباً فى الفكر الإسلامى تحت عنوان (تراثنا) أو (سلسلة التراث) وغير ذلك من العناوين.هذا وعلينا أن نتبّه هنا إلى أنّه ليس كلّ من استعمل كلمة (تراث) فى الدّلالة على الفكر الإسلامى يحمل على الفكر الإسلامى هذه النظرة، فثمة مفكرون وباحثون مسلمون مخلصون استعملوا كلمة (تراث) فى الدّلالة على الفكر الاسلامى دون أن يقصدوا بها موقفاً فكرياً من (الفكر الإسلامى) يضعه فى (التراث) بالمعنى الحضارى، وإنّما قصدوا بالتعبير مجرّد الدّلالة اللّغوية.

[۷۱] سورة البقرة (مدنيّة-۲) الآية: ۲۱۳.

[۷۲] سورة المائدة (مدنيّة- ۵) الآيات: ۳۱-۲۷.

[۷۳] اجتالتهم: صرفتهم عن اللّه.

[۷۴] واتر: تابع.. أرسل الأنبياء يتبع أحدهم الآخر.

[۷۵] المحجة: الطريق المستقيمة الواضحة، يريد هنا الشّريعة الّتى تتبع.

[۷۶] نهج‌البلاغة- الخطبة الأولى.

[۷۷] السّمة: العلامة، والمراد علامات النّبىّ محمّدٍ الّتى بشّر بها الأنبياء السابقون.

[۷۸] نهج‌البلاغة- الخطبة الأولى.

[۷۹] المقطع: النّهاية الّتى ليس عليها مزيد. أى أنّ أعذار اللّه وأنذاره تلقيا نهايتهما برسالة محمد (ص).

[۸۰] نهج‌البلاغة- خطبة الأشباح، رقم: ۹۱.

[۸۱] الأوصاب: المَتاعِب.

[۸۲] نهج‌البلاغة: الخطبة الأولى.

[۸۳] سورة الأعراف (مكية-) ۷ الآية: ۱۷۳-۱۷۲.

[۸۴] نهج‌البلاغة- الخطبة الأولى.

[۸۵] الحاطب هو الّذى يجمع الحطب، يقال لمن يأخذ بالصّواب والخطأ دون تمييز: حاطب ليلٍ، شبه للفتنة باللّيل الّذى تلتبس فيه الأشياء لظلامه حيث أنّ الحق يلتبس فيها بالباطل.

[۸۶] استزلَّتهم: أوقعتهُم الكبرياءُ فِى الزّللِ والسّقوطِ، يعنى بذلك فساد حياتهم الإجتماعية.

[۸۷] استَخفَّتهُم: جَعلتهُم طائشينَ مُندفِعينَ وراء شهواتِهم الجسدية والنفسية دون كابح ورادع.

[۸۸] نهج‌البلاغة، رقم الخطبة: ۹۵.

[۸۹] انجذم: انقطع.

[۹۰] السّارية: هى العمود، يدعم بها السقف، والجمع سوارٍ.

[۹۱] النّجر: الأصل، ومثله: النجار.

[۹۲] درست واندرست بمعنى زالت وانطمست. والشّرك- بضم الرّاء-جمع شراك، وعفت شركه بمعنى انطمست.

[۹۳] المناهل: جمع منهل، مورد النهر.

[۹۴] الأخفاف جمع خُفّ، وهو للبعير كالقدم للإنسان، والأظلاف جمع ظِلْف للبقر والشّاء. والسّنابك جمع سُنبك: طرف الحافر.

[۹۵] نهج‌البلاغة، رقم الخطبة: ۲.

[۹۶] الضّغائن: الأحقاد المكتومة.

[۹۷] الثّوائر: الأحقاد المتفجّرة فى أعمال عدائية عنفية ومعارك.

[۹۸] نهج‌البلاغة، رقم الخطبة ۹۶.

[۹۹] منيخون: مقيمون.

[۱۰۰] خشن: من الخشونة. والحيّات الصّم أخبث أنواع الحيّات. كنى عن صعوبة مناخ البادية وقساوة العيش فيها.

[۱۰۱] الكَدِر: الماء الّذى يخالطه الطين وغيره، والجَشب من الطعام: الغليظ الخشن كناية عن بؤس حياتهم وفقرها، وانعدام وسائل الراحة فيها.

[۱۰۲] معصوبة: مشدودة، كناية عن استمرارهم على المعصية.

[۱۰۳] نهج‌البلاغة: رقم الخطبة ۲۶.

[۱۰۴] الحسير هو الّذى أصابه الإعياء والتعب. والكسير المكسور الّذى لا يقوى على السير، يريد أنّ النبى كان تحريضه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين يلاحظ حال من حدثت عنده شبهة أو خالط قلبه ريب فى الدّين فلا يزال يرشده برفق وحب حتى يزيل من قلبه الريب ويجلو عن عقله الشبهة.

[۱۰۵] منجاتهم: ما به نجاتهم وهو الإسلام.

[۱۰۶] محلتهم: مركزهم فى المجتمع العالمى، وكونهم ذوى رسالة عالمية هى الإسلام.

[۱۰۷] استدارة الرّحى كناية عن وفرة الأرزاق. واستقامة القناة كناية عن صلاح الحال واستقرار الحياة.

[۱۰۸] نهج‌البلاغة: رقم الخطبة ۱۰۴.

[۱۰۹] سورة إبراهيم (مكيّة-۱۴) الآية: ۵.

[۱۱۰] سورة النّورة (مدنيّة- ۲۴) الآية: ۳۶ و۳۷.

[۱۱۱] ناجاهم: خاطبهم بالإلهام.

[۱۱۲] استصبح: أضاء مصباحه.

[۱۱۳] نهج‌البلاغة: رقم النص ۲۲۲.

[۱۱۴] قثم بن العباس بن عبدالمطلب. كان من مساعدى الإمام على (ع) فى تجهيز رسول‌اللّه (ص) ودفنه، وهو آخر من خرج من القبر الشريف، ولاهُ أميرالمؤمنين على مكة، فلم يزل والياً عليها إلى أن استشهد الإمام، واستشهد قثم بسمرقند، كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية، وقبره فى سمرقند مشهور. وقد زرناه أثناء مشاركتنا فى المؤتمر الدّينى.

[۱۱۵] نهج‌البلاغة: (باب الكتب) رقم النص ۶۷.

[۱۱۶] الخطبة القاصعة رقمها فى نهج‌البلاغة: ۱۹۲.

[۱۱۷] سورة فصّلت (مكّيّة-) ۴۱ الآية: ۱۵ فأمَّا عاد فاستكبرُوا فِي الأرضِ بِغيرِ الحقِّ وقالُوا: مَن أشدُّ مِنَّا قُوَّةً.

[۱۱۸] من الظواهر الهامة الّتى نقدّر أنّها تستحق من المفكرين والمؤرخين بحثاً معمقاً، ظاهرة الإنقسامات الإقليمية فى العالم العربى، فإنّنا نقدّر أنّها تعبير جديد عن القبلية، تحت أسماء جديدة وبمبرّرات تلائم المناخ الثقافى الحاضر والوعى السياسى السائد. ونقدّر أنّ فشل فكرة الوحدة العربية لا يرجع فقط إلى عمل الإستعمار التخريبى وإنّما نشأ من وجود استعداد للتشرذم أعان الإستعمار على رسم سياساته وإنجاحها فى هذا المجال ولولا ذلك لما وُفِّق الإستعمار إلى بلوغ غايته.

[۱۱۹] رهينة: من الرهن. جعل ذمته رهناً على ما يقول.

[۱۲۰] زعيم: كفيل بصدق ما يقول.

[۱۲۱] العبر: ما أصاب النّاس من «مثلات» عقوبات إذا دعاها الإنسان على سبيل الإعتبار، فيتعظ بتجربة الّذين أصابتهم العقوبات من قبله.

[۱۲۲] الشّبهات: الأفعال والمواقف الغامضة الّتى لم يبت فى الشرع الرخصة فى فعلها. يريد أنّ العبرة بالماضين تحجر الإنسان عن الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء.

[۱۲۳] رجعت البلية كما كانت فى الماضى الجاهلى.

[۱۲۴] البلبلة: الإختلاط، كناية عن الأزمات الإجتماعية والثّورات.

[۱۲۵] الغربلة: من الغربال: يريد أنّ التجارب الآتية ستميّز المواقف، وتكشف الأشخاص على حقيقتهم.

[۱۲۶] السوط: الخلط-سوط القدر: كما تمزج مواد الطبخ فى القدر، وتختلط وتغلى سيكون المجتمع نتيجة للثّورات والأزمات الإجتماعية.

[۱۲۷] نهج‌البلاغة- رقم الخطبة ۱۶.

[۱۲۸] ذو قار: موضع قريب من البصرة. اشتهر فى التاريخ باعتباره الميدان الّذى جرت فيه، أول ظهور الإسلام، فى سنة ۶۱۰ م معركة بين الفرس والعرب حيث هاجم ثلاثة آلاف عربى من قبيلة بكر بن وائل المنطقة الفراتية، وهزموا الفرس هزيمة حاسمة فى ذى قار.

[۱۲۹] السّاقة: مؤخرة الجيش الّتى تسوقه. شبه الجاهلية بجيش مهزوم يطرده ويلاحقه.

[۱۳۰] ولّت بحذافيرها: ذهبت وطردت بأسرها (الجاهلية).

[۱۳۱] النقب: الثقب.

[۱۳۲] نهج‌البلاغة: رقم الخطبة ۳۳.

[۱۳۳] ابن أبی‌الحدید- شرح نهج‌البلاغة بتحقیق محمّد أبوالفضل إبراهیم- دار إحیاء الکتب العربیة- القاهرة- الطبعة الأولی: ۱۳۷۸هجری۱۹۵۹ م/ ج ۲ ص ۱۸۶-۱۸۵.

[۱۳۴] نهج‌البلاغة: رقم الخطبة ۱۶۱.

[۱۳۵] وردت هذه الکلمة کثیراً فی الکتاب الکریم فی سور مکیّة ومدنیة، والمراد بها، علی الظاهر، هذا المعنی. وورد له فی کلام بعض أهل اللغة تفسیر زمانی، فقیل: القرن مدة أغلب أعمار الناس، وهو سبعون سنة، وقیل: ثمانون، وقیل: ثلاثون سنة. وقیل: القرن أهل عصر فیه نبی أو فائق فی العلم، قلّ زمانه أو کثُر- وهذا التفسیر الأخیر یلحظ معنی حضاریاً للکلمة.

[۱۳۶] قال الشّریف فی نهج‌البلاغة: «رُوی عن نوف البکالی، قال: خطبنا بهذه الخطبة أمیرالمؤمنین علی (ع) بالکوفة، وهو قائم علی حجارة نصبها له جعدة بن هبیرة المخزومی، وعلیه مِدرعة من صوف، وحمائل سیفه من لیف، وفی رجلیه نعلان من لیف، وکأن جبینه ثفِنةُ بعیر، فقال علیه‌السلام ... قال: وعقد للحسین علیه‌السّلام فی عشرة آلاف، ولقیس بن سعد رحمه اللّه فی عشرة آلاف، ولأبی أیوب الأنصاری فی عشرة آلاف، ولغیرهم علی أعداد أخر، وهو یرید الرّجعة إلی صفین، فما دارت الجمعة حتّی ضربه الملعون ابن ملجم لعنه اللّه فتراجعتِ العساکر، فکنا کأغنام فقدت راعیها تختطفها الذّئاب من کلّ مکان».

[۱۳۷] ورد ذکر هؤلاء فی الکتاب الکریم مرتین: فی سورة الفرقان (مکّیة-) ۲۵ الآیة ۳۸ «وعاداً وثمُود وأصحابَ الرَّسِّ وقُروناً بین ذلِکَ کثِیراً» وفی سورة ق (مکیة-۵۰) الآیة ۱۲ «کذَّبت قبلهُم قومُ نُوحٍ وأصحابُ الرَّسِّ وثمُودُ». والرّس فی اللّغة: البئر المطویة بالحجارة، والرّس اسم بئر کانت لبقیة من ثمود- أو لقوم بعد ثمود-أرسل اللّه إلیهم رسولاً فکذّبوه فأهلکهم اللّه. وقیل أنّ الرّسّ اسم نهر کان هؤلاء علی شاطئه.

[۱۳۸] نهج‌البلاغة: رقم الخطبة ۱۸۲.

[۱۳۹] قال ابن أبی‌الحدید فی شرح هذه الکلمة: «یجوز أن تسمی هذه الخطبة «القاصعة» من قولهم: قصعت الناقة بجرّتها، وهو أن تردها إلی جوفها أو تخرجها من جوفها لتملأ فاها، فلما کانت الزواجر والمواعظ فی هذه الخطبة مردّدة من أوّلها إلی آخرها شبهها بالناقة الّتی تقصع الجرّة. ویجوز أن تسمی القاصعة لأنها کالقاتلة لإبلیس وأتباعه من أهل العصبیة، من قولهم: قصعت القملة إذا هشمتها وقتلتها. ویجوز أن تسمی القاصعة لأن المستمع لها المعتبر بها یذهب کبره ونخوته، فیکون من قولهم: قصع الماء عطشه، أی أذهبه، وسکنه». شرح نهج‌البلاغة- ج/۱۳ ص ۱۲۸.

[۱۴۰] الغل: الحقد، اتفقتم علی تمکین الحقد فی نفوسکم.

[۱۴۱] الدّفن: جمع دفنة، ما یتجمد ویتلبد من الضابط وردت الماشیة، ینبت علیه العشب ونبتت المرعی علیه: استر بظواهر النفاق الإجتماعی فیبدو ظاهره سلیماً أخضر وواقعه بشع منفر. شهروا أحقادهم الّتی یسترونها بالنفاق فیما بینهم بهذه القذارة الّتی یسترها العشب فتبدو جملة تخدع بظاهرها وهی فی الواقع قذرة نجسة.

[۱۴۲] استهام بکم: تعلق بکم الشیطان فأغواکم.

[۱۴۳] الغرور: ما یسبّب الإنخداع.

[۱۴۴] نهج‌البلاغة- رقم الخطبة- ۱۳۳.

[۱۴۵] ابن أبی‌الحدید: شرح نهج‌البلاغة ج ۱۳ ص ۱۶۸-۱۶۷.

[۱۴۶] ابن ابی‌الحدید: شرح نهج‌البلاغة.

[۱۴۷] أطور به: من طار یطور، بمعنی: حام حول الشّیء، وقاربه، یعنی: لا أقارب الجور فیمن ولّیت علیه.

[۱۴۸] ما سمر سمیر: یعنی مدی الدّهر.

[۱۴۹] نهج‌البلاغة- رقم النص ۱۲۶ ما أمّ نجم فِی السماء.. یعنی مدی الدّهر. فی هذا الموضوع راجع کتابنا (دراسات فی نهج‌البلاغة) الطبعة الثانیة، فصل (المجتمعات والطبقات الإجتماعیّة) وکتابنا (ثورة الحسین)، الطبعة الخامسة- ص۱۷۲-۱۰۱.

[۱۵۰] نهج‌البلاغة- رقم الخطبة: ۱۹۲.

[۱۵۱] الحمیّة: الأنفة والغضب.

[۱۵۲] الجامحة: من جموح الفرس- أراد أنّ الفئة الّتی لم تطع إبلیس وجمحت عنه عادت فأطاعته واتّبعت سبیله فی الکبریاء. أو أنّ الفئة الّتی جمحت عن الشرع انقادت إلی إبلیس.

[۱۵۳] نجم: ظهر. أی أنّ العصبیة بعد ما کانت خفیة فی النّفوس ظهرت فی ممارسات علنیة.

[۱۵۴] استفحل: قوی واشتدّ وصار فحلاً.

[۱۵۵] الحرج: لغة فی الحرج- بفتح الرّاء- وهو الإثم. یرید: إنّکم بطاعتکم لإبلیس أصبحتم أعظم إثماً فی دینکم. وروایة النّسخة المتداولة من النهج (فأصبح)، ولا یستقیم المعنی علیها، وروایة ابن أبی‌الحدید فی شرحه (فأصبحتم) وقد اعتمدناها لأنّها أوفق بالمعنی.

[۱۵۶] أوری: اشد قدحاً وتولیداً للنار. کنایة عن تخریب دنیاهم بالفتن والقلاقل.

[۱۵۷] أمعنتم فی البغی: بالغتم فیه، من أمعن فی الأرض، أی ذهب فیها بعیداً.

[۱۵۸] مصارحة للّه..: أی مکاشفة یعنی الإعلان بالمعاصی، وعدم التستر فی شأن العصبیّة والتکبر الجاهلی.

[۱۵۹] ملاقح جمع ملقح، وهو المصدر من لقحت: والشّنآن: البغض یرید أنّ الکبر والفخر الجاهلی مکان البغضاء والحقد ومثارهما.

[۱۶۰] منافخ الشیطان: جمع منفخ، مصدر من نفخ: یعنی أن الکبر والفخر هما المکان الّذی ینفخ فیه الشّیطان من نفس الإنسان فیدفعها إلی الشّر والجریمة.

[۱۶۱] اعتزاء الجاهلیة: الإعتزاء هو الإنتساب، أی أنّهم یفتخرون بأنسابهم وآبائهم، کقولهم: یا لفلان، أو: یا لآل فلان.

[۱۶۲] المراد من هذه الجملة وما بعدها أنّ هؤلاء الزعماء یفسدون بنزعاتهم الشرّیرة حیاتکم وإیمانکم وطهارة نفوسکم.

[۱۶۳] الأحلاس: جمع حلس. وهو کساء رقیق یکون علی ظهر البعیر ملازماً له، فقیل لکلّ ملازم أمر: هو حلس ذلک الأمر. فهؤلاء المغدون من رؤساء القبائل ملازمون للعقوق والتنکر لنعم اللّه ولأحکام الشرع وقواعد الأخلاق.

[۱۶۴] مدارع الصّوف: جمع مدرعة- بکسر المیم- وهی کالکساء.

[۱۶۵] زاحت: بعدت. وله: لأجله، یعنی: الزموا کل أمر خافتهم الأعداء بسببه.

[۱۶۶] التحاض، صیغة تفاعل من الحض بمعنی الحث والترغیب، یعنی أن یحث بعضکم بعضاً علی الإتحاد والتعاون.

[۱۶۷] الفقرة: واحدة فقر الظهر. ویقال لمن اصابته مصیبة شدیدة: قد کسرت فِقرته. یعنی اجتنبوا کلّ ما أضعف الأمم السّابقة وسبب لها الإنحطاط.

[۱۶۸] المنة: القوة، ومعنی الجملة کسابقتها.

[۱۶۹] تضاغن القلوب وتشاحن الصّدور بمعنی واحد: تبادل البغضاء بین فئات المجتمع.

[۱۷۰] تخاذل الأیدی: ألا ینصر الناس بعضهم بعضاً ولا یتعاونون فی حالات الخطر.

[۱۷۱] التّمحیص: التّطهیر والتّصفیة.

[۱۷۲] أجهد العباد: أکثرهم تعباً.

[۱۷۳] المرار: شجر مر فی الأصل، کنایة عمّا أصابهم من العذاب والهوان علی أیدی الفراعنة.

[۱۷۴] رأى اللّه منهم جد الصّبر، أى أشد الصّبر.

[۱۷۵] الأملاء: الجماعات، الواحد: ملأ، يريد اتحاد الفئات الإجتماعية وتعاونها.

[۱۷۶] مترادفة: متعاونة.

[۱۷۷] البصائر نافذة: الإرادة عازمة جازمة غير متردّدة للعلم بحقيقة الموقف أو الشّيء.

[۱۷۸] الغضارة: النّعمة اللّينة الطّيّبة.

[۱۷۹] ما أشدّ اعتدال الأحوال: ما أشبه الأشياء بعضها ببعض.

[۱۸۰] الرّيف: الأرض ذات الخصب والزرع، والجمع أرياف.

[۱۸۱] بحر العراق: دجلة والفرات. قال ابن أبى‌الحديد: ۱۷۳: ۱۳ «أمّا الأكاسرة فطردوهم عن بحر العراق، وأمّا القياصرة فطردوهم عن ريف الآفاق أى عن الشّام وما فيه من المرعى والمنتجع».

[۱۸۲] يقصد البادية الخالية مِن الزّرع والمياه والعمران.

[۱۸۳] نكد المعاش: قلّته، وصعوبة الحصول عليه، وخشونته.

[۱۸۴] عالة: فقراء (دبر ووبر) دبر البعير عقرة القتب. والوبر للبعير بمنزلة الصّوف للضأن. يريد أنّهم كانوا عالة فقراء يمثل البعير ثروتهم، ومرضه شغلهم الشاغل.

[۱۸۵] الأزل: الضّيق والشّدّة، يريد بلاء شديداً شغلهم عن كلّ شيء.

[۱۸۶] أطباق، جمع طبق. أى جهل متراكم بعضه فوق بعض.

[۱۸۷] غرقين: من الغرق، مبالغة فى وصف ما هم فيه من النعمة.

[۱۸۸] فكهين: بمعنى ناعمين.

[۱۸۹] تربّعت الأمور بهم، أى أقامت، من: ربع بالمكان أى أقام فيه، يعنى استقرار أحوالهم السّياسيّة والمعيشيّة.

[۱۹۰] آوتهم الحال: ضمتهم وأنزلتهم، والكنف: الجانب.

[۱۹۱] تعطّفت.. كناية عن السّعادة والإقبال، يقال: تعطّف الدّهر على فلان، أى أقبل حظّه وسعادته، والذّرى الأعالى،جمع ذروة، كناية عن عزّهم وقوّتهم وامتناعهم.

[۱۹۲] لا تغمز.. لا تقرع.. مثل يضرب لمن لا يجترأ عليه لعزته وقوته.

[۱۹۳] الأمثال هى ما ورد فى القرآن بما قصّه اللّه تعالى من أحوال الأمم القديمة وكيف نزلت بها الكوارث نتيجة لممارساتها المنحرفة.

[۱۹۴] التّناهى مصدر تناهى القوم عن كذا، أى نهى بعضهم بعضاً. يقول: لعن اللّه الماضين من قبلكم لأنّ سفهاءهم ارتكبوا المعصية. وحلماءهم لم ينهوهم عنها وهذا من قوله تعالى فى شأن بنى إسرائيل (كانُوا لا يتناهَونَ عن مُنكرٍ فعلُوهُ لبِئسَ ما كانُوا يفعلونَ) سورء المائدة/ ۷۹.

[۱۹۵] من جملة تقسيمات الواجب عند علماء أُصول الفقه تقسيمه إلى واجب عينى وواجب كفائى. ويعنون بالواجب العينى ما يتعلق بكلّ مُكلَّف ولا يسقط عن أحد من المكلّفين بفعل غيره. ويعنون بالواجب الكفائى ما يطلب فيه وجود الفعل من أىّ مكلّف كان، فهو يجب على جميع المكلّفين ولكن يكتفى بفعل بعضهم فيسقط عن الآخرين. نعم إذا تركه جميع المكلّفين فالجميع مذنبون. وأمثلة الواجب الكفائى كثيرة فى الشّريعة منها تجهيز الميّت والصّلاة عليه، ومنها الحِرَف والصّناعات والمِهَن الّتى يتوقف عليها انتظام شؤون حياة النّاس ومنها الإجتهاد فى الشّريعة، ومنها الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

[۱۹۶] سورة آل عِمران (مدنيّة- ۳) الآية: ۱۰۴.

[١٩٧] سورة التّوبة (مدنيّة- ٩) الآية: ٧١.

[١٩٨] ربّما يكون المراد من طاعة اللّه ورسوله، بعد ذكر الأمر والنّهى والصّلاة والزّكاة- الطاعة فى الشّأن السّياسى، فلا يكون من ذكر العامّ بعد الخاص.

[١٩٩] سورة آل عِمران (مدنيّة-٣) الآية: ١١٠.

[٢٠٠] سورة آل عِمران (مدنيّة-٣) الآية: ١١٤-١١٣.

[٢٠١] نهج‌البلاغة- باب الحكم- رقم النّص: ٣١.

[٢٠٢] النفثة- كالنّفخة لفظاً ومعنى بزيادة ما يمازج النفس من الريق عند النّفخ.

[٢٠٣] نهج‌البلاغة- باب الحكم- رقم النّص: ٣٧٤.

[٢٠٤] نهج‌البلاغة- باب الحكم- رقم النص: ٢٥٢.

[٢٠٥] نهج‌البلاغة- باب الحكم- رقم النص: ٣٧٤.

[٢٠٦] نهج‌البلاغة- باب الحكم- رقم النّص: ٣٧٣.

[٢٠٧] نهج‌البلاغة- رقم الخطبة ١٥٦.

[٢٠٨] نهج‌البلاغة- باب الحكم- رقم النّص ٣٧٤.

[٢٠٩] أبور- على وزن أفعل- من البور، الفاسد، بار الشيء أى فسد، وبارت السّلعة أى كسدت ولم تنفق، وهذا هو المراد هنا: أنّ العمل الحق بالقرآن كاسد لا يقبله الناس ولا يتعاملون معه.

[٢١٠] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ١٧.

[٢١١] عُقر دارهم: أصل دراهم، والعُقر: الأصل، ومنه: العقار للنخل، كأنّه أصل المال.

[٢١٢] تواكلتم: من وكلت الأمر إليك ووكلته إلىّ، أى لم يتوله أحد منا، ولكن أحال به كلّ واحد على الآخر.

[٢١٣] شُنّت الغارات: فرقت، أى نشبت الحروب الصّغيرة فى أماكن متعدّدة (حرب العصابات).

[٢١٤] دعاء عليهم بالخزى والسّوء: القبح، والتّرح.

[٢١٥] حمارّة القيظ: شدّة حره. ويسبخ عنا الحر: بمعنى يخفّ، ويلطف الهواء.

[٢١٦] صبارّة الشّتاء: بتشديد الرّاء- شدة برد الشّتاء. وهذه هى الأعذار الّتى كانوا يبرّرون بها تخاذلهم ويلوذون بها دون كشف موقفهم السّياسى الّذى بيّناه.

[٢١٧] الحجال: جمع حجلة، وهى بيت يزين بالسّتور، والثّياب، والأسرّة.

[٢١٨] السّدم: الحزن والغيظ.

[٢١٩] النّغب: جمع نغبة: وهى الجرعة، والتّهمام: الهمم، أنفاساً: جرعة بعد جرعة.

[٢٢٠] ذرّفت: زدت على السّتين.

[٢٢١] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم: ٢٧.

[٢٢٢] الحثالة: الردىء من كلّ شيء.

[٢٢٣] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم ١٢٩.

[٢٢٤] فى المؤتمر الّذى عقده الخليفة عثمان بن عفان، عند تعاظم موجة الإحتجاج والتّذمر- وجمع الولاة والعمال الكبار- لمعالجة الموقف المتفجّر بالغضب والنّقمة على سياسة الدّولة- كان اقتراح عبداللّه بن عامر، حاكم ولاية البصرة أن تحبس الجيوش حيث هى (تجمر) ولا يؤذن لها بالعودة ليشغل الجنود بمشاكل حياتهم اليوميّة عن النشاط السّياسى- ومن المؤسف أنّ هذا الإقتراح هو الّذى تمّ

العمل به فأدى إلى الفتنة الكبرى.

[۲۲۵] نهج‌البلاغة: الخطبة رقم: ۱۹۲.

[۲۲۶] سورة المائدة (مدنيّة-۵) الآية: ۷۹-۷۸.

[۲۲۷] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم ۱۴۷.

[۲۲۸] نهج‌البلاغة- رقم النص ۲۰۱.

[۲۲۹] ولا يعِفّون: أى يستحسنون ما بدا لهم استحسانه، ويستقبحون ما خطر لهم قبحه بدون رجوع إلى دليلٍ بيّن، أو شريعة واضحة. يثق كلّ منهم بخواطر نفسه، كأنّه أخذ منها بالعروة الوثقى على ما بها من جهل ونقص.

[۲۳۰] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم ۸۸.

[۲۳۱] باين: أى باعِد وجانِب.

[۲۳۲] نهج‌البلاغة- باب الكتب- رقم النّص: ۳۱.

[۲۳۳] نهج‌البلاغة- باب الكتب- رقم النّص: ۴۷.

[۲۳۴] الكيس: الفطنة والذّكاء.

[۲۳۵] الحوّل القلّب: هو البصير بتحويل الأمور وتقليبها.

[۲۳۶] الحريجة: التحرج والتحرز من الآثام.

[۲۳۷] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم: ۴۱.

[۲۳۸] حديث مروى عن النّبى (ص).

[۲۳۹] لا أستغمز على البناء للمجهول- لا يستضعفنى الرّجل القوى. والغمز- بفتح الميم- الرّجل الضّعيف.

[۲۴۰] نهج‌البلاغة- رقم النّص: ۲۰۰.

[۲۴۱] لا تقوم له القلوب: لا تجرئ عليه. لا تثبت عليه العقول: لا تكاد تفهمه وتحققه، يومئ بذلك إلى المشكلات الإجتماعية والأزمات الّتى عصفت بالمجتمع كلّه.

[۲۴۲] أغامت: حجبها الغيم، كناية عن صعوبة إيجاد الحلول المقبولة من الجميع.

[۲۴۳] المحجّة: الطّريقة الواضحة- وتنكرت: التبس أمرها على النّاس.

[۲۴۴] نهج‌البلاغة-رقم النّص: ۹۲.

[۲۴۵] العوذ المطافيل: الإبل والضّباء ذات الأولاد، وهى جمع عائذة، ومطفل كناية عن اللّهفة الّتى توجهوا بها إليه طالبين منه قبول بيعتهم،كما اللّهفة الّتى تقبل بها أمّ الطّفل على ولدها.

[۲۴۶] نهج‌البلاغة- رقم النّص: ۱۳۷.

[۲۴۷] الإربة: الغرض والرّغبة.

[۲۴۸] نهج‌البلاغة- رقم النّص: ۲۰۵.

[۲۴۹] التّداك الإزدحام- تصوير لحالهم فى الإقبال على البيعة.

[۲۵۰] الهيم: العطاش: تصوير لرغبتهم العارمة فى إنجاز البيعة.

[۲۵۱] الهدج: مشى الضّعيف. بيان لإقبال الجميع على البيعة، حتّى أولئك الذين لهم من سنهم العالية أو مرضهم عذر يعفيهم من مشقة التّزاحم على البيعة.

[۲۵۲] الكعاب: جمع كاعبة: الفتاة ينهد ثدياها. وحسرت كشفت عن وجهها كناية عن إقبال النّاس جميعاً وفرحتهم بالبيعة.

[۲۵۳] نهج‌البلاغة- رقم النّص: ۲۲۹.

[۲۵۴] نهج‌البلاغة- رقم النّص: ۱۳۱.

[۲۵۵] آسی: أحزن- الماضی منه: أسیت بمعنی حزنت.

[۲۵۶] یلی: یکون والیاً وحاکماً علی الأُمة.

[۲۵۷] خولاً: عبید، یعنی لئلا یستعبدوا النّاس ویذلّوهم.

[۲۵۸] حرباً- أعداء یحاربونهم.

[۲۵۹] نهج‌البلاغة- باب الکتب- رقم النّصّ: ۶۲.

[۲۶۰] تمالأوا: تواطأوا واتفقوا وتعاونوا.

[۲۶۱] السّخطة: البغض والنّعرة.

[۲۶۲] فیالة الرّأی: ضعفه وسخفه.

[۲۶۳] أفاءها اللّه.. أرجعها إلیه، من فاء بمعنی رجع.

[۲۶۴] النّعش، من نعش ینعش: بمعنی رفع السّنة إلی مقام العمل والتّطبیق.

[۲۶۵].نهج‌البلاغة- رقم النّص: ۱۶۹.

[۲۶۶] نهج‌البلاغة- باب الحکم- رقم: ۱۸.

[۲۶۷] حِرتَ: من «حار» أی تحیّر.

[۲۶۸] نهج‌البلاغة- باب الحکم- رقم: ۲۶۲.

[۲۶۹] لا یرعین.. أی لا یبقین، أرعیت علیه أی أبقیت: یقول: من سالم وهدأ فإنّما سلّم نفسه وأبقی علیها.

[۲۷۰] الجادّة: الطریق المستقیمة الواضحة.

[۲۷۱] الهوادة: الرفق والصلح، وأصله اللّین.

[۲۷۲] استتروا فی بیوتکم: لا یرید منع التّجول کما یقولون فی أیّامنا، وإنّما یرید النّهی عن التّجمعات ذات الطابع التّحزبی القبائلی الّتی تدفع إلیها العصبیة القبلیة کما إنّه لا ینهاهم عن النقد السّیاسی لأنه قال (فإن أنکرتم فانِکروا).

[۲۷۳] الصّفحة: جانب الوجه، أو هی الوجه. یرید الإمام أنّ من تعرّض للحق بمخالفته وتجاوزه یهلک، لأنّه سیعاقب.

[۲۷۴] ابن أبی‌الحدید: شرح نهج‌البلاغة ۱: ۲۷۶-۲۷۵ ورواها الشّریف الرّضی فی نهج‌البلاغة بتغییر بعض العبارات، انظر الخطبة رقم: ۱۷۶ «ومن خطبة له علیه‌السّلام فی الشّهادة والتّقوی» وقیل: إنّه خطبها بعد مقتل عثمان فی أوّل خلافته.

[۲۷۵] المصدر السابق: ۲۸۱: ۱.

[۲۷۶] سورة الأنفال (مدنیة-۸) الآیة: ۲۸ ووردت آیة أخری مماثلة فی سورة التّغابن-مدنیّة-۶۴ الآیة: ۱۵.

[۲۷۷] سورة العنکبوت (مکیّة-۲۹) الآیة: ۳-۲.

[۲۷۸] نهج‌البلاغة- باب الحکم- رقم النّص: ۹۳.

[۲۷۹] انجذم: انقطع.

[۲۸۰] السّواری: جمع ساریة، وهی الدّعامة.

[۲۸۱] النّجر: الأصل.

[۲۸۲] درست: انطمست.

[۲۸۳] عفت شرکه: عفت: انمحت، وشرکه جمع شراک: الطّریق.

[۲۸۴] المناهل: جمع منهل، هو مورد النّهر.

[۲۸۵] الخف للبعير: والظلف للبقر والشّاء: كالقدم للإنسان.

[۲۸۶] السّنابك جمع سنبك: طرف الحافر.

[۲۸۷] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۲.

[۲۸۸] تساور النّاس: قام بعضهم إلى بعض ليتقاتلوا.

[۲۸۹] تراجع سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السّقا ورفيقيه (الطّبعة الثّانية ۱۳۷۵) هجرى ۱۹۵۵ م/ القسم الثّانى- ص: ۳۰۷-۲۸۹.

[۲۹۰] سقيفة بنى ساعدة، مكان مسقوف بسعف النّخل فى المدينة (يثرب)، وكانت مجمع الأنصار بعد الإسلام، ودار ندوتهم لفصل القضايا وإجراء المناورات.

[۲۹۱] يراجع للمؤلف: نظام الحكم والإدارة فى الإسلام. كما يراجع للمؤلف أيضاً: ثورة الحسين- ظروفها الإجتماعيّة وآثارها الإنسانيّة (الطبعة الخامسة) الفصل الأوّل.

[۲۹۲] ممّا يوحى بشعور الجميع آنذاك بخطورة الإجراء الّذى اتّخذوه واشتماله على درجة كبيرة من المغامرة قول الخليفة عمر بن الخطّاب فى خلافته فى تحذير غير مباشر وجّهه إلى طلحة والزّبير وغيرهما لما نمى‌إليه عنهم من آراء تتصل بطريقة انتقال السّلطة على الأسلوب الّذى تمّ فى السّقيفة (كانت بيعة أبى‌بكر فلتة وقى اللّه شرّها).

[۲۹۳] أمسكت يدى: توقّفت عن المشاركة فى الموقف الرّاهن.

[۲۹۴] راجعة الناس: الرّاجعون عن الإسلام، المرتدّون.

[۲۹۵] ثلماً: خرقاً وانتهاكاً.

[۲۹۶] زاح: ذهب وزال.

[۲۹۷] زهق: مات، يعنى هنا: زال الباطل تماماً.

[۲۹۸] تنهنه: انتعش.

[۲۹۹] نهج‌البلاغة، باب الكتب، رقم النّصّ: ۶۲.

[۳۰۰] عرّج عن الطّريق: تنحّى عنها. يعنى تنحّوا عن الأسلوب الجاهلى فى الصّراع السّياسى وهو المنافرة والمفاخرة.

[۳۰۱] الآجن: الماء الّذى تغيّر لونه وفسدت رائحته ولم يعد صالحاً للشرب، يعنى بذلك الأسلوب السّياسى الجاهلى.

[۳۰۲] الإيناع: النّضج والصّلاحيّة للأكل.

[۳۰۳] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۵.

[۳۰۴] المرتاد: الطّالب.

[۳۰۵] اللّبس: الملابسة والمخاطبة.

[۳۰۶] الضّغث من الحشيش القبضة منه. يعنى يخلط شىء من الحقّ بشىء من الباطل فيشتبه أمرهما وتحصل الفتنة.

[۳۰۷] سورة الأنبياء (مكيّة-۲۱) الآية ۱۰۱.

[۳۰۸] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم: ۵۰.

[۳۰۹] البوائق: جمع بائقة، وهى الواهية، والمصيبة الكبيرة.

[۳۱۰] القتام: الغبار، العشوة الظلام. يعنى أنّ الموقف الآتى شديد الإلتباس لأنّه مظلم فى نفسه ويثور مع ذلك حوله الغبار. ويعنى بذلك الفتنة الآتية.

[۳۱۱] شباب الغلام: فتوته وعنفوانه، والفتنة تبدأ هكذا ذات عنفوان.

[۳۱۲] السّلام الحجارة الصّمّ، وأثرها فی الأبدان الجرح والکسر.

[۳۱۳] مریحة: منتنة.

[۳۱۴] یتزایلون: یتفارقون وینفصل بعضهم عن بعض.

[۳۱۵] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۱.

[۳۱۶] أجلب عنه: أعان علیه.

[۳۱۷] علی حد شوکتهم: الشّوکة الشّدّة، أی لم یضعف هیجانهم.

[۳۱۸] التفّت ... انضمّت إلیهم واختلطت بهم.

[۳۱۹] وهم خلالکم ... أی بینکم.

[۳۲۰] یسومونکم.. یکلفونکم بما یریدون من الأفعال والمواقف.

[۳۲۱] مادّة: مدداً وأنصاراً.

[۳۲۲] تقع القلوب مواقعها: تهدأ وتستقر بعد اضطرابها بسبب هیجان الفتنة.

[۳۲۳] مسمحة: أی سهلة میسّرة وهذا حین تهدأ العواطف، ویثوب النّاس إلی المنطق والقانون.

[۳۲۴] المنّة: القوّة والقدرة، ینهاهم عن الأعمال المرتجلة المتسرّعة الّتی تسبّب انشقاقاً وتمزّقاً فی المجتمع یضعفه ویوهن قوته.

[۳۲۵] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۶۸.

[۳۲۶] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم: ۱۶۶ ویومئ فی الجملة الأخیرة إلی أنّهم اتصّلوا بمعاویة وتخلّوا عن الحاکم الشّرعی.

[۳۲۷] نهج‌البلاغة- باب الحکم- رقم ۱. وابن اللّبون هو ابن النّاقة إذا کمل له سنتان. وهو فی هذه الحالة لا ینفع للرّکوب لأنّه لا یقوی علی حمل الأثقال، ولیس له ضرع لیحلب، کنّی الإمام بذلک عن أنّ الإنسان الواعی فی الفتنة یقف علی الحیاد فلا یکون ذا نفع لأیّ طرف من أطرافها.

[۳۲۸] الأزمّة، جمع زمام، کنّی عن قضایا الفتنة بالنیاق الّتی یمسک أصحابها بأزّمتها، وهی تحمل علی ظهورها الأثقال. یقول لهم: ارکوا قفا الفتنةِ ولا تخوضُوا فِیها لِتخلصُوا مِن آثارِها.

[۳۲۹] لا تصدّعوا: لا تتفرقوا عن الحاکم الشّرعی.

[۳۳۰] غِبَ فعالکم: عواقبها.

[۳۳۱] فور النّار: تعاظمها وارتفاع لهبها.

[۳۳۲] أماط: نحّی وأزال. والسّنن: الطّریق. یعنی تنحّوا عن طریق الفتنة وابتعدوا.

[۳۳۳] قصد السّبیل: الطّریق. أی ارکوا الفتنة تسیر فی طریقها ولا تشترکوا فیها.

[۳۳۴] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۸۷.

[۳۳۵] دار الهجرة: هی المدینة المنوّرة.

[۳۳۶] قلع المکان بأهله: نبذهم وطردهم. وقلع فلان بمکانه: نبذه وابتعد عنه.

[۳۳۷] جاشت: اضطربت، والمرجل: القدر: یعنی أنّ دار الهجرة قد اضطربت بأهلها بسبب الفتنة الّتی نشبت فیها وانطلقت منها.

[۳۳۸] قامت الفتنة علی القطب: وجدت من یوجّهها ویرعاها ویغذیها بالأفکار والقوی، فاشتدت وعظم خطرها.

[۳۳۹] نهج‌البلاغة- باب الکتب- الکتاب رقم۱.

[۳۴۰] سورة العنکبوت (مکیة-۲۹) الآیة: ۱ و۲.

[۳۴۱] جاز عنه الشّیء: أبعده عنه.

[۳۴۲] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۶.

[۳۴۳] فقأت عين الفتنة: تغلّبت عليها.

[۳۴۴] الغيهب: الظّلمة. يعنى أنّى واجهتها فى عنفوانها وقوتها.

[۳۴۵] الكلب: داء معروف يصيب الكلاب. يعنى أنّه واجهها وهى فى هذه الحالة عن الأذى والشّرّ الشّديدَين. والخطبة فى نهج‌البلاغة، رقم: ۹۳.

[۳۴۶] شبّهت: اشتبه فيها الحقّ بالباطل، وإذا أدبرت وخلص النّاس منها تميّز حقّها من باطلها.

[۳۴۷] عمّت خطتها: يعنى أنّها فتنة غالبة تصيب ببلائها أهل الحقّ.

[۳۴۸] نهج‌البلاغة: الخطبة رقم: ۹۳.

[۳۴۹] اُصفيتم.. خصصتم به دون غيركم.

[۳۵۰] الخطام ما جعل فى أنف البعير ليقاد به، فإذا لم يكن ثمّة قائد تاه البعير ولم يسلك طريق السّلامة، كنى بذلك عن الفتنة الّتى تعيث فساداً فى المجتمع.

[۳۵۱] البطان: حزام يجعل تحت بطن البعير ليحفظ استقرار ما عليه من راكب أو حمل فإذا استرخى ادّى ذلك إلى خطر السّقوط. كنّى بذلك عن أخطار الفتنة.

[۳۵۲] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۸۹.

[۳۵۳] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۹۷.

[۳۵۴] الرّجوف: شديد الرّجفان والإضطراب، تُدخل الإضطراب والقلق على المجتمع.

[۳۵۵] القاصمة: الكاسرة، والزّحوف: المتحرّكة الّتى تسعى للإنتشار فى المجتمع.

[۳۵۶] نجوم الآراء ظهورها يعنى أنّ الفتنة تسبّب البلبلة الفكرية فى المجتمع، فتمكن للشّعارات الدّخيلة من التّسرب والشّيوع.

[۳۵۷] أشرف لها: تعرّض لها، قصمته: كسرته.

[۳۵۸] يتكادمون.. ينهش بعضهم بعضاً، والعانة هى الجماعة من الحمر الوحشية، يعنى أنّ سلطان القانون، فى حالة انتصار الفتنة، يسقط، ويسود سلطان الغريزة.

[۳۵۹] تغيض.. تختفى، غاض الماء: غار تحت الأرض.

[۳۶۰] دقّ: فتّت وطحن. والمسحل: المبرد أو المطرقة، يعنى أنّ شرورها الاجتماعيّة تصل الى أهل البدو- مع بعدهم عن يد السّلطة- فتحطّم علاقاتهم، وتهدّد أمنهم.

[۳۶۱] الرّضّ: التّهشيم، والكلكل: الصّدر، يعنى أنّها تطبق عليهم، فتشلّ حركتهم وتحطّم مقاومتهم.

[۳۶۲] أنصاب: علامات.

[۳۶۳] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۵۱.

[۳۶۴] صال.. هجم للفتك والإعتداء.

[۳۶۵] الفنيق: الفحل من الإبل، والكظوم الصّامت والسّاكون- يعنى أنّ الباطل بعد أن كان ذليلًا صامتاً، غدا، فى الفتنة، عالى الصّوت هادراً.

[۳۶۶] بسبب الفتنة تفسد أخلاق الأجيال الشّابة فيكونون سبباً لغيظ أهلهم.

[۳۶۷] القيظ: شدّة الحر. يعنى أنّ الأمور والسّياسات تقع فى غير مواقعها فلا تفيد بل تضرّ.

[۳۶۸] غاض الماء فى الأرض: اختفى وغار فيها. يعنى يندر فى الفتنة حين تغلب وجود ذوى الأخلاق الكريمة فى مراتبهم الإجتماعية

لأنّهم يخفون أنفسهم ويبتعدون عن الأضواء.

[۳۶۹] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم: ۱۰۸.

[۳۷۰] نهج‌البلاغة- الخطبة رقم: ۱۰۳.

[۳۷۱] النّاب: النّاقة المسنة، والضّروس: النّاقة السّيّئة الخلق.

[۳۷۲] عذم الفرس: إذا أكل بجفاء، أو عضّ.

[۳۷۳] تزبن: تضرب برجلها من يقترب منها.

[۳۷۴] الدّرّ: اللّبن. يعنى أنّها غير ذات فائدة مع كونها مصدراً للتّخريب والأضرار. فالفتنة شرّ كلّها، ولا خير فيها.

[۳۷۵] شوهاء: قبيحة المنظر،ومخشية: مخوفة مرعبة.

[۳۷۶] العلم: الدّليل الهادى فى متاهات الصّحراء. نهج‌البلاغة، رقم: ۹۳.

[۳۷۷] يبت المدر: ما بُنى بالحجارة، وبيت الوبر: الخيمة. يعنى أنّ شرّ الفتنة لا يقتصر على سكّان المدن وإنّما يشمل الرّيف والبدو.

[۳۷۸] نبا به سوء رعيهم: شرّد النّاس، وأقلق حياتهم من نبا به المنزل: إذا لم توافقه.

[۳۷۹] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۹۸.

[۳۸۰] استحكم أمرها كالرّحى حين تستقرّ على قطبها.

[۳۸۱] الشّعب: الفروع.يعنى أنّ الفتنة تغلغلت فى جميع ثنايا المجتمع.

[۳۸۲] تشمل النّاس بشرّها دون تمييز كما يكال الحب بالصّاع.

[۳۸۳] تضرب بذراعها جميع الأمّة فلا يمتنع منها أحد، مأخوذ من خبط الشّجرة ضربها بالعصا ليسقط ثمرها أو يتناثر ورقها.

[۳۸۴] النّفل: نفاية الشّىء، وما لا خير فيه منه، وثفالة القدر ما يبقى فيه من هذا القبيل.

[۳۸۵] النّفاضة ما يسقط من الثّوب أو البساط بالنّفض، والعكم: العدل الّذى يجعل على الدّابة ويحمل فيه المتاع.

[۳۸۶] العرك: الدّلك الشّديد، والأديم: الجلد.

[۳۸۷] الحصيد: الغلات المحصودة.

[۳۸۸] البطينة: السّمينة.

[۳۸۹] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۰۸.

[۳۹۰] تغيض: تختفى، يعنى أنّ الحكمة فى الفتنة تختفى فى النّاس فلا يتعاملون بما تقضى به من عدالة وأخلاق.

[۳۹۱] المسحل: المبرد أو المطرقة.

[۳۹۲] الرّضّ: التّهشيم. والكلكل: الصّدر.

[۳۹۳] الوحدان: جمع واحد،يعنى المنفردون.

[۳۹۴] عبيط الدّماء: الطّرىّ منها.

[۳۹۵] الثّلم: الكسر، يعنى أنّها تنتهك الدّين وتقلص نفوذهُ وولايته بترك العمل به وظلم أهله والدّاعين اليه.

[۳۹۶] الكيس: الحاذق العاقل.

[۳۹۷] الأرجاس: الأشرار.

[۳۹۸] قتيل مطلول: مهدور الدّم، لا دية ولا قصاص.

[۳۹۹] الختل: الخداع، يعنى يخدعون النّاس بحلف الأيمان وإظهار شعار الإسلام.

[۴۰۰] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۱.

[۴۰۱] ترحمة: حزن وألم.

[۴۰۲] أصفيت فلاناً كذا: أعطيته إيّاه خالصاً، يعنى أعطيتم السّلطة السّياسيّة فى الإسلام إلى غير أهلها.

[۴۰۳] الصّبر: عصارة شجر مرّ، والمقر: السّم.

[۴۰۴] الشّعار من الملابس ما يكون على الجلد، والدّثار ما يكون على الثّياب.

[۴۰۵] الزّاملة النّاقة أو الدّابّة الّتى يحمل عليها المتاع.

[۴۰۶] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۸.

[۴۰۷] الأثرة: الإستبداد بالخيرات دون الآخرين.

[۴۰۸] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۵۸.

[۴۰۹] معقولة..: مقصورة عليهم، دائمة لهم، من عقل النّاقة إذا حبسها بالعقال فى مكان بعينه.

[۴۱۰] الدّر: اللّبن، يعنى خيرات الدّنيا والذّاتها.

[۴۱۱] مجّة: مصدر مرة، من مجّ الشّراب من فيه، يعنى أنّها لا تدوم لهم كما يتوهّم النّاس وإنّما يمجّونها ويلفظونها رغماً عنهم.

[۴۱۲] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۸۷.

[۴۱۳] الأخلاف جمع خلف: حملة ضرع النّاقة.

[۴۱۴] الخطام: ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به، يعنى أنّ تخاذل أهل الحقّ عن نصرة الحق مكن لأهل الباطل من الإنتصار.

[۴۱۵] الوضين: حزام عريض يشدّ به الرحل على النّاقة، وهو كناية عن تخاذل أهل الحقّ الّذى مكن لأهل الباطل من النّصر.

[۴۱۶] السّدر: شجر النّبق، والمخضود: المقطوع شوكه. يعنى أنّكم انتصرتم بأقوام يستحلّون حرام اللّه، ولا يتورّعون من شيء.

[۴۱۷] شاغرة: خالية، يعنى لم يقاومكم أحد.

[۴۱۸] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۰۵.

[۴۱۹] نخم: أخرج النّخامة من صدره، وهى المواد المخاطية، كنّى بذلك عن سلطان بنى أميّة.

[۴۲۰] الجديدان: اللّيل والنّهار. يعنى أنّهم لا يعودون إلى السّلطة أبداً.

[۴۲۱] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۱۵۸.

[۴۲۲] نهج‌البلاغة، الخطبة رقم: ۹۸.

[۴۲۳] نحن نعبّر بمصطلح (ثورة)فى التاريخ الإسلامى عن العمل السّياسى الّذى يتمتع بالشّرعية، وما عدا ذلك لا نسمّيه ثورة،وإنّما نسمّيه تمرداً، أو خروجاً، أو فتنة.

وإنّما جعلنا عنوان هذا الفصل (الثورة)- مع أنّ البحث فيه يشمل الإحتجاج بالعنف بجميع ألوّانه (الشّرعيّة وغير الشّرعيّة) لغرض بيانى فقط. هو إيثار بساطة العنوان على تعقيده.

[۴۲۴] نهج‌البلاغة، رقم النّصّ-۶۱.

[۴۲۵] الأديم الجلد، وتفريجه سلخه: يعنى أنّ اللّه يسلخ سلطان بنى أميّة عن الأُمّة مع شدّة رسوخه ولصوقه.

[۴۲۶] الخسف: الذّل. يعنى أنّ الثّورة الآتية تعاملهم بالإذلال.

[۴۲۷] مصبّرة مملوءة إلى أصبارها بمعنى حافتها، يعنى لا يرحمهم ولا يخفف عنهم.

[۴۲۸] حلس البعير: كساء يوضع على ظهره، يعنى أنّ الثّورة الآتية تلبس بنى أُمية الخوف.

[۴۲۹] نهج‌البلاغة- رقم النّصّ: ۹۳.

[۴۳۰] نهج‌البلاغة- رقم النّصّ: ۱۰۶.

[۴۳۱] القزع: القطع المتفرقة من السّحاب.

[۴۳۲] ركام السّحاب: السّحاب المتراكم. والمستشار مكان تجمعهم وانطلاقهم ثائرين، وسيل الجنتين السّيل الّذى دمّر اللّه به قوم سبأ وحضارتهم عندما طغوا وبطروا.

[۴۳۳] القارة: ما اطمأنّ من الأرض. والأكمة: ما ارتفع من الأرض، يعنى أنّ الكارثة ستكون شاملة عليهم لا يفلت منها أحد منهم ولا مؤسّسة من مؤسّسات دولتهم.

[۴۳۴] السّنن: الجرى، والطّود: الجبل العظيم، والحداب: المرتفعات. والمراد هنا هو المراد فى رقم: ۳.

[۴۳۵] يزعزعهم: يفرقهم فى بطون الأودية حيث يختفون، كناية عن أماكن اختفائهم، ثم يجمعهم.

[۴۳۶] نهج البلاغة- رقم النّصّ: ۱۶۶.

[۴۳۷] قرارات النّساء: أرحام النّساء.

[۴۳۸] نجم: ظهر. قرن: رئيس أو جماعة.

[۴۳۹] نهج‌البلاغة- رقم النّصّ: ۶۰.

[۴۴۰] راجع دراسة موسّعة ومعمِقة عن هذا الموضوع فى فصل الوعظ من كتابنا، دراسات فى نهج‌البلاغة- الطّبعة الثّالثة.

[۴۴۱] سورة يوسف مكّيّة-۱۲ الآية: ۸۷.

[۴۴۲] سورة المؤمن مكّيّة-۴۰ الآية: ۵۱.

[۴۴۳] سورة الأنبياء مكّيّة-۲۱ الآية: ۱۰۵.

[۴۴۴] سورة الأعراف مكّيّة-۷ الآية: ۱۲۸.

[۴۴۵] سورة يوسف مكّيّة-۱۲ الآيات: ۱۱۱-۱۰۹.

[۴۴۶] قال تعالى: «قُل لِمن ما فى السماواتِ والأرضِ؟ قُل للّه، كتب على نفسِهِ الرحمَةَ» سورة الأنعام مكّيّة-۶ الآية ۱۲ وقال تعالى: «وإذا جاءك الّذينَ يُؤمِنُون بَآياتِنا فقُل سلام عليكُم كتب ربُّكُم على نفسِهِ الرَّحمةَ، أنهُ من عمِل مِنكُم سُوءاً بِجهالةٍ، ثُمَّ تاب من بعدِهِ وأصلح فأنَّهُ غفُور رحِيم» سورة الأنعام مكّيّة- ۶ الآية: ۵۴.

[۴۴۷] قال تعالى ... « ذُو رحمةٍ واسِعةٍ، ولا يُردُّ بأسُهُ عن القوم المُجرمين» سورة الأنعام مكّيّة- ۶ الآية: ۱۴۷ وقال تعالى: «قال عذابى أُصيبُ به من أشاءُ ورحمتى وسعت كُلَّ شىءٍ، فسأكتُبُها لِلَّذِينَ يتَّقُون، ويُؤتُون الزَّكاة والَّذِين هُم بآياتِنا يُؤمِنُون» سورة الأعراف مكّيّة- ۷ الآية: ۱۵۶.

وقال تعالى «ربَّنا وسِعت كُلَّ شىءٍ رحمةً وعِلماً، فاغفر للَّذِين تابُوا واتبعوا سبيلك وقِهِم عذاب الجحيم» سورة المؤمن مكّيّة-۴۰ الآية: ۷.

[۴۴۸] قال اللّه تعالى: «يُريدُ اللّه أن يُخفِّف عنكُم، وخُلِق الإنسانُ ضعِيفاً،» سورة النّساء مدنيّة- ۴ الآية: ۲۸.

[۴۴۹] سورة الإسراء مكّيّة-۱۷ الآية: ۹.

[۴۵۰] سورة الزّمر مكّيّة-۳۹ الآية: ۱۸-۱۷.

[۴۵۱] سورة الأحزاب مدنيّة-۳۳ الآية: ۴۷.

[۴۵۲] الهوى: الميل والرّغبة، يعنى هنا الموقف السّياسى.

[۴۵۳] يرعف بهم.. يوجدون فى المجتمع من غير أن يتوقّع وجودهم لاختلافهم النّوعى الأساسى عن الأخلاقيّة والذّهنيّة السّائدة فى المجتمع، فيفاجأ المجتمع بوجودهم. كما يفاجئ الرّعاف صاحبه.

[۴۵۴] نهج‌البلاغة- رقم النّصّ: ۱۲.

[۴۵۵] يضم نشركم: يجمع شتاتكم ويوحد مواقفكم فى حركة تاريخيّة واحدة.

[۴۵۶] نهج‌البلاغة- رقم النّصّ: ۱۰۰.

[۴۵۷] ابن أبى‌الحديد: شرح نهج‌البلاغة- ۹۴: ۷.

[۴۵۸] أمّ ولد: كناية عن الأمة المملوكة.

[۴۵۹] المصدر السابق: ۹: ۷.

[۴۶۰] الفلذة: القطعة. والكبد فى المعتقد الطّبّى القديم من أشرف أعضاء الإنسان وأكثرها أهمّيّة فى بقائه وصحته، فهى تخرج الأرض: أفضل كنوزها وثرواتها.

[۴۶۱] نهج‌البلاغة- رقم النّصّ: ۱۳۸.

[۴۶۲] لعلّ ابن ابى‌الحديد قد طافت بذهنه هذه الفكرة حين قال معلّقاً على احد نصوص نهج‌البلاغة بهذا الشّأن: «ثم وعدهم بقرب الفرج، فقال: إنّ تكامل صنائع اللّه عندكم، ورؤية ما تأملونه أمر قد قرب وقته، وكأنّكم بعد قد حضر وكان، وهذا على نمط المواعيد الإلهية بقيام السّاعة، فإن الكتب المنزلة كلّها صرّحت بقربها، وإن كانت بعيدة عنّا، لأنّ البعيد فى معلوم اللّه قريب،وقد قال سبحانه إنَّهُم يرونهُ بعِيداً ونراهُ قرِيباً «شرح نهج‌البلاغة ۹۵.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّـلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة اصفهان
للبحوث والتحریات الکمبیوتریة
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹